جرمين تيليون

الحريم وأبناء العم

تاريخ النساء في مجتمعات المتوسط



دار الساقي

الحريم وأبناء العم

جرمين تيليون

الحريم وأبناء العم

تاريخ النساء في مجتمعات المتوسط

ترجمة:

عز الدين الخطابي وإدريس كثير



دار الساقي

الطبعة الأولى ٢٠٠٠

ISBN 1 85516 318 7

دار الساقي

بناية تابت، شارع أمين منيمنة (نزلة السارولا)، الحمراء، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان

هاتف: ٣٤٧٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٧٣٧٢٥٦ (٠١)

DAR AL SAQI

London Office: 26 Westbourne Grove, London W2 5RH

Tel: 020-221 9347; Fax: 020-229 7492

المحتويات

بصدد الإنثولوجيا

مقدمة الطبعة الرابعة

قبل تقديم هذا الكتاب للطباعة، كنت قد سحبت بعض الفصول ذات الصبغة التقنية إلى حد ما، وذلك من أجل تطويرها من جهة، وحتى لا يكون في الأمر ما يحير قرائي من جهة أخرى. وقد مرت على ذلك عشر سنوات بالضبط، وما زالت الفصول خاضعة للتطور، بينما يؤكد لي الكثير من القراء، الذين كان عددهم أكبر مما كنت أتوقع - ما دمنا نهيئ اليوم لطبعة رابعة - أنهم كانوا عرضة للحيرة.

صحيح أن موضوع الكتابة نفسه يتموقع داخل مناطق علمية محايدة على حدود التاريخ وما قبل التاريخ والإثنولوجيا والسوسيولوجيا، حيث يحاول إضاءة بعض الأماكن المظلمة الكلاسيكية نوعاً ما. ولا يمكنني من خلال هذه المقدمة تلخيص الدراسة التي ستتم قراءتها، لأنها هي ذاتها مختصرة وإلى أبعد الحدود، هذا من دون أن يكون في ذلك تعتيم على محاولة التحليل والتفسير. لنقل بأن التصور الذي تخضع له الدراسة هذه يتمثل في رؤية التاريخ [المساحة التاريخية؛ العصر التاريخي، بل حتى الفضاء التاريخي] بنظارات الإثنولوجيا ذات الفائدة بالنسبة إلى من هم في حاجة إلى التعلم مثلنا.

إن الإثنولوجيا - وهي ليست مجرد علم للإنسان، بل هي نزعة إنسانية أيضاً - تشغل، على مستوى تبادل التعارف بين الشعوب، حيزاً موازياً في أهميته للدور الذي يلعبه الحوار على مستوى الأفراد: فهناك حركة متواصلة للفكر الذي يتم تصحيحه باستمرار.

ففي الحوار، مثلما هو الشأن في الإثنولوجيا، نكون اثنين، فهناك محاور

[كائن مجهول، شعب مجهول] يقابله كائن آخر: ذلك الذي نعرفه أكثر، وذلك الذي نعرفه بشكل أقل. ويباشر الحوار كما يبدأ المكوك عملية الذهاب والإياب، وفي أثناء كل عملية يتغير شيء ما ضمن الجانبين لا ضمن جانب واحد، لأن ما يدركه المحاور بنفسه يخالف ما يراه المتكلم، والعكس بالعكس. لكن في المقابل، فإن كل واحد يرى في نفسه ما يجهله الآخر عنها. إن هذه المواجهة ستبرز رسوماً متوارية، وسيحدث على هذا الأساس شيء شبيه باستكشاف جوي لمشهد طبيعي ما.

تصور مثلاً أنك تتجول في البادية مشياً بحيث ترى ممراً ملتوياً إلى حد ما، محاطاً بحقول القمح والخرطال والأعشاب البرية، وقد تلاحظ زهرة الربيع أو باقة من الخشخاش المنثور أو فأرة حقول صغيرة... لكنك لو كنت بالطائرة أو على متن هليكوبتر، فإنك لن تشاهد فأرة الحقول الصغيرة ولا زهرة الربيع ولا باقة الخشخاش، لكن قد تتمكن من أن تميز داخل حقل خرطال نابت رسماً باهتاً ذا شكل مربع على الوجه الأكمل أو شكل مستطيل أو دائري، إلا أنه لا يكون بادياً حينما نمشي بداخل الحقل. وحينما يظهر هذا الرسم الهندسي، فإننا نعلم بأنه يقابل شيئاً ما مختفياً يشكل عائقاً أمام نمو العشب: أسوار معبد أو قلعة أو قصر أو منزل...

إن التجربة اليومية تعلم كل واحد أن الإنسان يخلق وينمو داخل فقاعة - هي بمثابة عالم كروي صغير، لم يتمكن هذا الجنين الذي هو نحن، من تجاوز حدوده قط - فنحن نباشر هذا التجاوز وهذا التوسيع عن طريق الحوار، لكن هاتين العمليتين [أي التجاوز والتوسيع] تظلان محدودتين، ما دامتا لم تعبرا أسوار تلك العوالم الأُخرى التي تمثل كل ثقافة، كل وطن، كل ديانة - إنها شبيهة ببساتين مسورة جميلة...

إذاً، الإثنولوجيا حوار مع ثقافة أُخرى أولاً، وهي مراجعة للذات وللآخر، ومن الممكن أن تكون أيضاً مجابهة تتجاوز الذات والآخر [لا ننسى أن مفهوم وحدة الجنس البشري، وهي وحدة ليست فيزيقية فحسب بل اجتماعية كذلك، لم يبدأ في فرض نفسه إلا بعد أن بادر الإثنولوجيون الأوائل إلى الشروع في هذه المواجهة].

لقد كانت إحدى أولوياتي تتمثل في تعرية أسس مجتمع «نا» الخاصة.

والحال أن التعريف الخالص والبسيط لهذا المجتمع يمثل بشكل سابق انطلاقة غير مألوفة، لأن هذا الأخير لا يقابل هنا وطناً أو لغة أو ديناً، بل إن معناه ينحصر في إطار مؤسسات أو تنظيمات أو بنىً تتجلى وظائفها لدى الشعوب المسماة «تاريخية». إن الأمر يتعلق إذاً بأكبر جزء في أوروبا وبنصف آسيا وبشمال إفريقيا، وتفرعاتها في القارة الأمريكية. وعلى هذا الأساس، ماذا سيتبقى خارج هذا «المجتمع» الشاسع؟ فقط شعوب تسمى «متوحشة» - أي أناس كانوا عند أواخر القرن الرابع عشر يحتلون جزءاً كبيراً من المساحة الأرضية، ولكنهم يشكلون اليوم فئة قليلة استمرت في البقاء ببعض الجزر النائية التي تعتبر بمثابة طريدة محروسة من طرف الإثنولوجيين الصداميين والتي تثير أطماع أندية البحر الأبيض المتوسط - . . . وعلى الرغم من أن لفظة «متوحشين» لم تعد تؤخذ بمعناها القدحي، فإنني أفضل تسمية هذا النوع من المجتمع «جمهورية الأصهار» كي يتم تأكيد خاصيته الأكثر بروزاً، وأقصد بذلك التصاهر الضروري بين غير الأقرباء، وهي حيلة مكنت نتائجها السياسية والاقتصادية بل والبيولوجية من ضمان استمرارية بقاء أفراد هذا المجتمع لمدة طويلة - ويمكننا أيضاً أن نصف هذا المجتمع بالاعتماد على مصطلح «النمو صفر» الذي أصبح اليوم، وللمرة الثانية، موضة بعد أن فقد قيمته مدة طويلة [وأخمِّن بالفعل أن فقدان الثقة هذا قد بدأ في الظهور في أوراسيا إبان العصر الحجري الجديد (النيولوتيكي)].

لقد سُمِّي المجتمع «التاريخي» (أي مجتمعنا) في هذا الكتاب جمهورية أبناء العم. وهو مجتمع يحترم قرابته فعلاً من الناحية الأبوية، متخلياً عن تلك التنشئة القوية (المعروفة باسم الزواج الخارجي) التي أنقذت المجتمع «المتوحش». إنه، على وجه الخصوص، مجتمع متحمس للنمو في جميع الميادين (اقتصادياً ومكانياً وترابياً).

وقد وفق هذا المجتمع، ولمدة طويلة، في فلسفته هذه إلى درجة أنها مكنته من القضاء على الجمهورية المتوحشة (إذ يبدو أن مجرد وقوع الاتصال بين «المجتمعين» يكون له حيث يتم، تأثير قاتل على المجتمع الأفضل]. بطبيعة الحال، يمكن أن ننسب بعض الجرائم إلى المجتمع الأقوى، لكن ذلك لا يكفي لتفسير الانهيارات التي أحدثها، ولتحقيق ذلك يجب، على ما يبدو، وضع مقارنة عميقة بين الوظائف والاتجاهات السائدة داخل كلا النسقين.

إن «المجتمع» الفاتح هو الذي انغمسنا فيه جميعاً، أنا وجميع قرائي (إضافة إلى أقربائنا القريبين والبعيدين و جميع الناس الذين نعرفهم). لذلك فإنه من الطبيعي أن تبرز أمامنا بوضوح أصغر الانشقاقات القابلة للكشف، ضمن عادات وتقاليد هذا المجتمع، في حين أن أكثر مظاهر أصالته بروزاً لا يتم إدراكها [أو أنها تظهر كنتيجة لقانون ما خاص بالنوع - بل حتى كنتيجة لأخلاق ذات أصل فوق طبيعي]. لقد تسنى لي، لسنوات عديدة وفي مناطق وظروف مختلفة، ملاحظة ومقارنة بل ومعاينة تطور بعض من هذه «المظاهر الأصيلة» بحيث بدت لي كأنها تهم مباشرة عدداً من مشكلاتنا الأكثر راهنية وبشكل خطير: أقصد بذلك وضعية النساء وفلسفة معينة للنمو. إننا نعلم بأن المجتمع المتوحش يتشتت عبر الكثير من مناطق العالم، لكن ليس هذا هو حال مجموع المؤسسات التي تميز «جمهورية أبناء العم» التي تنتشر وتمتد على العكس، من جبل طارق إلى اليابان، على مساحة أرضية واحدة وفوق مركز سطحي متميز هو شرق المتوسط.

إن هذا الانتشار المحيط بنواة، سنجده في ارتباط مع ظاهرة أُخرى - اقتصادية هذه المرة - في علاقة مباشرة مع تغير جذري لأنماط الإنتاج: أقصد بذلك ابتكار ونشر الزراعة والرعي، وهي ثورة مادية هائلة (يمكننا على هذا الأساس، موضعتها والتأريخ لها بدقة ابتداءً من العصر الحجري الجديد). إن هذه الثورة التي برزت أيضاً في شرق المتوسط، ستعم فيما بعد أرجاء الأطلسي والمحيط الهادئ، وذلك باتخاذها سمات «جمهورية أبناء العم». إن فرضيتي تتمثل في التقريب بين هذا وذاك: بين الخبز[1] والزبدة والقِدْر والحساء من جهة، وأصل الحريم والزواج التفضيلي بين أبناء العم وكذلك الفلسفة التوسعية من جهة أُخرى.

واليوم نرى أن الحساء قل حجمه داخل القِدْر، وليس من قبيل المصادفة إذا ما كانت متطلبات الساعة قد قادت جميع شعوب المنطقة التاريخية نحو

(١) إذا تفحصنا بدقة خريطة توزُّع المحراث في القرن الخامس عشر (وقد تم نقلها من طرف ج. و. هويز ضمن الكتاب المهم لفرنان بروديل، **حضارة مادية ورأسمالية**، ص ٤٠، أرمان كولان)، فسنلاحظ أنها مطابقة تقريباً لخريطة عزلة الحريم، وهو أمر غير مدهش إذا ما قُبِل برهاني.

مستوى إعادة التوجه، وذلك عبر تعويض التوسع بالتوازن، ومن خلال ضبط عمليات النمو بحسب الموارد المتوفرة. وفي إطار ذلك، فإن هذه الشعوب ستصطدم جميعها بطرق في التفكير كان ميلادها (بحسب فرضيتي) عند النهاية المحترمة لعصر الكهوف، وهي طرق بلغت درجة تغلغلها داخل فلسفات هذه الشعوب، حداً جعلها موضع تقديس من طرف هذه الأخيرة.

باريس، تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٤

جيرمين تيليون



الفصل الأول
ساكنو ضفاف المتوسط النبلاء

«بالنسبة إليّ لا أرفض تصديق ما يُحكى لي، إلا أنني في الوقت ذاته لا أصدق ذلك كثيراً».

هيرودوت

عندما عنونت هذا الكتاب بـ **الحريم وأبناء العم**، أردت إثارة الانتباه إلى خاصية تجعل المجتمع المتوسطي التقليدي معارضاً للمجتمعات الحضرية وللمجتمعات المسماة متوحشة في الوقت نفسه. والخاصية هذه هي، بلا شك، أصل الإذلال العنيد الذي طاول وضعية المرأة، لذا كان من المهم، وربما من المفيد، العمل على تتبع التشويهات التي لحقت بهذه الوضعية في الزمان والمكان.

وإذا ما أردنا تقسيم العالم إلى ثلاثة أجزاء، بحيث يشكل كل جزء فيه بنيته الخاصة، فإن في إمكاننا، ولأسباب بديهية، إطلاق اسم «جمهورية المواطنين» على الجزء العصري، أما بالنسبة إلى المجتمع المسمى متوحشاً، فإن حوافز مألوفة لدى الأنثروبولوجيين[١] تسمح بإقرار لقب «جمهورية الأصهار» كتمييز لهذا المجتمع.

والمقصود بالأقرباء «الشرعيين» في الواقع، جميع الأفراد الذين يحملون الاسم نفسه ويعيشون في المنطقة نفسها. إن أحد الزوجين يكون لزاماً عليه إذن مغادرة منطقته، وهذا اللزوم (الذي يتوافق مع حذر جاد اتجاه والديّ الزوج أو

(١) إن المجتمعات «البدائية» تتميز بشمولية الزواج الخارجي، أي تحريم الزواج من قريبة شرعية.

الزوجة اللذين قد يكونان أصغر أو أكبر سناً) يفرض على الراشدين من الجنسين مجتمعاً شبه مقتصر على الأصهار، سواء أكانوا موجودين بالفعل أم بالقوة.

المواطنون والأصهار

تبدو كل من «الجمهوريات المتوحشة» و«الجمهوريات العصرية» كعوارض، إن لم تكن منطقية فهي على الأقل عامة في مسيرة التطور البشري، وهو ما قد لا ينطبق على بنية المجتمعات المتوسطية.

لهذه البنية الثالثة بالفعل تفردها في امتلاك سمة جغرافية ومجال خاصين: أقصد بذلك ضفتي البحر الأبيض المتوسط والبلدان الموجودة خلفهما. وعلى العكس من ذلك، توجد «الجمهورية العصرية» الآن في جميع جهات الأرض تقريباً، وهي تمتد من بكين إلى نيويورك. إن كونها تقابل «الجمهورية المتوحشة» (التي يمكن موضعتها بعض الشيء) لأمر بديهي، لن أعمل على توسيعه، لأنه لن يتم الاهتمام في هذا الكتاب الصغير لا بهذا المجتمع ولا بذاك، سواء من بعيد أو من قريب.

ونرى أنه ليس من الضروري تعريف «جمهورية المواطنين»؛ فجميع الناس الذين تعلموا القراءة [وهذا بالضرورة هو حال قرائي] ترددوا على المدرسة، حيث تم، في إطار درس للتربية الوطنية، تعليمهم بهذا القدر أو ذاك، معنى دولة، أمة، وطن. إنهم يعرفون كذلك أن تضامناً مهماً ـ وهو بالنسبة إلى البعض من الأولويات ـ يشدهم إلى الأفراد الذين ينتمون إلى تشكيلاتهم الوطنية.

إن «جمهورية المواطنين» ليست حديثة العهد، ولكنها ما زالت تنمي جذوراً قوية أينما وجدت التربة ملائمة، كما تستمر في توسيع منطقة نفوذها، وهي تجد تجسيدها في الدول المبنية التي تملك على الأقل مدينة كبيرة إضافة إلى شيء آخر: تملك مثلاً لغة أو ديناً جماعياً، أو على أسوأ افتراض، سلالة حاكمة قديمة. والحال أنه إذا ما اعتبرنا مجموع الكرة الأرضية منقسمات إلى دول، وبأن المدن الكبرى تتكاثر وتتسع، يمكننا الإقرار بأن «جمهورية المواطنين» هي على الأرجح، مرحلة حتمية في مسيرة التطور الإنساني.

هل هي آخر مرحلة؟ إن الكثير من المؤشرات تعلن ظهور تشكيلات أوسع، ليست منبثقة في مجموعها من إرادة سياسية، ولكنها تخضع لمتطلبات هذا العصر. وتعمل هذه التشكيلات على التسرب ببطء داخل الوعي الشعبي نفسه للأوطان المتميزة بتغلغلها في القِدم. غير أن الدول الحديثة تقوم في الوقت نفسه بضمان إحياء النزعة الوطنية، إن لم نقل النزعة المواطنية في أشكالها الأكثر فتوة.

وفي المقابل، إذا ما تفحصنا انتشار المجتمعات ـ التي كانت تعرف في القرن الثامن عشر بالمتوحشة ـ عبر أرجاء المعمورة، فإننا سنكتشف بسهولة أن هذه المجتمعات هي عملياً في طريقها إلى الزوال الآن، حيث توجد في صراع مع الحياة: في استطاعتنا القول إننا لا نعرف بدايتها، ولكن من الممكن التنبؤ بنهايتها.

إن الجمهور القارئ نادراً ما يعرف هذه المجتمعات، على الأقل بصفة مباشرة، غير أنه بدأ يهتم أكثر فأكثر بالمؤلفات التي تخصصت في دراستها[١]. وقد تعلم قراء هذه المؤلفات أن وراء عادات تبدو لأول وهلة مثيرة للسخرية أو فظيعة أو غريبة حتى، غالباً ما يختفي منطق ما، وأحياناً حكمة ما[٢].

هل تشكل هذه المجتمعات مرحلة قديمة جداً أو «طفولة» المجتمع الإنساني صينت مصادفة داخل بعض القارات البعيدة واختفت في جهات أُخرى؟ إن العديد من رجال العلم قد اعتقدوا ذلك، والعديد منهم ما زال يحمل التصورات نفسها. ومع ذلك، يمكن على المستوى الجغرافي أن نعين لهذه المجتمعات موطناً يظل في الحقيقة غير واضح المعالم: يبدو أنها أقامت في تلك المناطق التي كانت العصور اليونانية ـ الرومانية القديمة تجهلها. ومن دون الذهاب إلى تأكيد عدم وجودها في العالم المتوسطي، فقد تم هذا الوجود في

(١) من غير المستحيل أن تكون العوائق التي يفرضها المجتمع العصري قد ساهمت في خلق هذا الاهتمام. وعلى مستوى أكثر عمومية، فإن «عوائق التطور» ستكون من بين موضوعات هذا الكتاب.

(٢) وهو ما يمكن استنتاجه من خلال جل الأبحاث الإثنولوجية المعاصرة. وأكثر البراهين اتساعاً ومتانة في هذا الإطار توجد في: ك. ليفي ستراوس، **الفكر المتوحش**، باريس، بلون، ١٩٦٢.

مرحلة غابرة لما قبل التاريخ يصعب تحديدها.

إن الواقعة الأكثر ثباتاً داخل هذه المجتمعات [التي تتميز، فضلاً عن ذلك، بتنوعات مجتمعات القرون الوسطى المتعلمة، وبالتالي فهي أكثر تنوعاً من المجتمعات المتعلمة المعاصرة التي تميل إلى تحقيق وحدتها] تتمثل في تحريم الزواج من امرأة تحمل الاسم ذاته الذي تحمله أنت وتنتمي إلى السلالة الشرعية ذاتها. وهذا معناه أنه في إطار الأنساق التي ينتقل فيها الاسم بالوراثة عن طريق الأب، لا يمكن الزواج من ابنة العم من قرابة أبوية، وأنه في إطار الأنساق التي ينتقل فيها الاسم بالوراثة عن طريق الأم، فإن بنات الخالات جميعهن يعتبرن بمثابة أخوات لا يمكن الزواج منهن بتاتاً، وكيفما كان البعد القرابي بين المعنيين بالأمر.

وبالفعل، فإن جميع نساء القرية أو زمرة الخيام حيث ترعرع الطفل[1]، هن عملياً بالضبط اللواتي لا يسمح له بمساسهن ـ اللهم إذا ما تم ذلك بطريقة سرية جداً ربما تؤدي إلى مواجهة مخاطر كثيرة قد يكون مصدرها طبيعياً أو فوق طبيعي ـ فيجب عليه أن يجلب زوجته من «الخارج» حيث توجد قرية أخرى وزمرة خيام أُخرى، وحيث يكون ملزماً في بعض الأحيان بالاستقرار مدى الحياة.

وسينتج من الوضعية هذه تضامن اعتيادي يجمع في الغالب بين هذا الولد وبين إخوة وأبناء عم زوجته، وكذلك أزواج أختها [أصهاره]. [إن نوعاً من الخلط يقع عملياً في هذا الصدد، لا سيما أن المصطلح نفسه يُستخدم عموماً للإشارة إلى الإخوة وأبناء العم]، لهذا السبب نسمح لأنفسنا بتسمية هذا النوع من المجتمع «جمهورية الأصهار».

لقد حلل جل الإثنولوجيين ظاهرة الزواج من الخارج بعد ظهور كتاب

---

(١) توجد أيضاً أنساق ينتمي فيها الطفل إلى عشيرة أمه، ولكنه يربى داخل عشيرة أبيه. في المصطلح الإثنوغرافي نقول إذن إن العشيرة تمثل تنظيمين اجتماعيين في آن معاً؛ فهناك من جهة الانتماء إلى عائلة الأم، وهناك من جهة أُخرى السكن مع عائلة الأب، وهذه بالضبط حالة الطوارق الذين سنخصص لهم دراسة هي الآن قيد التحضير.

مارغريت ميد[١]، ونقلوا الجواب الذي تلقته الأخيرة في أثناء مقامها بقبيلة الأرابيش؛ ذلك الجواب عن السؤال حول ارتكاب المحارم والذي لخصته ميد كالتالي: «ألا تريد أن يكون لك أصهار؟... مع من ستذهب إلى الصيد؟ ومع من ستقوم بعملية الغرس؟ ومن ستعود من أقاربك؟».

بين هوراس وأنتيغون

إن جواب أي مغاربي على الأسئلة السابقة سيكون: «أذهب إلى الصيد وأغرس مع أبناء عمي...».

وبالفعل، فهناك بنية ثالثة مخالفة لكل من البنية «المتوحشة» (الأصهار) والبنية «المتحضرة» (المواطنين)، يمكن تسميتها «جمهورية أبناء العم»، لأن الرجال الذين يعيشون داخل هذا النسق يعتبرون أن من واجبهم التضامن مع جميع أقربائهم من نسب أبوي باعتبار ذلك أكثر أهمية أحياناً من التزاماتهم الأخرى، بما في ذلك التزاماتهم المدنية والوطنية.

إن أنتيغون، التي تضع واجباتها تجاه إخوتها المقتولين فوق واجب الوطن، هي البطلة النموذجية لهذا النوع من المجتمع ـ ولقد ظلت الموافقة التي منحها القدماء لها سارية المفعول ـ، أما هوراس، الذي قتل صهره باسم الوطن وعلامات الفرح بادية عليه، فإنه يمكن أن يعتبر بطلاً لـ «جمهورية المواطنين».

وفي الحقيقة، إن حياة صهر أو سعادة أخت في «الجمهوريات المتوسطية»، ولكونهما قدمتا لهذا الروماني الشاب فرصة مناسبة للصراع داخل العائلة[٢]، ليستا ذات قيمة تذكر. من هذا المنظور، فإن هوراس يتميز أيضاً بخاصية المنطقة التي ينتمي إليها، مثلما هو الأمر بالنسبة إلى أنتيغون، وهما معاً يرسمان حدودين مثاليين لـ «جمهورية أبناء العم».

الفتاة اليونانية العذراء بجانب الوطن، والبطل الروماني المقدام بجانب العائلة.

---

(١) مارغريت ميد، **العادات والسلوك الجنسي في أوقيانوسيا**، ترجمة ج. شيفاساس، باريس، بلون، ١٩٦٣، ص ٧٧ (وقد ظهر الكتاب في الولايات المتحدة الأمريكية سنتي ١٩٢٨ و١٩٣٥).

(٢) انظر الفصل الخامس، «شرف الأخوات»، ص ١١٦ ـ ١٢٠ من الكتاب.

لقد كانت منطقة البحر المتوسط التي ينتمي إليها هذان البطلان، محظوظة لمدة طويلة. أكانت المدة طويلة حقاً؟ يمكننا توضيح الأمر أكثر باعتبار أن هذا الامتياز الجغرافي قد ظهر مع المناخ الحالي. فهو إذن قد ظهر لحظة انتهاء عهد سوسيولوجي، وهي المرحلة المتأخرة من العصر الحجري القديم. ولقد استمر بعد ذلك إلى أن عمل الفلاحون وجموع الماعز والفراعنة على استنزاف جزء من موارد هذه المنطقة بالقضاء على أجمل غابات الجنة الأرضية.

والواقع أن الضفاف الشرقية للبحر الأبيض المتوسط، وفي غمرة الازدهار النباتي الذي ورثته عن الحقبة السابقة، ستشهد ميلاد كل ما يمكن نعته بـ «حضارة». وقد تمت تسمية هذا الحدث «ثورة العصر الحجري الجديد»؛ هذا العصر الذي بدأ يظهر منذ حوالي مائة قرن تقريباً. وخلال القرون الخمسة والعشرين اللاحقة، انتشرت الابتكارات التي ستغير وجه الأرض بلمعان حول مركز تبعثرها [زراعة، رعي، جر بالعربات، ملاحة، حياكة، صناعة الخزف]. ويمكننا، بفضل الأركيولوجيا، أن نتبع آثارها وملاحظة أن أقدم الرواسب تقابل إجمالاً العالم القديم[1].

هل من الممكن إقرار علاقة بين البنية المسماة هنا «جمهورية أبناء العم» والمصادفة الجغرافية التي أعطت ـ في مكان وزمان محددين ـ فرصة هائلة للنوع البشري من أجل تحقيق مهماته؟ على أية حال، فإن العلاقات هذه لا تعني بتاتاً أن من الممكن الجمع، بشكل عام، بين الزراعة والزواج الداخلي، بل تعني فقط أن زواجاً داخلياً [أي الزواج التفضيلي بين أبناء الأخوين] قد نجم في المنطقة المتوسطية عن اضطراب اجتماعي ما سيكون مصدره ذلك الحدث الثقافي الكبير الذي أتينا إلى ذكره.

إذن، لن تكون بنية الزواج الداخلي المتوسطية مرتبطة بمرحلة حتمية من التطور الإنساني، بل بحدث، أو بتعبير أدق بمصادفة: إن كل حدث يقابل منطقاً للتطور، لكن التقاءهما يشكل في حد ذاته حدثاً تاريخياً ـ مع كل ما

(١) سيكون من المفيد أن ندقق في الأمر أكثر، وهذا ليس بالمستحيل، شرط أن نعرف بدقة تواريخ تبعثر العصر الحجري المشرقي الجديد. هل نحد هذه المنطقة بأنهار الدانوب، السنغال أو الغانج؟ هل تمتد مساحتها إلى ما هو أبعد؟ إلى ما هو أقل بُعداً؟

يتضمنه هذا التعبير من دلالة اتفاقية. ومن المسلم به، من جهة أُخرى، أن الأمر يتعلق بافتراضات لا بتأكيدات.

تحليل اجتماعي للحريم

في العالم المعاصر، يبدو أن ساكني هذه المنطقة حالياً هم على وجه الخصوص كاثوليكيون موجودون في الضفة الشمالية[1]، ومسلمون موجودون أساساً في الضفة الجنوبية. ويبدو أيضاً أن عزل النساء الذي يرمز إليه بالحريم قد استدعى الانتباه أكثر نحو المنطقة الثانية، أي نحو الجهة المسلمة من البحر.

لقد كنت مدعوة، انطلاقاً من الملاحظة المباشرة للمجتمعات المعينة، إلى افتراض علاقة سببية بين الزواج الداخلي في القبيلة [أو بالأحرى تدهوره] وبين نوع من الإذلال الذي يطاول وضعية المرأة.

يشكل الإذلال الذي أصاب وضعية المرأة في العالم ظاهرة عامة فعلاً؛ فالمرأة أضعف جسمانياً من الرجل، وبالنسبة إلى هذا الأخير، كان ملائماً وممكناً في الوقت نفسه، تملّك امرأة، بل أكثر من امرأة واحدة، ومعاملتها مثل باقي ممتلكاته. أما عكس هذا الأمر، فقد كان يستوجب توفر ظروف نادراً ما تجتمع.

هناك إذن مجتمعات كثيرة تعامل فيها المرأة ككائن ناقص عقل، غير أن شكل هذا الاستعباد يختلف من منطقة إلى أُخرى: فهو في المنطقة المتوسطية يطاول بعض السمات الخاصة والعنيدة جداً، وهي على الأرجح سمات لا تجد من يضاهيها عناداً في أي مكان آخر، لأنها مدمجة داخل نسق اجتماعي ملتحم.

والحال أن حجب النساء المتوسطيات وإخضاعهن لأشكال الاستلاب المتنوعة، يعبّران في وقتنا الحالي عن أضخم مستبقيات الاستعباد الإنساني، وفوق ذلك، فإنهما لا يحطان فقط من قيمة الكائن الضحية أو الكائن الذي يستفيد من تلك الوضعية، ولكنهما ـ ولأن أي مجتمع لا يمكنه أن يكون أنثوياً

---

(١) إننا نجد أيضاً أقليات مسلمة مهمة في شمال المتوسط (يوغسلافيا، ألبانيا) وأقليات مسيحية مهمة في كل من الجنوب والشرق، وكذلك أقليات يهودية قديمة جداً في العديد من البلدان الإسلامية.

أو ذكورياً كلية، يعملان على شل التطور الاجتماعي برمته ـ ويشكلان، في إطار التنافس الحالي بين الشعوب، سبباً للتأخر لا يمكن تعويضه بالنسبة إلى أولئك الذين لم يتحرروا من تأثيرهما بعد.

هذا الاحتقار التقليدي الذي يصيب عدداً كبيراً من الأفراد ـ نصف المجتمع ـ يلقى من جهة أُخرى تأييدات ليست جميعها ذكورية[١]، كما أنه يلاقي خصوماً ليسوا جميعهم إناثاً، لأن المرأة، مثل الكثير من العبيد، تكون متواطئة أحياناً. لكن، كما أنه لا يوجد وسط يتوفر على وجهة نظر منحصرة في النطاق المحدود للنساء[٢]، أو للرجال، كذلك لا يوجد في أي مكان شقاء معزول ذو صبغة أنثوية محضة، ولا يوجد إذلال يجرح الفتيات من دون أن يلطخ الآباء، أو يصيب الأمهات من دون أن يؤثر في الأبناء.

وعلاوة على ذلك، فإن الإقلال من دور المرأة عموماً ومن قيمتها ككائن بشري ـ فضلاً عن المصائب الفردية ـ ينتقل بواسطة الطفولة إلى المجتمع برمته، ويلعب دور الكابح لتطوره.

لهذه الاعتبارات كافة، بدا لي أنني سأسدي خدمة الآن بتفسير أو ـ إذا ما استعملنا لفظة جديدة مسايرة للموضة ـ بـ «كشف وهم» الحريم. لن نجد في الدراسة هذه وصفاً للحريم، ولكن مجرد محاولة للكشف عن أسبابه، والقيام بتحليله تحليلاً اجتماعياً بعد التحقق من هذه الأسباب. بالفعل، كما هو الأمر في ميدان التحليل النفسي، يجب علينا أولاً ملاحظة الموضوع الذي يهمنا بدقة ـ وهو هنا المجتمع الراهن أو حديث العهد ـ وأن نأخذ بعين الاعتبار أخطاءه وهفواته[٣].

---

(١) دلني صحافي سويسري على وجود جمعية نسائية نشيطة جداً في بلاده، هدفها الاعتراض على مشاركة النساء في الانتخابات وعلى تصويتهن.

(٢) يمكننا مثلاً أن نجد آراء تمثل ٥٥٪ من النساء أو ٤٥٪ من الرجال، لكن التحليل لا يتجاوز هذه المعطيات. والحال أن النساء، وحتى في البلدان التي اكتسبن فيها حقوقاً واسعة، لم يتابعن الدراسات نفسها ولم يزاولن المهن ذاتها التي للرجال، وهذا على الأقل من الناحية الإحصائية.

(٣) إن الأفعال الشاذة، خارج النظام، هي التي تلعب في السوسيولوجيا أدواراً موحية ينسبها التحليل النفسي إلى الهفوات.

ثم يجب علينا بعد ذلك كشف رموز أحلام هذا المجتمع وتفسيرها بمساعدته، والرجوع ثانية إلى ماضيه الأبعد حتى الوصول إلى مرحلة طفولته.

وكما هو الحال في التحليل النفسي، فإننا سنملك مصدرين للمعلومات؛ فمن جهة هناك سلوكات ـ راهنة ومراقبة ـ ومن جهة أُخرى، هناك مواجهة هذه السلوكات لذكريات وأحلام مزعجة ووساوس.

وعلى المستوى العملي، فإن كلا البحثين يسير بالخطى ذاتها حيث يدفع أحدهما بالآخر.

وبتقريب عناصر هذا الكل ـ المكون من ملاحظاتنا الخاصة ـ انبثق عدد محدد من النتائج سمح بوضع بعض الفرضيات. وقد بدا لي أن هذه الفرضيات متينة نوعاً ما، إلا أنها استلزمت رجوعاً استثنائياً إلى الماضي ـ وهذا الرجوع هو الذي دفعني إلى صوغ سلسلة أُخرى من الفرضيات تخص الجذور السحيقة للمجتمع الإنساني.

ولسوء الحظ، فإن هذه السلسلة الثانية من الفرضيات ـ الأقل متانة ـ أخذت مكانها في بداية الكتاب، إلا أنني تبنيت في عرضي، وبشيء من التردد، ترتيباً معاكساً لذلك الذي اتبعته في أثناء البحث:

وفي الحقيقة، تم التفكير في هذا الكتاب وتأليفه كلية، انطلاقاً من الفصول الأخيرة، أي انطلاقاً من دراسة دقيقة جداً لوقائع ولمجتمعات معاصرة ولتغيرات طاولت المجتمعات في هذا القرن. ثم إني اضطررت إلى الصعود عبر مجرى الزمن إلى حقبة ما قبل التاريخ، وذلك من خلال البحث عن الروابط التي تجمع بين هذه المجتمعات، وطبيعة القوى التي ساهمت في الحفاظ عليها قرناً بعد قرن.

إنني بتتبعي الترتيب الزمني للتاريخ، قد ألحقت على هذا الأساس ضرراً بالترتيب المنطقي للتفكير. ولقد قمت بذلك لضرورة توضيحية، لأنه من الصعب حقاً أن نعرض لتاريخ مشوش وذلك بابتدائنا من نهايته. ومع ذلك، فإننا نعلم جيداً بأن على الحدث أن ينهي مسيرته كي يصبح «تاريخاً»، وبالتالي فإن أي تاريخ حقيقي لا يوجد إلا من خلال نتائجه بحيث لا تنطلق مسيرته التاريخية إلا من هذه النتائج. باختصار، إنني باتباعي الترتيب الاصطلاحي

للزمن ضمن الفصول الثلاثة اللاحقة قمت بحشد جميع الوقائع من طبيعة تاريخية بل حتى قبل تاريخية، بحيث استندت إليها واستخلصت منها فرضياتي. وهي لا تشكل مرتكزات ضرورية للفصول اللاحقة، ولكن أعتقد أنها توضحها.

أتمنى فعلاً أن يُعتبر هذا القسم الأول ـ الذي يمكن عنونته بـ «إثنولوجيا عبر الزمن» ـ نوعاً من التركيب المفيد هنا في اكتساب نظرة غاطسة باتجاه الأفق الشاسع للقرون التي سنعمل فيما بعد، وباستمرار، على إخفائها وراء الوقائع الاجتماعية المتميزة بتشتتها وبراهينها الكبيرة؛ هذه الوقائع التي سنصفها لاحقاً في مجرى الدراسة هذه.

ومن يتكلم على «تركيب غير متين»، يتكلم على «بناء مؤقت» ـ وهذا يعني أنني لا أفكر في الدفاع عن متانة السلسلة الأُولى من الفرضيات. وفي المقابل فإنني أعتقد أنه من الممكن قبول تموقعها وإقرار الأصل البعيد جداً للظواهر الاجتماعية المتنوعة والمدروسة هنا: إن نهاية ما قبل التاريخ هي المرحلة التي يجب أن نضع في إطارها، ليس نشأة «الحريم» ولكن نشأة السيرورة التي ستؤدي إليه. إن تركيباتنا ستكون مفيدة أيضاً، بالقدر الذي ستجبرنا على التفكير في حاضر أكثر راهنية عبر ماضٍ سحيق جداً.

سوسيولوجيا ذات استعمال خارجي تدعى إثنوغرافيا

منذ ما يزيد على قرن من الزمان، عندما ابتدأت العلوم الإنسانية مسيرتها، كان من الممكن تعريف الإثنوغرافيا بكونها السوسيولوجيا الخارجية؛ سوسيولوجيا الآخرين. والحال أن هذه «السوسيولوجيا ذات الاستعمال الخارجي» قد سهلت بشكل كبير فيما بعد، معرفة مجتمعاتنا الخاصة، لأنها، ومنذ انطلاقتها، استوجبت الاغتراب، أي الصفاء والوضوح.

إن أناس العوالم الجديدة ـ «المتوحشين» ـ باستئثارهم باهتمام أربعة أجيال من الإثنولوجيين، قد ساهموا بذلك في وضع خطوة حاسمة لمعرفة نوعنا الإنساني، لكنهم لم يسمحوا لجميع العلوم الإنسانية بأن تكون كذلك، إلا أنهم عملوا على تهذيبها، وذلك بتغريبها. ومن جهة أُخرى، نرى أن من الدلالة بمكان الإشارة بصدد هذا الموضوع إلى أن الاغتراب الفكري الوحيد الذي مورس قبل القرن التاسع عشر (ويتعلق الأمر بالدراسات اليونانية الرومانية) قد

حصل على الاسم الجميل لـ «إنسانيات». والحال، إن هدفنا في هذا الإطار، هو دراسة عادات متأصلة تنتمي إلى هذه الشعوب، التي نعتها صديقي مارسيل غريول، بنوع من السخرية، بـ «ساكني ضفاف المتوسط النبلاء»[١].

ومن خلال الرؤية التي اخترناها، يبدو الاختلاف ضئيلاً بين المسلمين واليهود والمسيحيين. وعلى العموم، فإن الأمر يتعلق بمجتمع «نا». لهذا كان من الأفيد أن نبتدئ بالصعود فوق هرم من القرون لكي نظفر من جانبنا بالمشاهدة الغاطسة التي هي مشاهدة الغريب. وعلى الرغم من هذه الدلائل الجيدة جداً، فإن الانطلاق من المجهول إلى المعلوم يشكل أول تقصير خطر تجاه القضية الإثنوغرافية الصارمة التي كانت وما زالت هي مَثَلي الأعلى. ولسوء الحظ، لن يكون هذا هو التقصير الوحيد، لأن هذا الكتاب يمثل بدقة تقريباً عكس ما كنت أريد القيام به.

إن ما تبقى من هذه الدراسة تم تكريسه لملاحظة مجتمع معين، وهو المجتمع القبلي، ولتحليل عاداته الرئيسية المتميزة بغرابتها. وستخرجنا الدراسة هذه أحياناً من إطار المغرب العربي، ولكنها ستمسح لنا، على الخصوص، بالتجوال عبر شمال وجنوب نصف القارة هذه، وهو مجال شاسع ومتنوع، وسنكون مدفوعين بالتالي إلى زيارته كإثنولوجيين أكثر منا كإثنوغرافيين ـ والحال أنني كنت أتمنى دوماً أن أكون إثنوغرافية أكثر من كوني إثنولوجية.

في الفصل الأخير المعنون بـ «النساء والحجاب»، سنجد مجموعة خلاصات. وأهم خلاصة تتجلى في الربط بين حجب النساء في حوض المتوسط برمته وبين التطور والتقهقر اللامتناهي للمجتمع القبلي. وسنجد أيضاً الأسباب التي جعلت هذه الوضعية المخزية تُنسب أحياناً، وعن خطأ، إلى الإسلام. وسنجد أخيراً عرضاً مركزاً للخسائر الناجمة عن هذه الوضعية.

شبكات فك الرموز

لقد فضّلت، بسبب هذا القسم الثالث، نشر الدراسة هذه من دون أن

---

(١) مارسيل كريول، **مناهج الإثنوغرافيا**، باريس، المنشورات الجامعية الفرنسية، ١٩٥٧، ص ٤.

أنتظر الفرصة لتزويدها بالجهاز المعرفي الذي كنت أريد إمدادها به. وقد بدا لي أن نشرها سيكون مفيداً الآن، وهذا أحد الأسباب التي لربما فاجأت القارئ المتخصص، الذي لن يرى فيها سوى محاولة بسيطة للجهاز العلمي الذي تحاط به السوسيولوجيا عادة[١].

ودأبتُ أيضاً على استعمال اللغة الرائجة أكثر. واليوم، يستلزم التطور الضخم للعلوم جميعها تخصصاً سيعرف منطقياً تقدماً أكبر. مع ذلك، فإن هذا التخصص، ومنذ بضعة أجيال، لم يعد يسمح لأحد بإحصاء مجمل رأس المال الفكري الذي يمتلكه نوعنا البشري، بل إن محترفي العلم أنفسهم يوافقون على تجاهل، أو مجرد الإلمام البسيط بالمجالات التي تدخل تماماً في دائرة اهتماماتهم. غير أنه توجد ملفات تخص جميع ساكني الأرض، وبين الفينة والأخرى، يمكن أن تحدث كارثة تطرح على الجميع الأسئلة بإلحاح. وعلى الخصوص، فإن الحديث اليوم عن الكارثة الأرضية التي يمثلها التزايد العالمي للسكان مستقبلاً، يعتبر شبه مبتذل، ولكن الحديث عن ذلك يتم رغم كل شيء، وإن بطريقة مقتضبة، ما دام الأمر لم يفض إلى اتخاذ إجراءات أو تحديد ما ينبغي فعله من أجل التوصل إلى بعض الحلول.

سنة ١٩٦٥، حدد رجل دولة[٢] المبلغ الإجمالي لمساعدة البلدان المتخلفة، في خمسة ملايين دولار. وفي الوقت نفسه قدر عشرة ملايين دولار كمساعدة ضرورية للحد من انتشار الفقر، وبتعبير آخر، لتعويض الإفقار الناتج من الزيادة المفرطة في السكان. وهذا معناه أن الناس الفقراء لا يزدادون فقراً كل يوم فحسب، بل يزدادون عدداً أيضاً. وإذا لم يتم الآن القضاء على هذا المرض

---

(١) وفضلاً عن ذلك، كنت أود أن أختار بعناية أكبر، الاستشهادات التي آتي بها، ولكن - مثل جميع الناس الذين لا يعرفون حماية وقتهم - يستحيل عليّ تقريباً الكتابة في باريس حيث توجد كتبي، لذا، فإن القسم الأكبر من الدراسة أُلِّف في أثناء العطل أو المرض أو الأسفار، وبداخل القطارات والبواخر والمقاهي والفنادق وتحت خيمة أو في ظل شجرة، بحيث لا يكون لي غالباً سوى ذاكرتي التي لا يمكن أن تشكل مكتبة جيدة جداً.

(٢) جول موخ، **تكيف هيئة الأمم المتحدة مع العالم المعاصر**، باريس، بيدون، ١٩٦٥، ص ١٤٩ - ١٥٠.

- هامش أضيف سنة ١٩٧٤: إن أزمة البترول قد سمحت بإعطاء مهلة لبعض الدول المسماة متخلفة، ولكنها لم تحل المشكلات كلها.

المرتبط بالكرة الأرضية، فكيف يمكن لذلك أن يتحقق عندما يتضاعف هذا المرض؟

والحال أن الداء سيتضاعف مرتين: سيتضاعف من حيث الخطورة بالنسبة إلى جميع المصابين، كما سيتضاعف على مستوى عدد السكان.

إن الدراسة هذه لا تأخذ منحى اقتصادياً أو ديموغرافياً، ولكنها تريد توضيح اتجاه معين لتطورنا ـ وهو اتجاه مسؤول عن التحديدات الديموغرافية الحالية. إنها تتموضع إذن ضمن أفق عملي وعالمي. وفوق ذلك، فإن جميع الذين يكتبون لهم بالتأكيد دوافع للقيام بذلك، والدوافع هذه تختلف بحسب كل واحد، ولكنها ترتبط دائماً بما هو ذاتي في التجربة الفردية.

وفيما يخصني، فقد سنحت لي الفرصة، مرتين وبطريقتين مختلفتين، لقياس قلق البشر أمام العالم الذي صنعوه، والتأكد مرتين من الدعامة الفعلية التي يمكن أن يقدمها أي تحليل لأولئك الذين تسحقهم هذه الآليات الساحقة [وفضلاً عن ذلك، فإن هذا الوضوح الذي تم إسقاطه على الكائنات المخيفة يشكل أيضاً، وبدون شك، طريقة فعالة لتجنب خطرها]. وبالفعل، فإن الإثنوغرافيا، بخلاف العلوم الإنسانية الأُخرى، لا تكتفي بالمحفوظات والإحصاءات والتصنيفات: إن الإثنوغرافي يكون مطالباً بمساءلة بشر أحياء لا مساءلة نصوص؛ وبالتالي، فإنه يكون مطالباً بالإجابة عن أسئلة، بإعطاء تفسيرات وتوضيحات، وإذا ما أراد أن يفهم، فعليه أولاً أن يسهر على أن يكون مفهوماً بشكل جيد.

وباختصار، يمكنني القول إن الإثنوغرافيا والإثنولوجيا [في الواقع، يتم الفصل بينهما بصعوبة(١)]، هما علمان منعكسان وعكسيان؛ علمان يتم عبرهما مقارنة شقاء البشر، لكن حيث لا يتم فك رموز «الواقعة الإنسانية» في أصالتها

(١) الإثنوغرافي يدرس ويصف الشعوب مباشرة، والإثنولوجي يقارن بين أبحاث الإثنوغرافيين، ويقوم بتأملات من أجل استخلاص بعض النتائج، أما الأنثربولوجي فيحاول أن يموضع كل ذلك من منظور تاريخ الإنسان. وعلى المستوى العملي، لا يمكن القيام بتفكير دقيق من دون ملاحظة.

وغناها وسرها إلا عبر الشبكة الدقيقة للتجربة المعاشة.

إن كل واحد منا يملك «شبكة فك رموز» ويدقق فيها مدى حياته. ولقد قمت بالتدقيق في شبكتي ما بين سنتي ١٩٤٠ و١٩٤٥، في مؤاخاتي للخطر الكبير بجانب أناس من أصول وتكوينات متنوعة. وفي الواقع، فقد كانوا جميعهم يرغبون في الفهم ـ لقد كانوا يتحملون معرفة السبب الذي يدعوهم إلى ذلك ـ وعندما تمكنوا من الفهم في قرارة أنفسهم، فإن آلية صغيرة تدعى العقل كانت قد بدأت الحركة من جديد، وهي غالباً ما تجر في حركتها، وبطريقة رائعة، الأجهزة الدقيقة التي يدرسها علماء التشريح والأطباء، والتي عرفها اكزافيي بيشا[1] بـ «مجموع الوظائف التي تقاوم الموت».

وبإيجاز، فإن مهنتي وحياتي علمتاني أن ليس جميع الناس الأذكياء متعلمين بالضرورة [ولا جميع الناس المتعلمين، فضلاً عن ذلك، أذكياء بالضرورة]. لكن الناس الأذكياء كافة يستحقون أن نتحاور معهم حول المسائل التي تهمهم. والحال أن المشكل المدروس في الصفحات اللاحقة ـ وهو الإذلال الذي أصاب وضعية المرأة في منطقة البحر الأبيض المتوسط ـ يتعلق مباشرة بمصير جزء من النوع الإنساني، أي في الواقع، مصيرنا نحن جميعاً، لأنه من غير الوارد من الآن فصاعداً أن يتطور قسم مهم من البشرية على انفراد.

إخفاء نصف البشرية

في ما بين ١٩٦١ و١٩٦٦ ـ وهي السنوات التي استوفيتُ فيها المعلومات المتضمنة في هذه الدراسة ـ كان غياب النساء عن جميع الأماكن العمومية لا يزال مثار دهشة بالنسبة إلى المسافر الذي يزور البلدان المطلة على البحر الأبيض المتوسط. ومع ذلك، فإن أغلب هذه البلدان تسيَّر حالياً من طرف حكومات عصرية. ووعياً منها لخطورة الموقف، فإن الحكومات تتنافس في تشريعاتها، محاولة منها إشراك النصف النسوي من السكان في الحياة الوطنية، لكن بلا جدوى، فمقاومة الوسط تظل باستمرار أقوى من القانون.

---

(١) اكزافيي بيشا، **أبحاث فزيولوجية حول الحياة والموت**، باريس، ١٨٠٠.

إلى أي شيء ترجع هذه المقاومة؟ وأين يجب موضعتها؟ ذلك ما يشكل موضوعي الأساسي.

إن العديد من الناس يعتقدون أن هذه المقاومة العنيدة تستمد أصلها من الديانة الإسلامية المنتشرة طبعاً في تلك المنطقة من العالم، حيث المجتمع النسوي هو الأكثر انفصالاً عن المجتمع الذكوري. إنهم فضلاً عن ذلك، يقتنعون بهذا الأمر عن طيب خاطر، لأنه يوجد في جميع البلدان اقتناع بأن كل ما يمس العادات العائلية القديمة جداً مقدس، أي ديني، والفلاحون المسلمون لا يشكلون استثناء لهذه القاعدة؛ إنهم يؤكدون بكل إخلاص رأياً يعارضه المسلمون المثقفون، لكن من دون جدوى. ويكفي أن نحدد بدقة في الزمان والمكان تهميش المرأة، لنتأكد من أن المنطقة التي تناسبها جغرافياً تشمل مساحة لا تتضمن فقط البلدان الإسلامية ـ ما دام من الضروري أن ندرج اليوم أيضاً كل الساحل المسيحي للبحر الأبيض المتوسط[1] ـ بل يجب على العكس أن نستثني منها أقاليم شاسعة، اعتنقت الإسلام منذ عهود قديمة جداً.

وعلى المستوى التاريخي، فإن أي تغلغل في الماضي يبرهن أيضاً عن أن الحريم والحجاب هما، وبشكل كبير، أقدم من الوحي القرآني[2].

إن غياب التطابق الجغرافي والتاريخي في الوقت نفسه، بين مساحة انتشار الحريم والديانة الإسلامية، ليس بالمؤشر المهم والوحيد؛ فسنرى أن تحليل المؤسسات يعارض أيضاً كل مصدر ديني لتغييب النساء في حوض البحر الأبيض المتوسط.

إن الرأي الذي ينسب إلى الإسلام كونه مصدر الحريم والحجاب يعزز

(١) مع عدم إغفال المناطق المحتلة من طرف ساكني هذه المنطقة، وخصوصاً بعض مناطق القارة الأمريكية: تكساس، المكسيك، أمريكا الجنوبية.

(٢) «من الممكن أن يكون نقش رمسيس الثالث المدون بمدينة حابو متضمناً تلميحاً للحجاب. . . إن الزخرفة الموضوعة على قبر بتوزيريس التي أنجزت بأسلوب يوناني، تمثل بتكرار نساء تغطي رؤوسهن خمارات شبيهة بتلك التي تلاحظ لدى القرويات المصريات في العديد من المناطق المصرية». و. س بلاكمان، **فلاحو مصر العليا**، ٢٥١. والخدر اليوناني هو أيضاً حريم.

لدى أولئك الذين يثبتونه بعدد وافر من الحكايات المتعلقة بتضخم الغيرة الذكورية والتي يتم اعتبارها، في آن معاً، أحد التفسيرات المعطاة للظاهرة.

إن الغيرة تجد نفسها إذن، وبنوع من الغرابة، مقرونة بالإيمان الديني، إلا أن من الصعب تصور غيرة منبثقة من الدين، مثلما يصعب تصور دين منبثق من الغيرة. هل من اللازم والحالة هذه، أن نعزو كلاً من الحجاب والحريم إلى مناخ معين؟ أو إلى سلالة معينة؟ سنرى أيضاً أن هذا الأمر يتناقض مع كل ما نعرفه عن الماضي. وإذن إلى أي شيء تستند المستبقيات العنيدة التي تمارس تأثيرها السلبي هنا، والتي تشكل، إلى يومنا هذا، أخطر حاجز أمام التقدم؟.

عائق مزمن

إن الملاحظة المباشرة للقبائل نصف الرحّل التي عشت معها سنين طويلة، هي مصدر الفرضيات التي عرضتها في هذا الكتاب. ولقد كانت مدة إقامتي من الطول بحيث سهل عليَّ رؤية التطور الذي مس أبناء هذه القبائل - وبالفعل، فإن اعتقادي بوجود تناقض، أو كما يقول الأطباء النفسانيون، بوجود صراع، لا يرجع إلى المؤسسات ولكن إلى الطريقة التي تتطور بها هذه الأخيرة. ويبدو لي أن «إخفاء» النساء ناتج من هذا الصراع مباشرة.

ومثلما هو الحال في العُقد النفسية التي تدرسها المدرسة الفرويدية لدى الأفراد، فإن «الصراع» المقصود هنا يبدو نتاجاً لـ «عائق» مزمن ولـ «عدوان» طبيعي يرد عليه الجسم - وهو المجتمع في هذه الحالة - بـ «عملية مقاومة». ونحن نعرف أن هذه المقاومة في المجال البدني، وبحسب وجهة نظر طبية مقبولة، هي أصل الطفح الجلدي[(١)] والربو، وبصفة عامة جميع الأمراض التي تعتبر حساسة. كما أن الناس الذين يشكون هذه الأمراض يعرفون أن في إمكانها أن تصبح أكثر خطورة وأقل تحملاً من الأسباب التي تثيرها (تبغ - غبار). إن الحساسية الاجتماعية هذه ما زالت راهنة، ما دمت قد تمكنت من

(١) انظر الفصل التاسع، «النساء والحجاب»، ص ١٩٣ من الكتاب.

ملاحظتها، غير أن أصلها كان قد ارتسم عند الأطراف الشاسعة لظلمات ما قبل التاريخ.

وللتشديد بصورة أفضل على بعض الاعتداءات الداخلية والخارجية التي كان المجتمع الذي نحن بصدد فحصه، ضحية لها على مدى قرون، يجب علينا أن نأخذ بعين الاعتبار خمسة أزواج من التلازمات. إن هذه التلازمات قديمة، لكنها ما زالت مألوفة في مجموع إفريقيا الشمالية، وتوجد أيضاً في العالم العربي، في الوسط المسيحي كما في الوسط المسلم، بل وتتعدى حدود هذه المناطق نفسها. وستبدو هذه العلاقات متنافرة أول وهلة، إلا أنها مع ذلك، تعقد فيما بينها قراناً يتسم بالإخلاص، وهو إخلاص من القوة بالتأكيد، بحيث يصعب تفسيره بمجرد الرجوع إلى عامل المصادفة.

هل يوجد منطق يمكن أن يجمع مثنى هذه الأزواج من التلازمات، مثل أجنحة بعض المراوح؟ وهل يمكن بعد ذلك، ومثلما هو الأمر بالنسبة إلى محور محرك، الجمع أيضاً بين جميع هذه الأزواج من أجنحة المروحة؟

إن الناس المتوفرين على خيال بصري مبدع، يمكنهم أن يتسلوا برسم ذلك كله على شكل آلة شبيهة بتلك التي تدفع بعض الطائرات، وأصالة آلتنا تتمثل في كونها تدور بطريقة معكوسة، وبدلاً من أن تجر المجتمعات وتدفعها إلى الأمام ونحو المستقبل والمجهول، فإنها تسحبها باتجاه ماض ميت.

خمسة تلازمات

التلازم الأول: الحجاب والمدينة

إن حجاب النساء المغاربيات له علاقة بظاهرة التمدن. وبتعبير آخر، فإن النساء المسلمات لا يحتجبن إلا عندما يقمن في مدينة ما، أما القرويات فإنهن يتحركن ووجوههن سافرة.

هذا التلازم المعمم في البلدان المغاربية وفي العالم العربي كله[١] معروف،

---

(١) إن النساء عند بعض المسيحيين المتوسطيين وعند بعض اليهود التقليديين، لسن محجبات، ولكنهن محتجزات داخل بيوتهن إلى حين شيخوختهن، ويتم قتلهن عند ارتكابهن الزنى [أو عندما تحوم حولهن شبهة ارتكاب الزنى].

وأعتقد أن الواقعة الأصلية التي لم تتم الإشارة إليها، وهي أن الحجاب، إذا كان يميل حالياً إلى التراجع في المدن، فإنه يعرف بالمقابل تقدماً في القرى.

ففي المغرب، وبمنطقة قسطنطينة، عرفتُ نساء تعودن في قريتهن الكبيرة، ومنذ أقل من عشر سنوات، على وضع الحجاب. وفي منطقة وهران، فإن القرويات اللواتي كن منذ عشرين سنة لا يحتجبن عند ذهابهن إلى المدينة، أصبحن الآن مضطرات إلى وضع الحجاب عند مثل هذه المناسبة، ويمكننا أن نكتشف المنحى المنفر نفسه في موريتانيا، حيث عملية التمدن ما زالت حديثة العهد.

التلازم الثاني: النبالة والزواج الداخلي

إن النبالة بالنسبة إلى المغاربيين ترتبط بالزواج بين أبناء العم من نسب أبوي، والتزام الفرد سيكون أكثر صرامة بانتمائه إلى نسب أنبل. بل أكثر من ذلك، إن الفرد يكون أنبل بانتمائه إلى عائلة أكثر تشبثاً بالزواج الداخلي.

إن الوجه المختصر لهذا النوع من الكبرياء يمكن أن يظهر «عنصرية» عائلية ـ لكن مثل هذا الحكم يمكن أن يكون متسرعاً ـ. فلو كان الأمر كذلك بالفعل، فإن الجماعة المنحدرة من أب واحد ستتحمل زواج الابن من امرأة أجنبية بسهولة أقل من زواج الابنة من أجنبي، لأن الرباط الدموي سيكون قد اندثر في هذه الحالة، ولن يحدث بالتالي اختلاط على مستوى الأم. والحال أن العكس هو الذي يحدث، وهذا على الأقل في المناطق القروية[١]، حيث كانت بعض العائلات الكبرى، ومنذ أقل من عشر سنوات، تعتبر زواج بناتها من أجانب أمراً مخزياً، في حين كان الزواج غير المتكافئ للأبناء بالأجنبيات يعتبر أمراً مقبولاً ومحتملاً.

---

(١) لقد لاحظت ذلك شخصياً، ولا سيما في منطقة قسطنطينة وفي البوادي المغربية ولدى الرحل الموريتانيين. وعلى العكس من ذلك، فإن العائلات في مدينة تلمسان ترفض بشكل قاطع تزويج أبنائها من فتيات لا ينتمين إلى بورجوازية المدينة، ويمكن لفتياتها عند الاقتضاء الزواج من أجانب أغنياء. وبالطبع، فإن عدد الشباب الرافضين هذه الوضعية يزداد يوماً بعد يوم. [والملاحظ أن تلمسان تشكل وسطاً حضرياً خالصاً متأثراً ببورجوازية ذات أصل تركي].

ولو كان رد الفعل المزدوج هذا عصرياً، فإنه قد يفسر بالرجوع إلى عامل العادة، بسبب التكرار الملاحظ حالياً للزيجات بين الوارثين المغاربيين الشباب والطالبات المسيحيات اللواتي تم اللقاء بهن في أثناء الدراسة[١].

إن الأمر غير ذلك تماماً، فرد الفعل المزدوج هذا قد يبدو تقليداً عتيقاً، بينما تعميم الزيجات المختلفة أمر حديث العهد.

التلازم الثالث: في شمال الصحراء النساء يرثن حيثما تدمَّر القبائل

يمكن تفسير العلاقة بين وراثة النساء وتدمير القبائل المستقرة بسهولة، ذلك أن الإرث النسوي هو الذي يساهم في تدمير القبيلة. وبالفعل، فإن البنية القبلية برمتها تقوم على استحالة تملك أرض، تشكل جُزءاً من الميراث العائلي، من طرف شخص أجنبي، وتقوم أيضاً على امتلاك نظام للوراثة تمت تهيئته بشكل لا يسمح فيه لأي أجنبي بأن يصبح وارثاً شرعياً. والحال، إن الفتاة عندما تتزوج من شخص ليس ابن عمها، فإن الأبناء الناتجين من هذا الزواج سينتمون قانونياً إلى عائلة أبيهم، وسيعتبرون بالتالي أجانب عن نسب جدهم لأمهم... وللتخفيف من حدة هذا الخطر، جمع المغاربيون بين النظامين الوقائيين الممكنين التاليين وهما: من جهة، حرمان جميع الفتيات من الإرث [وهو يعني هنا انتهاك الشريعة الإسلامية] ومن جهة أُخرى، تزويجهن دوماً من أقارب ينتمون إلى النسب الأبوي. وبطبيعة الحال، فإن الطريقة الأُولى هي الوحيدة التي تعتبر دوماً فعالة، وحيث لا يتم اتباعها لا تعود هناك قبيلة.

التلازم الرابع: تدمير القبائل يتزامن مع انتشار الورع

يمكن استنباط هذه النتيجة بسهولة انطلاقاً من التلازم السابق[٢]. وبالفعل، فإن تدمير القبائل في الإسلام يرتبط مباشرة بالتقيد الديني، لأن الشريعة القرآنية تقتضي ضرورة أن يرث جميع الأبناء نصيباً من ثروة الأب، وأن

---

(١) وهي زيجات مباحة شرعاً بحسب القرآن الكريم، بينما زواج المسلمات بالمسيحيين يطرح مشكلاً دينياً.

(٢) أكيد أن الورع يدمر القبيلة، لكن من الممكن أيضاً أن يؤدي تدمير القبيلة ـ وما يستتبعه من فقدان للشرف ـ إلى الورع، ففي الأمر نوع من التعويض.

ترث الفتيات نصف نصيب الذكور، ولهذا ستكون الشريعة الدينية قد قضت على البنى القبلية مرتين.

وللحفاظ على إرث كبير لمدة قرون، سيكون من المفيد واقعياً إعطاء حق الامتياز لوارث وحيد[1] - وهو تصرف غير موافق لما نص عليه القرآن الكريم، ويبدو أنه في طريقه إلى الزوال في بلدان المغرب العربي، حيث لم يضمن بقاءه في أغلب المناطق تقريباً إلا على شكل آثار - والأهم من هذا أيضاً هو عدم السماح لأجنبي بحيازة قطعة أرض محصورة داخل ملك عائلي، وهذا يعني، كما سبق أن رأينا، حرمان الأحفاد من نفس الأم من ميراث جدهم لأمهم، والحال أن هذا التصرف الأخير، الذي ينتهك بصراحة التعاليم القرآنية، ما زال معمولاً به في عدة مناطق من إفريقيا الشمالية، وإن لم يكن في جميعها.

وإبان انتشار الإسلام، وجدت القبائل البدوية لإفريقيا الشمالية نفسها محشورة في مأزق قاس جداً: لقد كان عليها إما أن تطبق الشريعة التي أتى بها النبي عليه الصلاة والسلام - وفي هذه الحالة ستحطم القبيلة - وإما أن تنقذ القبيلة، لكن يجب عليها انتهاك الشريعة الدينية. والحقيقة أن بقاء عدد كبير من القبائل في المغرب العربي كله، بالشكل الذي كانت عليه، يوضح بما فيه الكفاية الطريق الذي تم اختياره، كما أنه يضع ما يسمى «التعصب الإسلامي» في مكانه الحقيقي.

زد على ذلك أن كل شيء يحدث وكأن المشرع الديني قد حدد الإرث في الخطين معاً بهدف القضاء عمداً على النظام القبلي، وبالتالي إقامة مساواة داخل المجتمع العربي وتحديثه وتثويره ودمقرطته[2]. ولقد تم ذلك في القرن السابع الميلادي.

---

(١) انظر بهذا الصدد: الوضعية المتميزة للابن البكر في المنطقة المتوسطية، وذلك في الفصل الخامس: «سيدي أخي»، ص ١١٢ من الكتاب.

(٢) نقول دمقرطة لا «مَشْرَكة». وبالفعل، فإننا حينما نعاين جميع التعاليم القرآنية في مجال الإرث، نرى أن القرآن الكريم زعزع الملكية الخاصة ولكنه لم يعمل على نفيها أو تدميرها. انظر مكسيم ردونسون، **الإسلام والرأسمالية**، لوسوي، ١٩٦٦.

التلازم الخامس: في شمال الصحراء، لا تحتجب الفتيات سوى في المناطق التي يرثن فيها

وهذا هو الغريب [والثابت] في الأمر، ذلك أن كل شيء يحدث وكأن النساء بحصولهن على حق الإرث من أبيهن - وبالتالي يتوفرن على نفوذ اقتصادي - فقدن التصرف بشخصهن. وفي إمكاننا القيام بمحاولة تفسير هذا الشذوذ عن القاعدة، وذلك برجوعنا إلى الورع الديني الذي، وبفرضه لإرث النساء، دمر القبيلة، وعمل أيضاً على وضع الحجاب والحريم في مرتبة الشرف. وعلى ما يبدو لي، يجب عدم استبعاد هذا التفسير كلية [ذلك أن الورع الواقعي والمتنور في كل بلد يحمل في طياته التزمت، أي التقيد بالأشكال التي يُعتقد أنها دينية]. غير أن ما هو أكثر احتمالاً، في رأيي، يتمثل في الفرضية التي بمقتضاها قد نجد أنفسنا أمام تسلسل تمت معاينته شخصياً، وهذا التسلسل يتحدد كالآتي:

أ - الورع الديني يفرض الإرث النسائي.

ب - الإرث النسائي يدمر القبيلة.

ج - القبيلة المدمرة تقبل الأجانب.

د - الآباء يحجبون حينئذٍ بناتهم، ليتم الاحتفاظ بهن رغم كل شيء للأولاد المنتمين إلى العائلة نفسها.

لقد أصبحت الشريعة الإسلامية منذ استقلال المغرب إلزامية في البوادي، وهو ما يشكل حدثاً جديداً، بل ثورياً ذا نتائج سوسيولوجية مهمة. أما بالنسبة إلى الجزائر المستقلة، فلا أحد يعلم حتى الآن كيف ستحدث الأمور في الواقع، ويجب مع ذلك، ملاحظة أن الإرث القروي في هذين البلدين يميل إلى التقلص إلى درجة أنه لم يعد يسمح للعائلات بكسب رزقها من استغلال الأرض وحدها. وهذا الظرف سياهم في تيسير فضائل الانفصال التي ستقتضيها من المالكين المغاربيين، ومن الآن فصاعداً، كل من الشريعة الإسلامية والوطنية ذات المنحى الماركسي [وأسمح لنفسي بالجمع بينهما، لأنهما يتعاونان معاً، وبشكل عملي، في تدمير ملكية الأرض].

وإذا ما قبلنا هذه الرؤية، فإننا سنجد أنفسنا - بمنطقة يجب علينا تحديدها مع أنها لا تتناسب مع الحدود الدينية - أمام مجتمع يشكو منذ العهود القديمة من عدوان داخلي مستمر، ويقوم بردود أفعال خرقاء اتجاه هذا العدوان.

ويجب علينا أولاً، وقبل التعرض للمظاهر العصرية لهذه الأوالية

المزدوجة، طرح بعض الأسئلة المتعلقة بأصول هذه الأخيرة، وهذا على الأقل في حالة تعذّر الإجابة عنها.

العالـم القديـم

إن بعض الجوانب النظرية لهذه الدراسة تتجاوز حدود إفريقيا كثيراً، غير أن منطلقها يظل متمثلاً في الملاحظة المباشرة: إن الأمر يتعلق هنا بأبحاثي الخاصة. التي قادتني منذ سنة ١٩٣٦ إلى يومنا هذا، إلى عبور نصف هذه القارة الذي يسميه العرب المغرب العربي. إن هذه التسمية تعني «المغرب»، وهي تشير ببساطة إلى منطقة جغرافية وحضارة متجانسين تبدو حدودهما ملتبسة بعض الشيء. لنوضح هنا أنهما تضمان إلى الجهة الغربية من مصر، جميع الشعوب الإفريقية ذات اللغة والثقافة العربية ـ البربرية، أي تضمان، إذا ما انطلقنا من جهة المحيط الأطلسي، خمس دول هي: موريتانيا، المغرب، الجزائر، تونس وليبيا، ويجب أن نضيف إليها شمال كل من النيجر ومالي. أما بالنسبة إلى مصر، فإنها تعتبر بمثابة العمود الفقري للطائر العربي الكبير، سياسياً وإثنوغرافياً كذلك، فهي البلد الذي يشكل الحدود التي يلتقي فيها تيار المغرب وتيار المشرق السائران في اتجاه معاكس، وقد كان القدماء يربطون مصر بآسيا، ويحدون إفريقيا عند التخوم الليبية الحالية. وهو ما يتطابق مع واقع سوسيولوجي موغل في القدم لا يزال يتميز براهنيته.

لقد سنحت لي، ولمدة طويلة، فرصة ملاحظة أغلب الأشياء التي أتحدث عنها الآن في المكان عينه[١]، وهذا يعني أنني لن أستعمل مصنفات للوقائع

---

(١) لقد امتدت إقامتي حوالي عشر سنوات، منها أقل من سنتين في المدن الكبرى، أما باقي المدة فقد أمضيته بين الفلاحين والرحّل. ولقد كانت اللهجة البربرية التي تعلمتها لهجة مناطق الشاوية. إن أُولى المهمات العلمية أُسندت إليّ [في ما بين سنتي ١٩٣٤ و١٩٣٧] من طرف المؤسسة الإفريقية العالمية. أما المهمات اللاحقة (سنوات ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠ ـ ١٩٦٤ ـ ١٩٦٥ ـ ١٩٦٦) فقد أُسندت إليّ من طرف المركز الوطني للبحث العلمي (C. N. R. S). إنني أشكرهما هنا، وأشكر أيضاً المدرسة التطبيقية للدراسات العليا ووزارة التربية الوطنية والمنظمة العالمية للصحة التي سمحت لي خلال مهماتي الكبرى بمضاعفة رحلاتي الدراسية. وبالفعل، فإن المنظمة العالمية للصحة هي التي اقترحت عليّ سنة ١٩٦١، القيام ببحث لحسابها في منطقة الشرق الأوسط برمتها (مصر، باكستان، إيران، العراق، لبنان، سوريا، الأردن، فلسطين المحتلة)، وقد طلبت مني بالخصوص أن =

الاجتماعية، من دون أن آخذ بعين الاعتبار البيئة المحيطة بهذه الوقائع، فهي مألوفة لديّ.

إنني أعرف بشكل أفضل المناطق المسماة عتيقة، والآهلة بقرويين مستقرين أو شبه رحّل، إلا أنني عشت أيضاً وسط الرحّل الذين يتكلمون البربرية أو العربية، وكذلك القرويين الذين أصبحوا عمالاً زراعيين أو عمالاً صناعيين أو جنوداً أو تجاراً. وبطبيعة الحال فقد عشت وسط الحضريين.

وتوجد بين هذه الفئات الاجتماعية المتعددة الكثير من نقط التشابه والاختلاف، بعضها قديم جداً، وبعضها الآخر حديث، إلا أنه لا يمكن التمييز بينهما إلا إذا كانت هناك معرفة لا بأس فيها بالمجتمع المغاربي كلية.

ويمكن لبعض أوجه هذه الدراسة أن توجد في القطاعات المحافظة لمنطقة أكثر رحابة من نصف القارة المغاربية. وهذه المنطقة تشمل الأراضي السامية وتمتد بالتالي ـ تحت الجناح المشرقي للطائر العربي ـ إلى المحيط الهندي. ولقد تسنى لي عبورها، ولا يمكنني من جهة أُخرى الرجوع إلى أية معرفة مهما تكن سطحية من دون تدعيمها بمجموعة نصوص؛ فبمساعدة هذه الأخيرة يمكنني مقارنة بقايا تم تجميعها في المغرب العربي، برواسب مشابهة آتية من المناطق السامية للشرق الأوسط، والبقايا هذه تهم جميع الزمر البربرية، كما أنها، ظاهرياً، سابقة على مجيء الإسلام. وبالفعل، فعلى ما يبدو لي، ليست هناك رابطة بين الرواسب البربرية المعنية هنا والإسلام، من دون أن يعني ذلك غياب رابطة بين هذه الرواسب والعروبة. صحيح أن العرب المسلمين الذين فتحوا إفريقيا الشمالية لم يكونوا جميعهم فقهاء، وقد كان في إمكانهم بالتالي ممارسة تأثير غير إسلامي على البلدان التي فتحوها. وفي الواقع، فإن هؤلاء الفاتحين لم يؤثروا في المغرب الغربي القديم والمحافظ الذي لا يزال يتكلم البربرية إلى يومنا هذا، إلا لكونهم أتقياء مؤمنين على الخصوص.

= أعاين وضعية النساء هناك، وخلال تلك الرحلة السريعة، تصورت أن من المستحيل الحديث بشيء من الفائدة عن هذه الوضعية من دون تفسيرها، وأنه لا يمكن تفسيرها من دون الرجوع بعيداً إلى الوراء، وأنه سيكون من المجدي القيام بذلك. ولقد كان ذلك منشأ هذه الدراسة.

وهناك حجة أُخرى تصب في مصلحة القِدم السحيق لهذه البقايا المشتركة بين البربر والعرب، وهي انتشار البقايا بما يتجاوز منطقة هؤلاء ليغطي المنطقة السامية، بل لينتشر إلى ما هو أبعد من ذلك. زيادة على ذلك، فإن هذا الانتشار يستند إلى ما هو أهم، أي إلى ما هو أكثر تأصلاً وأصالة في الوقت نفسه داخل مجتمع ما [غير أن الحجة الأخيرة تبدو، على ما أعتقد، أقل إقناعاً من سابقتها(١)]. على أي حال، فإن تاريخ البقايا هذه يرجع بالتأكيد إلى مرحلة متقدمة للغاية عن الاتصالات الحديثة نسبياً التي تمت بين البرابرة الوثنيين، اليهود أو المسيحيين والفاتحين المسلمين.

إنني بإثارتي للتشابهات القائمة بين الأصالة العربية القديمة والجوهر البربري القديم، لا أتحدث إلا عن هندسة مجتمعين لا عن هندسة لغتين، غير أن واقعة كون اللسانيين(٢) قربوا بين البربرية والسامية تعزز طبعاً الفرضية القائلة بوجود تجاور قديم جداً بين الشعوب المتكلمة بهذه اللغات. ومن بين التفسيرات الممكنة لا يجب أن نستبعد كذلك فرضية فتح سلمي يمكن للأركيولوجيين تتبع آثاره القائمة كهالة حول شرق المتوسط. إن الفاتحين الأساسيين قد يأخذون اسم «قمح» و«ماعز»، أو إذا ما فضلنا تعبيراً آخر: «زبدة» و«خبز». إنهم يقيناً، لم يأتوا لوحدهم، ولقد شكلت الأفكار، وطرق العيش بالتأكيد، جزءاً من أمتعتهم.

وبالفعل، فإننا نجد بعض الإحالات على منطقة أكثر اتساعاً من تلك المناطق التي انتشرت فيها اللغات السامية والبربرية، إذ تتضمن أقاليم يُتحدث فيها بلغات هند ـ أوروبية.

ويمكننا تصور تفسير لهذه التشابهات بوقوع اتصالات، إذ غالباً ما كان شمال المتوسط يتعرض للاجتياح خلال آلاف السنين من طرف شعوب آتية من جنوب المتوسط، والعكس كان صحيحاً أيضاً.

---

(١) سنرى في الفصل الرابع خاصة، «أوراق دائمة وجذور متلاشية بفعل القِدم»، أن البنى ـ التي تعتبر أهم شيء في المجتمع ـ ليست دائماً أكثر الأشياء أصالة داخل هذا المجتمع.

(٢) مارسيل كوهين، **بحث مقارن حول مفردات وصوتيات اللغات الشامية القديمة والسامية**، باريس، ١٩٤٧.

ـ ويدخل ضمن هذه اللغات كل من: العربية، العبرية، المصرية القديمة، الفينيقية، البربرية ولغات إفريقيا الشرقية (المترجمان).

ولكن لماذا تستعار عادة ما في منطقة معينة، ولا يتم استعارتها في منطقة أُخرى، على الرغم من خضوع المنطقتين معاً للتأثير ذاته؟ مثلاً، لماذا تستمر بعض قبائل الطوارق التي اعتنقت الإسلام منذ مدة طويلة، في حرمان أبنائها من الإرث[1] لحساب البنات؟ لماذا تستمر في حجب الرجال بدلاً من النساء؟ وتفضيل زواج الولد من ابنة خاله[2] بدلاً من ابنة عمه؟

لماذا تنتقل الأملاك الموروثة كلية في الطرف الآخر من العالم الإسلامي ـ لدى مينا نكباو سومطرة[3] هؤلاء المسلمين الورعين ـ من ابنة بكر إلى ابنة بكر أُخرى، وتنتقل الثروة من الخال إلى أبناء أخته؟

وفي الوقت نفسه، يلاحظ بالنسبة إلى مسيحيي صقلية ـ الورعين ـ أن أخ السيدات النبيلات مرشد ديني[4]. إن الاغتيالات من هذا النوع يرجع في الحقيقة إلى ثلاثة أو أربعة قرون، إلا أن الشكل الخارجي لطريقة التنفيذ هو الذي تغير: وبالفعل، فإن الصقليين يستعملون حالياً المسدس، ويشرف زوج الضحية بنفسه على العملية [ويمكن في هذه الحالة تصنيف الجريمة في خانة ما هو «انفعالي»، وتدبير الأمر بشكل جيد مع العدالة الديمقراطية المسيحية[5]].

---

(١) ذلك كله يسير نحو التغير، أو سبق أن تغير، إلا أن هذا التغير حديث العهد.

(٢) وهي حالة التوارث بصفة عامة، غير أن طوارق كيلا غيلا يفضلون تزويج الشباب ببنات خالتهم، وهذا الزواج يعتبر محرماً في جزء كبير من مناطق العالم، بما فيها تلك التي يكون فيها النسب منحدراً من عائلة الأب فقط.

(٣) كتبت جان كويزنيي، التي افتقدناها سنة ١٩٦٤، بصدد مسلمي سومطرة المتشددين (البادري) الذين واصلوا حرباً بلا هوادة ما بين ١٨٠٤ ـ ١٨٣٧ ضد التقليدويين أولاً ثم الهولنديين:
«البادري لم يحتجوا قط ضد انتقال الإرث إلى النساء وتسييره من طرفهن، مثلما أنهم لم يعارضوا انتقال الاسم عن طريق الأم» (ص ٥٦).
وأضافت (ص ٦٠): «إن نساء مينا نكباو هي في الوقت نفسه أكثر تحرراً وأكثر ورعاً من باقي النساء الإندونيسيات».
جان كويزنيي، **الإسلام والأميسية بمينا نكباو**، دفاتر علم الاقتصاد التطبيقي، تموز/ يوليو ١٩٦٣.

(٤) انظر الفصل التاسع: «النساء والحجاب»، ص ١٩٣ من الكتاب.

(٥) لقد حُددت، وبتعقل كبير، عقوبة أدنى لجريمة «الشرف»، وهي ثلاث سنوات، وهو ما يمكّن من تجنب التبرئة غير المشروطة التي كانت تشكل القاعدة، والتي ما زالت عملياً =

وفي القرى اليونانية واللبنانية، فإن رب العائلة فيما يتعلق بالحالة نفسها يظل وفياً للسكين في أغلب الأحيان، ومن الممكن ـ بل من الواجب ـ أن تُطعن القرويات المعاصرات بطريقة مسيحية من طرف أبيهن، ويفضل أن يتم الأمر على يد الأخ الأكبر.

وباختصار، هناك عادات غريبة «تلتصق» مثل الصباغة، عادات تتشبث بقوة. بينما عادات أُخرى لا «تلتصق» بل تنزلق وتبلى في أثناء اغتسالات الزمن. وهكذا نرجع في حوض البحر الأبيض المتوسط إلى فرضية جوهر قديم جداً مشترك لدى ساكني الضفاف المتوسطية بأوروبا وإفريقيا وآسيا: أي ما يُصطلح عليه بالعالم القديم. ولا ننسى أن هذا الجوهر قد تجاوز كثيراً حدود السلالة البيضاء في إفريقيا كما في آسيا.

= قائمة في فرنسا. ولحسن الحظ، فإن هذا النوع من الاغتيال أصبح نادراً في فرنسا، وبالفعل، يجب عدم الخلط بينه وبين الجريمة العاطفية.

الفصل الثاني

من جمهورية الأصهار إلى جمهورية أبناء العم

من وجهة نظر «البنى الأولية»[1]، فإن المنطقة الشاسعة من العالم والتي قمنا بتعيينها، يمكن تحديدها بواسطة ميزتين متطابقتين جغرافياً، فمن جهة هناك الزواج التفضيلي بين أبناء العم، ومن جهة أُخرى هناك سياسة مشجعة على زيادة المواليد، «عرقية» وفاتحة.

منطقة من الأرض لا تمنع المحارم

لقد التقيت زمراً من الرحّل النبلاء المنتمين إلى العالم القديم والذين يصارعون الحياة، إلا أنهم حيثما وجدوا تقريباً كانوا في حالة احتضار[2]: كان دفاعهم عن نقاء مفترض للنسل لا يزال قائماً[3].

أما بالنسبة إلى الحضريين المغاربيين الذين عرفتهم، فلقد عبّروا عن انفعال مزدوج برفضهم مجازفة رؤية أجنبي وهو يستولي على حقلهم علاوة على ابنتهم.

---

(١) وهو العنوان الذي أقره كلود ليفي ستراوس بالنسبة إلى الدراسة التي خصصها لأنساق القرابة بـ «العالم المتوحش». هذه الأنساق هي بالضبط عكس تلك التي سنقوم بتحليلها.

كلود ـ ل ـ ستراوس، **البنى الأولية للقرابة**، باريس، المنشورات الجامعية، ١٩٤٩ (٦٤٠ صفحة).

(٢) باستثناء موريتانيا، حيث ما زالت «حضارة الصحراء» حية جداً.

(٣) إن «العنصرية» المتوسطية تختلف عن العنصرية الأنغلو ـ ساكسونية، فالأخيرة تستند إلى العرق (وبتعبير آخر إلى القرابة بالنسبة إلى جميع الفروع العائلية). أما الأُولى فلا تراعي سوى السلالة (أي القرابة الأبوية).

هذه المقاومة العنيفة ضد الدم الأجنبي داخل مجتمع ساكن، تؤدي باستمرار إلى وقوع ضحايا، علماً بأن عدد هؤلاء الضحايا يكون قليلاً مع ذلك. وحينما يتطور المجتمع كلية، فإن الجروح تتكاثر ولا يتم تحملها بالصبر نفسه. آنذاك يلاحظ تشدد عام على مستوى الأنساق. وإذا ما كانت فرضيتي صحيحة، فإن مجموع سكان هذه المنطقة سيعانون تأخراً خطيراً جداً.

إن نسق الزواج الذي يسميه السوسيولوجيون «زواجاً داخلياً» [يتعلق الأمر في هذه الحالة، بالزواج بين أبناء العم الحقيقيين]، سيندرج بذلك ضمن الآلية الاجتماعية ذات النتائج الخطيرة، والتي سبق أن أثرناها في الفصل الأول من هذه الدراسة.

وحينما نتفحص انتشار هذا النوع من الزواج الداخلي، نلاحظ أنه يقابل منطقة شاسعة ومتجانسة: إنها منطقة العالم القديم برمته. نلاحظ أيضاً أن هذه المنطقة المتجانسة تشكل شيئاً شبيهاً بلطخة سميكة داخل نسق البنية الموجودة في باقي أرجاء العالم، وهو نسق يتميز فعلاً بالتحريم المطلق للزواج بين أناس تربطهم قرابة شرعية[١].

لقد فسر كلود ليفي ستراوس في كتاب يعتبر من كلاسيكيات الإنتربولوجيا، هذا المنع شبه العام للمحارم، بضرورة التبادل. هل يمكن الاعتقاد إذن أن هذه الضرورة لن يكون لها تأثير يذكر في منطقة محددة من العالم؟ هناك شيء من ذلك أيضاً...

صحيح أن منع المحارم يمارس حالياً في العالم القديم، ولكن بطريقة يمكن، وإلى أيامنا هذه، نعتها بالمتهاونة[٢]. زيادة على ذلك، فإنه من اللازم الاتفاق حول المعنى الذي نعطيه لكلمة «ارتكاب المحارم»، فإذا أخذناه في بمعناه الاثنولوجي، وهو «الزواج من قريب تربطك به قرابة حميمة وينتمي إلى

---

(١) إن «القرابة الشرعية» في جل مناطق المغرب العربي تتكون من السلالة الأبوية.

(٢) انظر الفصل الثالث: «العيش بين الأهل» (حول ارتكاب المحارم في منطقة البحر الأبيض المتوسط)، والفصل الخامس: «ها قد حان موعد زفافنا يا أخي» (حول الزواج من ابنة العم).

سلالتك»، فمن الممكن القول ـ في هذه الحالة ـ بأن «الزواج المحرم» يعتبر بمثابة الزواج النموذجي في جميع مناطق البحر الأبيض المتوسط. ويمكننا الاكتفاء بتسجيل هذا الشذوذ من دون البحث عن تفسير له [ومن هنا تتجلى فضيلة تحظى بالتقدير في الإثنوغرافيا، وهي ملاحظة ووصف كل شيء مع تجنب التأويل]. إن تكريس هذا الفصل لإثنوغرافيا من دون فضيلة يستوجب عذراً: إنه النفور من إخفاء الأسئلة التي لا نعرف الإجابة عنها مقدماً. لكن هل يمكن والحالة هذه، مقارنة بحث كهذا من دون طرح السؤال التالي:

«**لماذا أقر العالم القديم في مجموعه تقريباً [ولكن ليس كلية]، تفضيلاً إزاء الزواج، هو عكس التفضيل الملاحظ لدى معظم الشعوب الأخرى في العالم** [معظمها ولكن ليس كلها]؟»[١] ولكي نتعرف على مصدر هذه الإرادة المتوسطية في «**عدم القيام بالتبادل**» وفي «**الاحتفاظ بجميع فتيات العائلة لفتيان العائلة**»، يجب علينا الصعود ثانية إلى أعلى درج في سلم تاريخ النوع البشري. وعلى أية حال، يجب أن يتجاوز هذا الصعود مستوى التاريخ.

مليون سنة من النقاشات السياسية

لا يتعلق الأمر هنا بإثارة النظريات المتعددة الخاصة بتطور المجتمعات الأُولى، بل فقط بإثارة بعض الوقائع المقبولة على العموم والمرتبطة بدوام هذه المجتمعات.

لقد وجد أقدم كائن[٢] ينتمي إلى العائلة الإنسانية في جنوب شرق إفريقيا

---

(١) يتعلق الأمر في الحالتين معاً بمواقف تتوفر على الأغلبية.

(٢) انظر بصدد هذه الكائنات أندري لوروا كورهان، **الحركة والكلام**، ألبان ميشيل، ١٩٦٤. كتب المؤلف:

«كانوا يمشون منتصبين، وكان ذراعهم طبيعياً، وكانوا ينحتون أدوات مقبولة بواسطة بعض الضربات على طرف حجر مصقول. وكانت تغذيتهم لحمية جزئياً» (ص ٩٤).

إن هذا التعريف يتطابق جيداً مع سلف الإنسان لا مع كائن نصف ـ قرد. ولهذا السبب، فإن المؤلف يفضل تسمية أوسترالنثروب (Australanthrope) بدلاً من أوسترالوبيتيك (Australopithèque). ويضيف فيما بعد (صفحة ١٢٧):

«إن حضور مناطق للتداعي الشفاهي والحركي في المخ لدى الأُوسترالنثروب مسألة يمكن تصورها بشكل جيد».

في أراض سابقة - في تكونها - على العهد الجليدي في أوروبا، وعلى الحقب الشتوية التي تبدو مقابلة لذلك العهد في القارة الإفريقية. إذن عاش هذا الكائن في مناخ حار، وكان عليه مواجهة وحوش ضارية جداً معاصرة له، من دون الاستجابة لا بالنار ولا بالأسلحة. ومن المؤكد أنه ابتداءً من تلك اللحظة، عاش ضمن زمر، وأن تنظيماً أولياً لهذه الزمر شكل بالضرورة أول نشاط عقلي له - قبل استعمال الأدوات وقبل التواصل بالكلام وقبل استخدام النار، وهي ثلاثة فتوحات لم تصبح ممكنة إلا بعد مئات الآلاف من السنين، من الحياة الاجتماعية ومن التواصل بأصوات ذات دلالة، متوافقة مع تراتبية معينة - وهو ما يفسر السرعة العجيبة التي أبان عنها وما زال يظهرها الخَلَف، في مجال يمتد إلى حد الآن ومن دون انقطاع، من المقهى والتجارة إلى حشود الأراندا. وفي الواقع، فإن جميع سكان الأرض يجرّون خلفهم مليون سنة على الأقل من النقاشات السياسية - ألف مرة ألف سنة[١].

لقد كان الإنسان (Homo) عند فجر ارتقائه آكلاً بئيساً للحوم: فهو لم يكن مجهزاً بما فيه كفاية للصيد وللفرار، وكان مطارَداً من طرف الوحوش الكاسرة. إن هذه المرحلة من حياته تمتد من الحقبة الشاسعة للعهد الحجري القديم الأسفل، أي أنها تقابل أكثر من تسعة عشر جزءاً من عشرين من تاريخه.

خلال المرحلة الأخيرة من وجوده، أصبح هذا الإنسان بنفسه مدمراً كبيراً، وآنئذٍ أصبح يخيف جميع المخلوقات الأُخرى. ويبدو أن الانعطاف ما بين هاتين الوضعيتين - وضعية الطريدة ووضعية الصياد - قد استهل عند العهد الحجري القديم الأوسط [الموستيري]، أي قبل مدة قصيرة من العهد الذي ظهرت فيه بقايا الإنسان العاقل (Homo Sapiens) في الحفريات. وبالفعل، فانطلاقاً من العهد الحجري القديم الأوسط، توقف الإنسان عن أن يكون فريسة سهلة.

التهجين السياسي وظهور الإنسان العاقل

إن الزمر الأُولى للرجال الذين استعملوا النار من أجل التدفئة ليلاً

---

(١) ج. كوبنس، **الإنسان الماهر والاكتشافات الجديدة بالألدواي**، نشرة الجمعية الفرنسية لما قبل التاريخ، تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٦٤.

والاتقاء من الحيوانات الضارية، منذ فجر العهد الحجري القديم الأردني، قد تجاوزت العتبة التي تفصلها بشكل كلي عن أسلافها. ويمكننا قول الشيء نفسه بالنسبة إلى أولئك الذين اقتاتوا لأول مرة(١)، حوالي مليون سنة فيما بعد، بالزروع التي بذروها وبلحم وحليب الحيوانات التي ربوها.

وعلى العكس من ذلك، لا يبدو أن هناك اختلافاً جذرياً في نمط الحياة بين العهد الحجري القديم الأردني والعهد الحجري القديم الأعلى، ومع ذلك فبين هذين العهدين، أي في العهد الحجري القديم الأوسط، يتموضع التحول الغامض الذي استبدل الإنسان الفظ صاحب الجبهة المنحنية إلى أسفل (والذي يشكل إنسان النييندرتال نموذجاً له] بالإنسان العاقل المعاصر. أما بالنسبة إلى الاختراعات التقنية التي جعلت من الإنسان الكائن الأكثر رهبة في هذا الكوكب، فإنها تتحدد أيضاً في العهد الحجري القديم الأوسط، لكن العديد من هذه الاختراعات سبق ظهور «الإنسان العاقل».

إننا عندما نتفحص التحولات الإنتروبولوجية التي ما زالت تحدث اليوم داخل زمرة إنسانية يخضع نمط حياتها للتغير(٢)، نقتنع بسهولة بأن شيئاً مهماً محدداً قد تغير ضمن عادات أناس العهد الحجري الأول، قبل العهد الحجري الأول الأعلى بقليل ـ وهو تغير يفسر ظهور الإنسان العاقل ـ لكن ما هو الشيء بالضبط؟

صحيح أن النار استُعملت منذ آلاف السنين بكل تأكيد، كمقاومة ضد الوحوش وضد البرد، قبل استخدامها في طبخ أغلب الأطعمة.

---

(١) إنها طريقة في التعبير: فقد تم حصاد المزروعات الوحشية بانتظام ولمدة طويلة، قبل التفكير في بذرها.

(٢) بحسب كلوخون (Kluckhon)، فإن أبحاث بواس وشابيرو (Boas et shapiro) وآخرين، قد زرعت الشك حول استقرار هذه الخصائص (شكل الرأس، قامة، إلخ...).

«إن أطفال الألمان والروس الذين عانوا المجاعة في أثناء الحرب العالمية الأُولى، كانوا مختلفين عن آبائهم بشكل واضح من حيث القامة وشكل الرأس. ولقد كانت التغيرات، على مدى فترات زمنية أطول، أكثر وضوحاً. وعلى سبيل المثال، فإن زمرة من «الشماليين» اكتسبت شكلاً للرأس بين ١٢٠٠ قبل الميلاد و١٩٣٥ ميلادية، أكثر دائرية بكثير».

كلايد كلوخون، **الاستئناس بالأنتروبولوجيا**، بروكسيل ـ ديسارت، ص ١٤٥.

ذلك بأن العادات الغذائية، وإلى يومنا هذا، لا تتغير بسهولة. وعلاوة على ذلك، يجب توفر مهارة ما[1] لطبخ بعض النباتات من دون استعمال القِدر.

من الممكن إذن أن تكون عادة طبخ جزء مهم من الطعام - وجعله مفهوماً - أكثر تأخراً مما قد يتصور، ومن المؤكد أنها قد أثرت في التطور البدني والعقلي والاجتماعي للإنسان.

وعلى أية حال، فإن الاكتشافات الحالية المتعلقة بما قبل التاريخ، تقرب منا على وجه خاص كلاً من العهد الحجري القديم الأوسط والصناعة الموستيرية وإنسان النييندرتال[2]، وتبعدهم في الوقت نفسه عن البشر الأوائل الذين استعملوا النار. وهذا أمر يدعو إلى التأمل... ومن غير المستبعد في إطار هذا المنظور الجديد، تصور تغير من طبيعة أُخرى، اجتماعية لا تقنية (وذلك بظهور «مؤسسة» تستجيب لندرة الطريدة. وبالفعل، فإن هذه الندرة كانت قد بلغت أوجها على الأرجح، فترة وجيزة بعد الاكتشافات التقنية الأُولى للعهد الحجري القديم الأوسط [فخاخ، قذافات، صيد بواسطة مطارد للفريسة]، لأن هذه الندرة ستعوض ضرورة بعد ذلك، بشيء يجب تسميته «اتفاقات» و«تقنيات»... في الوقت الذي كانت المجاعة قد باغتت الإنسانية، مباشرة بعد الاكتشافات التقنية.

لقد كانت وضعية العهد الحجري القديم الأوسط والأعلى بالفعل، مخالفة تماماً لوضعيتنا: فقد خلق التقدم الندرة، وتسبب الذكاء الإنساني في المجاعة - لكن المجاعات هذه كانت مسبوقة ضرورة بنزاعات بين القناصين. والحال أنه لا

---

(١) كان هنود الحقول يعملون على تسخين الماء بأحواض من الجلد، وذلك برمي أحجار محرقة داخلها، وما زالت جبنة البرانس (Pyrénèes) تصنع أحياناً عن طريق رمي أحجار ساخنة داخل الحليب - ويمكن لسكان لا يزاولون طرق الطهو هذه، المعقدة بعض الشيء، أن يشووا القسطال وأن يخبزوا تحت الرماد (وهو ما كنا نقوم به في منطقة الهُجّار وفي العاير، وقد كان الخبز جيداً).

(٢) لقد اختفى إنسان النييندرتال من أوروبا منذ حوالى ٣٥ ألف سنة، وتأكد وجوده منذ حوالى ١١٥ ألف سنة. وعندما تصور علماء ما قبل التاريخ أن الحضور الإنساني يرجع إلى ٣٠٠ ألف سنة، كان إنسان النييندرتال بمثابة سلف بعيد جداً. وقد أصبح قريباً منا بشكل خاص، بعد أن قُدرت مغامرة نوعنا (الإنساني) بحوالى مليوني سنة.

يوجد أثر لهذه الصراعات في العهد الحجري القديم الأعلى.

هل تمكنت هذه الندرة منذ العهد الحجري القديم الأوسط من إلزام البشر بضرورة الاختراع ـ اختراع ليس في المجال التقني هذه المرة، بل في المجال السياسي؟

إن ما يجعل هذه الفرضية مقبولة [أو على الأقل غير مستبعدة التصديق]، هي التجربة الإثنوغرافية ـ وبالفعل فهي تبرز لنا وجود اختراع اجتماعي مشوش كلية وممتزج دوماً باختراع تقني فقير وبطيء إلى حد ما، لدى جميع «المتوحشين». وتلك حجة كافية لتصور السياسة مشاركة لتطورنا منذ بداياته الأُولى.

إن علْماً مجاوراً (للإثنوغرافيا) ـ وهو علم ما قبل التاريخ ـ يمنحنا دليلاً آخر، مقتبساً من أحلام اليقظة الطويلة أمام الواجهات التي رتبت بداخلها أدوات الإنسان الأُولى: فنحن نظل مشدوهين أمام قوة المحاكاة اللامتناهية تقريباً، لأسلافنا، حينما نراهم ينقلون الأداة نفسها على مدى عشرات الآلاف من السنين. فكيف لنا ألا نتصور محافظة موازية بالنسبة إلى المؤسسات؟

والحال أنه منذ أربعين ألف سنة [وهي فترة طويلة بالنسبة إلى الخمسة آلاف التي تشكل المرحلة التاريخية، لكنها قصيرة في أفق المليوني سنة من تطورنا]، سرعان ما تعرض التقدم البشري لتسارع لا يمكن لأي عقل مدرك تفسيره؛ فقد ظهر مباشرة بعد ذلك تقريباً، نوع من البشر هو إنساننا المعاصر، وبدفعة واحدة تقريباً، سيؤثر إبداع نتاجات فنية حقيقية على عبقرية هذا الإنسان. ومهما كانت طبيعة التغير الذي سبق ظهور الإنسان الحالي، فإن هذا التغير كان مهماً وحاسماً. والحال أنه لم يظهر في حفريات هذه المرحلة لأنه لم يتم العثور إلا على أثر تحسن مهم لنمط حياة سابقة: فقد ابتكر قناصون لا يتوفرون إلى هذه الفترة، على أدوات كافية وأسلحة للقنص، ونظموا أنفسهم، مما سمح لهم بأن يصبحوا أكثر رهبة بالنسبة إلى طريدتهم.

ومع ذلك، فقد ظلوا قناصين وصيادين وجامعين للبلوط والقسطال وللدخن الوحشي، إلا أنهم تغيروا جذرياً على المستوى البدني والعقلي.

وفي المنطقة التي تهمنا (إفريقيا الشمالية، أوروبا، المشرق)، فإن بقايا

الإنسان العاقل لا توجد في الأراضي التي تتجاوز أربعين ألف سنة، لكنها حينما تظهر، فإن آثار نشاط عقلي إنساني تتضاعف.

ومنذ ذلك الوقت، فإن كل تقدم تقني بالنسبة إلى نوعنا سيترجم بواسطة حظ إضافي في البقاء، وبالتالي بواسطة تزايد في العدد(١). إلا أن الطبيعة، وإلى حدود العهد الحجري الجديد، ستعاقب هذا التزايد، مثلما تعاقب تزايد الأرانب والسناجب، عن طريق المجاعة، وهو ما يعني الموت أو ضرورة الهجرة.

ونسجل بالنسبة إلى تلك الفترة، أن إنسان العهد الحجري القديم الأعلى، لم يهاجر كثيراً ـ على العكس من شعوب الفترة اللاحقة (العهد الحجري الجديد) ـ وقد كتب أندري لوروا موران(٢) [بصدد الأصداف البحرية التي عُثر عليها في المناجم التي ترجع إلى هذه المرحلة]، ما يلي:

«يبدو قطعياً، وفي أغلب الحالات، أن التموين قد تم على مدى ١٠٠ إلى ٢٠٠ كيلومتر، وهو ما يتطابق جيداً مع المعطيات الحالية حول وجود زمر إقليمية مستقرة نسبياً داخل المجموعات الكبيرة التي كانت تشكل العهد الحجري القديم الغربي».

ويشير المؤلف أيضاً(٣)، وبصدد الرسوم الصخرية، إلى أن «دراسة الآثار الفنية هناك، حيث توجد بأعداد كافية، تظهر كيف أن الوحدات الإقليمية كانت

(١) انظر غوردون تشايلد، **ميلاد الحضارة**، ترجمة ونشر مونتي، ١٩٦٣، ص ٥٩: «إن وفرة بقايا العهد الحجري القديم الأعلى، الموجودة في الكهوف، تعلن تزايد قوي للسكان. فالهياكل العظمية لهذه المرحلة والتي وجدت بداخل التراب الفرنسي وحده، تتجاوز في عددها جميع الهياكل العظمية السالفة الموجودة في العالم كله. ومع ذلك فإن مدة العهد الحجري القديم الأعلى تمثل أقل من ١ على ٢٠ من الفترات السابقة، لكن عدد الهياكل العظمية لهذه المرحلة في فرنسا، لا يصل من جهته إلى نسبة ١ على ١٠٠ من هياكل فترة العهد الحجري الجديد في التراب نفسه. كما أن مدة هذه المرحلة الجديدة النيوليتيكية تعطي أقل من عشر المراحل الأورينياسية والمجدالينية.

(٢) أندري لورو كوران، **ديانات ما قبل التاريخ**، المنشورات الجامعية الفرنسية، ١٩٦٤، ص ٧٢.

(٣) كوران، المصدر نفسه، ص ٨٤.

متينة وثابتة على مدى قرون. فبين مرحلة السلتريان (solutréen)[*] والمجداليني الجديد، تعرضت مناطق الأستوري والكنتابري والبرانس الوسطى لتفرد ذي طابع مدهش كلية. ويبدو أن وادي الرون شكل أيضاً كياناً جغرافياً ثابتاً، كما أننا قد نكون مخطئين جداً إذا تصورنا شعوب ما قبل التاريخ وكأنها تجوب المساحات الشاسعة الواقعة بين المحيط الأطلسي والأورال على عجل وعلى شكل دوامة: إن عالم العهد الحجري القديم لا يبدو مختلفاً كثيراً عن العالم التاريخي». وحتى لو حددنا المجاعات التي سببتها ندرة الطريدة في العهد الحجري القديم الأعلى، فإن مشكلة البقاء التي فرضت على الناس، كانت ستظل مع ذلك «مشكلتهم» لمدة ١٠٠ أو ٢٠٠ أو ٣٠٠ قرن - وهي تتجاوز بأكثر من ست مرات مدة التاريخ - وإذا ما أقررنا بأن بدايتها قد تكون منذ العهد الحجري القديم الأوسط، فإن علينا أن نقدر هذه المدة الشاسعة بأكثر من ٤٠ ألف سنة، وهي فترة واجه فيها الذكاء الإنساني باستمرار هذه الحاجة الملحة، ألا وهي الحفاظ على التوازن بين عدد البشر والأنواع التي يقتاتون منها. في كل الأحوال، فإن الأمر يتعلق هنا بمدة زمنية كافية كي يتلمس التبصر الاجتماعي لشيوخ القبائل ولمرات عديدة نتوءات هذه الحاجة. إن ما سيفسر بشكل خاص الاستقرار النسبي لمؤسسات تلك المرحلة، كون هذا التبصر الموجه والمركز باستمرار (من خلال ألف من التخيلات الخرقاء لا يزال لنا منها بعض الآثار) نحو الحل الوحيد الممكن والمعقول والمتمثل في حماية الطريدة، وفي خلق والحفاظ على الأمر الواقع في المجال الاجتماعي - أي احترام حدود[1] وأراضي عبور الجيران - لكن سيفسر أيضاً شمولية هذه المؤسسة المعقدة المندرجة تحت

(*) يرجع كل من السلتريان والمجداليني الجديد إلى العهد الحجري القديم (المترجمان).

(١) «لا نملك دليلاً على وجود الحرب في العهد الحجري القديم. ولدينا حجج كافية للاعتقاد أنها كانت غير معروفة عند بداية العهد الحجري الجديد في أوروبا والمشرق؛ فلم يكن السكان يتوفرون على البنى التي تقتضيها مقاومة ما ضد هجومات محتملة. ويبدو أن الأسلحة لم تكن مخصصة سوى للقنص. فالحرب الهجومية المنظمة لم تكن موجودة في أستراليا. ويبدو أن بعض المناطق من العالم الجديد كانت مستثناة كلية من الحرب قبل مجيء الأوروبيين».

كلايد كلوخون، **الاستئناس بالأنثربولوجيا**، بروكسيل - ديسارت، ص ٧٢. وبالفعل، فإن غياب الحرب يعتبر من مميزات العهد الحجري القديم الأعلى، وليس من مميزات العهد الحجري الجديد.

اسم الزواج الخارجي، والتي ما زالت تمارس في جميع القارات من طرف الشعوب التي تعيش أساساً من القنص والقطف. وهو ما سيفسر كذلك كيف أن الأعمال الفنية الأُولى كانت مستوحاة مما كان إنسان ما قبل التاريخ يسميه شعار الخصوبة، وهو ما يعني وقاية منهجية لإناث ـ الحيوانات ـ وباستغراق منطقي ـ رعاية موجهة نحو زيادة المواليد البشرية (وهما أمران ظهرا في المرحلة الأورينياسية)[*].

إننا نعلم بأن إنسان العهد الحجري القديم كان يمتلك موارد لم يكن في إمكانه الزيادة في مردوديتها، إلا إذا جازف بتدمير الحيوانات والنباتات التي يقتات منها، وبشكل يتعذر تعويضه. ونعتقد، بحسب الحفريات التي تم جردها راهناً، أن الإنسان لم يلجأ إلى الحرب، ولا نجد أثراً لآكل اللحوم الآدمية على البقايا البشرية التي وصلتنا، ونسجل بغتة بعد الاكتشافات النيوليتيكية، تزايداً للسكان. لكن يبدو أن عدد هؤلاء السكان لم يتغير في العهد الحجري القديم برمته، فهم لم يهاجروا، ولم يتزايد عددهم إلا بشكل ضئيل، كما أنهم لم يقتتلوا فيما بينهم. لماذا؟ وكيف؟ إن ما يمكن تأكيده في أية حال هو أن هذا الأمر ليس بديهياً.

من جهة أُخرى، فإن ابتكاراً اجتماعياً غريباً ومعقداً ـ وهو الزواج الخارجي ـ يصعب التعود عليه، ويزعج كثيراً أولئك الذين يزاولونه. كما أن فائدته لا تظهر في الحال[١]، ويتمثل لنا اليوم وكأنه منتشر داخل النوع الإنساني بشكل شمولي، إلى الحد الذي لا تخلو فيه أية قارة من آثاره، وذلك عبر عدد لا يمكن تخيله من التركيبات الغريبة.

ويجب علينا، حينما نتفحص هذا التقسيم ـ إما أن نسلم بـ «حاجة» المجتمع الإنساني (وفي هذه الحالة، كيف نفسر وجود منطقة شاسعة ومتجانسة هي كل العالم القديم[٢]، لا يطبق فيها هذا القانون الخاص بالمجتمع الإنساني

(*) تعتبر المرحلة الأورينياسية بداية العهد الحجري القديم الأعلى (المترجمان).

(١) إن كلود ليفي ستراوس، مصدر سبق ذكره، ينصف النظريات التي تفسر حظر ارتكاب المحارم، بالسلوك الأخلاقي والنظافة، إلخ. . . .

(٢) لقد خُصص الفصل الثالث للزواج الداخلي الذي ميز العالم القديم، وخُصص الفصل الخامس للزواج الداخلي الحالي.

برمته؟)، وإما أن نبحث عن تفسير يأخذ الحلين المتعارضين بعين الاعتبار.

وإذا ما سلمنا بالعلاقة (التي تبدو لي محتملة بما فيه كفاية) بين العهد الحجري المتوسطي الجديد والزواج الداخلي، فيجب علينا فعلاً أن نرد بدايات الزواج الخارجي إلى ماض أكثر قدماً بشكل لا يقدر - وإذن، إلى العهد الحجري القديم بالتأكيد - وعلى هذا المستوى سنكون مضطرين إلى البحث، ليس عن قانون دائم (لأنه خضع للتبدل)[1]، ولكن عن ظاهرة عرضية، هي في الوقت نفسه، بدائية جداً وعامة جداً وحاسمة جداً. إن المجاعة التي أحدثها تحسن تقنيات القنص تطابق هذه الشروط بشكل ملائم إلى حد ما. وبالفعل، فهي لا يمكن أن تؤدي إلا إلى أربع نتائج: الهجرة، الحرب بين القبائل، الزوال عن طريق المجاعة أو البحث عن استقرار ما.

والحال أننا رأينا كيف أن أناس العهد الحجري القديم الأعلى كانوا يهاجرون قليلاً، ولا يبدو أنهم كانوا يمارسون الحرب أو أكل اللحم الآدمي، فقد كانوا بكل تأكيد يسيطرون على محيطهم الجغرافي، وكان عدد الأفراد يتزايد ببطء شديد. وهذا معناه أن مجموع هذه الملاحظات يستبعد في آن معاً فرضية تبديد الموارد الطبيعية (مما كان سيؤدي إلى الزوال المحلي لنوعنا)، وكذلك فرضية التوالد الطبيعي.

إن أناس العهد الحجري القديم الأعلى (الأورينياسيون والمجداليون)، كانوا يتوفرون على دماغ لا يختلف عن دماغ أناس اليوم - وقد سمحت الجماجم التي تم العثور عليها بتصور ذلك -. فهل كان لهؤلاء الناس ذكاء شبيه بذكائنا أيضاً؟ صحيح أن تنمية الذكاء واقعة اجتماعية يمكنها بالتالي أن تتغير عبر العهود، لكن هذه التنمية، وهذا أمر نعرفه جيداً، لا تكفي، فهي بحاجة إلى سند - هو الدماغ -. إن هذا الأخير قد تغير بسرعة أقل كثيراً، ولم يطرأ عليه أي تغيير منذ ظهور الإنسان العاقل، على الرغم من التغيرات الهائلة التي حدثت.

هل يجوز إذن أن نتصور أن التغير الذي مس العادات الإنسانية من

---

(١) سنرى في الفصلين الثالث والخامس كيف تبدل هذا القانون داخل مجال شاسع جداً، يشكل البحر الأبيض المتوسط مركزه.

الداخل، عند نهاية العهد الحجري القديم الأوسط، كان أكثر أهمية من جميع التغيرات التي عاشها نوعنا، على مدى القرون المئة التي مرت؟

العهد السياسي القديم

في مجتمع يعيش من القنص والقطف، ستكون الزمرة المستمرة في البقاء قد عملت في البداية على حماية الأنواع التي تشكل مصدراً لقوتها، وهي بذلك ستكون قد ركزت اهتمامها على استمرار الإناث، ثم سيكون عليها القيام بمراقبة ذاتية كي لا يتناقص عدد أفرادها أو يتكاثر (وهو ما سيوجب عليها مراقبة تزايد عدد المواليد بحذر، أي لا إفراط ولا تفريط في ازدياد عدد الأطفال). وأخيراً ستكون ملزمة بحماية ترابها الحيوي من انتهاك جيرانها لحدود هذا التراب. والحال أن الزواج الخارجي يشكل الوسيلة المباشرة لإقامة شبكة من المعاهدات، ويمكن لهذه الشبكة المساهمة، بعد تأسيسها، في تحويل نسبة المواليد «الطبيعية»[1] إلى نسبة مواليد «اجتماعية». ويمكنها أيضاً مساعدة رؤساء العشائر الشيوخ على أخذ قصب السبق في الحصول على الفتيات الشابات.

وليست هناك أية جرأة في أن نتصور أن الإنسان قد «مارس» عند نهاية العهد الحجري القديم الأعلى، ولمدة طويلة، الزواج الخارجي في مختلف جوانبه، وتصرف في ممارسته هذه، ومن المحتمل جداً أنه يكون قد قدر ووزن قبلاً عامل الكبح الذي يشكله هذا النوع من الزواج فعلاً بالنسبة إلى الولادات.

وإنه لأمر أكثر جرأة أن نتخيل وقوع هذه العادة، ليس عند نهاية العهد الحجري القديم الأعلى ـ وهي مرحلة متقدمة جداً في مجال الفن والتقنية، وبكل تأكيد في مجال المؤسسات ـ ولكن مباشرة بعد أُولى الاختراعات الكبرى التي وسمت العهد الحجري القديم الأوسط، والتي قبلت نهائياً وضعية الإنسان في علاقته بوسطه: فمن الآن فصاعداً سيصبح أقل فأقل عرضة للخطر، وأكثر فأكثر خطراً على الآخرين.

---

(١) نشير بهذا الصدد إلى أن «نسبة المواليد الطبيعية» (طفل في كل سنة بالنسبة إلى جميع النساء اللواتي تتراوح أعمارهن بين ١٥ و٤٥ سنة) لا يمكن أن توجد في أي مجتمع من المجتمعات، بدائياً كان أو غير بدائي. وكل ما يمكننا الإشارة إليه هو وجود هذه الظاهرة لدى الكنديين الكاثوليك منذ بضع سنوات خلت.

ويمكن أن نتخيل أن الاتفاقات الأُولى قد نظمت الصراعات بين الزمر التي كان أصلها المشترك متقارباً، وأن هذه الاتفاقات أصبحت عادات، وأن الزمر الإنسانية المختلفة حينما وجدت نفسها فيما بعد في وضعية تجاور حدودي، فإن الطرف المستخدم لطريقة تبادل النساء من أجل الحفاظ على السلم، ضمن هذه الزمر، هو الذي تمكن من إظهار مقاصده للوافدين الجدد. ثم مرت القرون وآلاف السنين...

هل من الممكن أن نعزو اختراع الزواج الخارجي إلى إنسان النييندرتال؛ إلى «الإنسان الفظ ذي الجبهة المنحنية»؟

إن ما نعرفه عن أدواته لا يجعل الأمر مستبعداً، ومن غير المستبعد كذلك تخيل أن كل زمرة من القناصين كانت تسعى مسبقاً إلى الاحتفاظ لذاتها بمنطقة محددة للقنص. إن وجود حدود وتخوم يفترض اتفاقات وأنساق للتحالفات، سيكون تبادل النساء في الواقع من أكثرها بساطة و«بدائية».

وإذا ما سلمنا بهذه المجموعة من الفرضيات، لربما فسرنا ظاهرتين مدهشتين ضمن التاريخ الإنساني: أولاً ظهور الإنسان العصري، الإنسان الذكي، الإنسان العاقل. ثانياً الاختفاء المتأني، والذي ليس أقل إدهاشاً، لكل الممثلين الآخرين للنوع الإنساني. في ظل هذه الرؤية، سيكون الإنسان العاقل قد تولد عن التهجين المنظم والماهر للكائنات المشكّلة للأصول الإنسانية التي كانت موجودة حتى ذلك الحين، والتي ستختفي جميعها من خلاله.

وإجمالاً، فإن «الإنسان الذكي» سيكون فبركة، اختراعاً ـ وهو أكبر اختراع بكل تأكيد ـ. ويجب أن نعزو ذلك إلى إنسان النييندرتال، إلى الإنسان الفظ ذي الجبهة المنحنية الذي تحدثت عنه كتب أطفالنا المدرسية. ولضمان أمن مناطقه المخصصة للقنص، منذ المرحلة الموستيرية، فقد ألزم نفسه الخضوع لسيرورة تهجين منظمة، ستمتد على مدى ٣٠ ألف سنة من العهد الحجري القديم الأعلى...

ولنسجل أنه إلى حدود العهد الحجري الجديد، واجه التقدم التقني بشكل ضروري ومستمر، حجر عثرة في طريقه، وهي المجاعة الناتجة بطريقة ميكانيكية من التحسنات الطارئة على أساليب القنص والقطف.

وبحسب المنطق السليم، كان على حجر العثرة هذا أن يوجه أجود عقول المرحلة كلها نحو الاختراع السياسي ونحو البحث السحري. والحال أن غنى الاختراع السياسي داخل حضارات قريبة من حضارة هؤلاء الناس (أي حضارة تعيش خصيصاً من القنص والقطف)، تبهر في الحقيقة جميع الاختصاصيين المهتمين بها[١].

وتغير كل شيء بشكل جذري في أحد الأيام، في أحد القرون؛ فقد اخترع الإنسان زراعة الحبوب (أي الفلاحة) وتدجين[٢] الماعز والغنم والبقر (أي تربية الحيوانات) والمدينة (أي الحضارة).

لقد تم ذلك كله تقريباً كذلك في الوقت نفسه، بفارق خمسة أو ستة قرون، وكذلك في المكان نفسه تقريباً. وعلاوة على ذلك، تعود المخترعون على صقل الأحجار بدل قطعها ـ وهو ما سهل الاشتغال على الخشب وبالتالي سهل عملية الإبحار والجر ـ وقد انتشر هذا الاستعمال الذي طبع باسمه (وهو نيوليتيك) مجموع ثقافة الإنسان، في مرحلة انتشار هذه الأخيرة، وذلك بأن الحضارات في جميع الأزمنة تتبنى أو تفرض بعضها البعض كلية.

لقد سبقت هذه الاختراعات النيوليتيكية أو تلتها عدةُ اختراعات أُخرى: نسج، صناعة الخزف، ملاحة بالزوارق أو الطوافات، نقل بواسطة زلاجات أو زلاقات تجرها الكلاب، وهذا كله سيغير بسرعة كافية وجه الكوكب الأرضي، وذلك بالإسراع من وتيرة التطور الإنساني. ولتحديد أهمية هذه المعطيات، تكفي الإشارة إلى أنه قد انقضى حوالى مليوني سنة بين البشريات الأُولى وبدايات

---

(١) إن الاختراع التقني هو الذي سيأخذ الصدارة بعد الاكتشافات النيوليتيكية. وبالنسبة إلى من أقبل على دراسة المجتمعات القروية للعالم القديم بواسطة الاثنولوجيا (مثلي)، فإنه من المثير أن نقارن ضمن هذه المجتمعات بين فقر الاختراع في مجال المؤسسات والبنى وبين الغنى الذي نلاحظه في المجتمعات التي تمارس الزواج الخارجي.

(٢) تم تدجين الكلب عند نهاية العهد الحجري القديم وبداية العهد الحجري الأوسط الميزوليتي، أي مدة طويلة قبل الماعز والخروف السابقين على البقرة بعض الشيء. «إن المرشح الأكثر احتمالاً بصفته جد الماعز هو ماعز تركستان وأفغانستان. وبالنسبة إلى الخراف، فإن الأمر يتعلق بأركالي جبال البورز بإيران الشمالية»...إن هذا الموطن أو ذلك يتطابق جغرافياً مع موطن القمح.

كارلتون. ك. كون، **تاريخ الإنسان**، كالمان ليفي، ص ١٥٤.

الثورة النيوليتيكية، وحوالى ٨ آلاف أو ١٠ آلاف سنة على الأكثر بين هذه المرحلة وبيننا. وابتداءً من هذا الحدث، سيتم العد بالقرون بدل العد بآلاف السنوات. وتجب الإشارة مع ذلك، إلى أن مثل هذا الازدهار ما كان له أن يتم لولا أن قناصي العهد الحجري القديم الأعلى كانوا يمتلكون منذ مدة طويلة دماغاً ومهارة يدوية يعادلان دماغنا ومهارتنا ـ وهو ما يستتبع السيطرة على الكثير من الأفكار.

ولربما كان من الأجدر نعت العهد الحجري القديم الأعلى بـ «العهد السياسي ـ القديم» من أجل مقابلته بشكل أفضل بالمرحلة اللاحقة، التي يمكن نعتها بالمرحلة «التقنية».

خلال العهد الحجري الجديد، فإن التنظيمات التي لا يبلغها الإحصاء، والتي يتم اختراعها من طرف العقول النابغة والأرقة لساكني الكهوف، ستكون بالفعل غير قادرة على التحكم في اندفاعاتها: فمن الآن فصاعداً لن تكون هناك ضرورة للانضباط، بل سيصبح من الممكن القيام بالقنص والإتلاف بحرّية ـ فقطيع الماشية والحقل يضمنان المستقبل ـ وسيمكن للإنسان أيضاً الاحتفاظ بنسائه والاستيلاء على نساء جاره، والحصول على العدد المرغوب فيه من الأطفال، لأنه كلما صار العدد أكبر أصبح الأفراد أكثر قوة للدفاع ولتنمية رسملة (Capitalisation) تعرف بداية نشأتها.

«الحضارة»، تلك الطفلة الصغيرة المهدهدة فوق ركبتين حادتين

إن ميلاد أُولى المدن في العالم، معاصر ومجاور تقريباً للاكتشافات الأكثر حسماً بالنسبة إلى الإنسانية، أقصد بذلك زراعة الحبوب وتدجين الحيوانات ـ وهي اختراعات قروية بالأساس، لكنها مع ذلك ليست أكثر قروية من المدن الأُولى ـ.

إن الأركيولوجيات ستسمح لنا يوماً ما ربما، بالفصل بشكل حاسم في مشكل الأسبقيات، بين هذه الإبداعات الثلاثة الكبرى ـ مدينة، حقول، قطيع ـ وكيفما كان الحال، فإنني أجدني، وفي انتظار هذا الحسم، مدفوعة إلى أن

أتصور أن المدينة كانت هي أول ما ظهر من بين الثلاثة السابقي الذكر، لأنها تبدو لي بمثابة أكبر عامل للاختراع ضمن تطورنا برمته.

إنني أعرف أن الكتب المقدسة في السوسيولوجيا[1] تعلن العكس، وذلك باعتمادها على حجج منطقية متينة (وإنه لأمر صحيح جداً، من جهة أخرى، كون مدينة تعني تخصصاً، أو إذا ما أردنا، حرفة وبالتالي فائضاً غذائياً، كما أنه من المنطقي التفكير في أن هذا «الفائض» لم يكن ممكناً إلا بعد الاختراعات النيوليتيكية، وهي الزراعة وتربية المواشي)، لكن على العكس من ذلك، فإن الإثنولوجيين يعرفون أن الأناس المنعزلين[2] لا يخترعون، أو قلّما يخترعون، كما أن علماء ما قبل التاريخ تعودوا على تقدير انتشار تقدم تقني صغير بآلاف السنوات.

والحال أن مدة التقدم لم تعد فجأة تحسب بآلاف السنوات بل بقرون وبأرباع القرن حتى. وفي الوقت نفسه، أصبح هذا التقدم بغتة يستجيب لكل الحاجيات الإنسانية الكبرى. وبين الاستبعادية السوسيولوجية والاستبعادية الإثنولوجية، فإن الأركيولوجيا وحدها[3] هي التي يمكنها أن تحسم في الأمر. وفي انتظار أن تعلن موقفها، ليس من المحظور أن نتخيل قرب بحيرة أو نهر مسمكين، موضعاً يتميز بوفرة الصيد، وغير بعيد عن ذلك المكان، توجد أراضٍ غمرتها المياه، تسمح بقطف وافر ومنتظم للزروع الوحشية، ويقوم نزاع حادٌ بين زمرتين مهمتين بحيث أن التنظيم الاجتماعي الأكثر فعالية لدى إحدى الزمرتين هو الذي سيضمن لها الانتصار. وبذلك ستعزز تلك الزمرة الموقع المرغوب فيه وستؤسس سوقاً، وها هي المدينة.

ومنذ ذلك الحين، فإن التقدم الحقيقي سيأخذ طريقه، وكل اختراع سيصبح للتو قابلاً للانتشار، للتقليد، للإتقان: هكذا فإن آفتي الإنسانية

---

(١) فردريك انجلز، **أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة**.

(٢) إن الأمر أكثر من مجرد تجمع بسيط لأدمغة، فالتقدم مدفوع بفعل اتصال العقول الذكية التي تشعل شرارة العبقرية: فالمدن الصغيرة المنظمة لليونان القديمة كانت أكثر خصوبة من مدننا الصفيحية.

(٣) تؤكد اكتشافات أركيولوجية لاحقة على الطبعة الأُولى لهذه الدراسة فرضية هذه الأخيرة.

الكبيرتين، وهما الطغيان والحرب، سيهددان الحضارة الصغيرة الناشئة على ركبتيهما الحادتين.

ولنكتف الآن بتأكيد أن الفرضية السوسيولوجية ليست أكثر يقينية من غيرها، لكن كيفما كان الحال، فإن الأمر يحدث على نفس القطعة الصغيرة لكوكبنا وفي الفترة نفسها، مع فارق بضعة قرون تقريباً. وهي على أي حال مدة وجيزة إذا ما اعتبرنا أن «موضة» الصوانات الثقيلة ذات الوجهين والتي ظهرت في العهد الحجري القديم الأسفل، قد استمرت بلا تغيير مدة تناهز مئات الآلاف من السنوات: وهي مدة أطول بعشر مرات تقريباً من المرحلة الشاسعة التي تصورناها بالنسبة إلى الزواج الخارجي. وإذن، فقد توقف الخوف من الندرة الناجمة عن تحسين تقنيات القنص بسرعة كبيرة (هذه الارتقاءات التي كانت تنقلب بسرعة ضد مخترعيها). وبالزيادة في آن معاً (في وتيرة إبادة الطريدة وفي تكاثر القناصين)، لكن سيتم التخوف أكثر فأكثر من حملات الزمر المحتاجة، ضد هذه الأهداف العطوب والجذابة ونقصد بها: المخازن والمواشي. وعلى عكس ما يبدو أنه قد حدث في أثناء المرحلة السابقة، فإن الأركيولوجيا تسمح بكشف تغيرات عديدة في العهد الحجري الجديد، مست المناطق الشاسعة الواقعة بين نهري النيل والغانج. كتب غوردون تشايلد: «إن تلال إيران وبلاد الرافدين وسوريا، ومقابر مصر تؤكد وجود تحولات حقيقية في مجال الصناعة الخزفية والهندسة المنزلية والطقوس الجنائزية والفن. إن هذه التغيرات التي تكون عنيفة أحياناً، يجب النظر إليها كمؤشرات على تحركات السكان كعلامات لغزوات لاحتياجات أو تسربات أجنبية»[(١)].

أما كلايد كلوخون، فإنه يشير على العكس من ذلك، فالقرى النيوليتيكية الأولى لا تقدم أي أثر للتحصينات. ومع ذلك فقد سنحت لي في سنة ١٩٦١ فرصة رؤية التنقيبات التي ما زالت مستمرة على موقع أقدم مدينة معروفة إلى يومنا هذا، وهي مدينة أريحا، حيث تم اكتشاف «قرية» تمتد على مساحة أكثر من ٣ هكتارات. وقد كانت هذه القرية محمية بواسطة خندق عرضه ٩ أمتار وعمقه ٣ أمتار، وهو محفور داخل الصخر[(٢)].

(١) غوردون تشايلد، **ميلاد الحضارة**، ترجمة ونشر كونتيي، باريس ١٩٦٣، ص ١٢٦.
(٢) ك. كينيون، مداخلة، **المجلة التوراتية**، جزء ٦٤، ١٩٥٦، ص ٢٢٥.

كان السكان الذين عاشوا في تلك المرحلة يربون الأغنام والماعز من دون الأبقار، ولم يكونوا يصقلون فؤوسهم الحجرية، وكانوا يجهلون صناعة الخزف. لقد كانوا موجودين منذ ٩ آلاف سنة[١] (وهو التاريخ الذي زودنا به الكاربون)[*].

لقد بدا لي البرج الحجري الدائري الشكل والسور العالي الذي استعمل كمرتكز، شبيهين كثيراً بحاجز... ومن يقُل «حاجزاً» يقُل مدينة، وحرباً أيضاً.

هل كانت الحرب موالية للتقدم؟ أم أن التقدم هو الذي كان موالياً للحرب؟ كيفما كانت النظرية التي نقبلها لتفسير التغير، فإن هذا الأخير قد تم فعلاً، وهو تغير مكن من إعادة النظر في التجربة الإنسانية كلها.

هل كانت زوجات القناصين الأورينياسيين أقل متانة من نورمانديات كيبيك؟

عند فجر العهد الحجري الجديد، كان عدد سكان الأرض قليلاً جداً. وقد كتب جان فوراستي بهذا الصدد[٢]: «تم تقديم رقم ١٠ ملايين نسمة بالنسبة إلى بداية الألف الرابعة قبل المسيح وبالنسبة إلى الكوكب الأرضي برمته، وهو تقريباً عدد سكان حاضرة طوكيو اليوم»...

«ويعتقد أن عدد ١٠٠ مليون قد تم بلوغه في عهد المسيح، في تلك الفترة إذن، وهي فترة حديثة جداً في تاريخ نوعنا، فإن الفرنسيين والإيطاليين الحاليين كانوا لوحدهم سيعمرون القارات الخمس. وفي سنة ١٨٣٠ وصل عدد السكان إلى مليار، أما في سنة ١٩٦٢ فقد كنا ٣ مليارات و١٣٥ مليون نسمة. وعلى ضوء التطور الحالي، فمن المفترض تجاوز ٦ مليارات نسمة سنة ٢٠٠٠.

---

(١) إن الرقم المتوسط هو ٨٢١٥ سنة بالنسبة إلى المرحلة الثانية، أما المرحلة الأُولى، فلم يتم تأريخها.

(*) الكاربون مادة كيميائية لتقدير تاريخ الأشياء الأثرية.

(٢) جان فوراستي، **الأربعون ألف ساعة**، باريس، لافون ـ كونتيي، ١٩٦٤، ص ١٥٨.

ويجب حدوث تدن بعيد الاحتمال لنسبة الخصوبة، كي لا يتم الاقتراب من ١٢ مليار نسمة سنة ٢٠٥٠ أو ٢٠٦٠».

وإذا ما تفحصنا زيادة النوع البشري على مستوى التراب الفرنسي - وهي الأكثر جلاء في العالم من زاوية ما قبل التاريخ - بدل معاينة هذه الزيادة على مستوى الكوكب الأرضي، فنسجل أن عدد سكان هذا التراب زاد عشرة أضعاف[1]، ما بين الفترة التي كانت فيها ثقافة هؤلاء السكان باليوليتيكية والفترة التي أصبحت فيها نيوليتيكية.

ويجب الوصول إلى القرن العشرين كي نجد نسبة أكثر تفجراً للزيادة البشرية. إن الفارق بين هاتين المرحلتين هو أن الأرض كانت عند بداية العهد الحجري الجديد شبه فارغة وهي اليوم شبه ممتلئة.

لنتعجب مع ذلك ونحن نتابع سيرنا...

لقد غادرت بضع مئات من القرويات الفرنسيات منطقة النورماندي في القرن ١٧، وأصبح لهن ١٠ ملايين حفيد[2]، فهل كانت كندا القرن ١٨ أكثر سلامة من وادي الدوردوني منذ ١٥ ألف سنة مضت؟ وهل كانت معاصرات هنري الرابع أكثر عافية وأكثر خصوبة من نساء كرومانيون[*]؟ وإلا كيف نفسر

---

(١) لوي روني نوجيي، «أنماط حياة إنسان ما قبل التاريخ»، **مجلة الطبيعة**، آذار/مارس ١٩٥٣، ص ٨٣: «يمكن الحصول على تقدير محتمل لسكان الغول في الألف الثالثة قبل الميلاد، وذلك بواسطة المنهج الكيني. إن المسبكة القروية للأراضي السهلة الغنية توحي بتعمير سكاني يتراوح بين ١٠ إلى ٢٠ ساكناً في الكيلومتر مربع. لكن مجموع التراب ليس آهلاً بالشكل نفسه، فمرتفعات أرموريكان والمرتفعات الوسطى والنورماندي والمناطق الزراعية للواز أكثر كثافة من حيث السكان. وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار هذه العوامل المختلفة جميعها، وبحسب الخرائط النادرة جداً والدقيقة التي تم إنشاؤها، فإن عدد سكان الغول في العهد الحجري الجديد يمكن أن يصل إلى ٥ ملايين نسمة أواخر الألف الثالثة. وبالنسبة إلى الألف الرابعة، فإن التقديرات لا يمكن أن تتجاوز مليوناً واحداً. لنتصور الأمر: إن ٥ آلاف من أواخر الألف الثالث إلى القرن العشرين هي المدة اللازمة كي يزداد عدد سكان التراب نفسه من جديد، عشرة أضعاف».

(٢) لقد توقفت الهجرة الفرنسية إلى كندا في عهد لويس الخامس عشر، ولم تُستأنف إلا حديثاً. ويجب أن نضيف إلى عدد الكنديين، علاوة على ذلك، فرنكفونيي كندا الذين هاجروا بأعداد كبيرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية (إن عدد سكان كندا حالياً يقدر بـ ١٩ مليون نسمة، منهم قرابة النصف من أصل فرنسي). وتجدر الإشارة إلى أن الانفجار الديموغرافي الكندي سابق على الاكتشافات الطبية الكبرى.

بطء التزايد الديموغرافي الذي نحن ملزمون بإقراره لدى أجدادنا في العهد الحجري القديم، والذي نجده لدى جميع الشعوب المزاولة للقنص؟

«إن الأمر كذلك»، يجيب الإحصائيون، «فنحن نعلم بأن عدد السكان ينمو مع الموارد الغذائية».

وإذن، كيف نفسر كون هذه القاعدة الرائعة والغامضة للتزايد قد توقفت عن العمل في أيامنا فقط، وذلك في ثلاثة أرباع هذا العالم؟

ولو أننا تصورنا شيئاً آخر. مثلاً، عادات اجتماعية في التوازن الديموغرافي اكتُسبت وتم الحفاظ عليها ببطء وبمشقة وبألم خلال الـ ٤٠٠ قرن المشعة ذكاء، والتي سبقت العهد الحجري الجديد. لقد تراخت هذه العادات منذ ٧ أو ٨ آلاف سنة مثلما يسترخي النابض، وذلك نتيجة الاختراعات التي سمحت بمضاعفة القوت وخزنه. ومنذئذٍ، فإن الشعوب المعنية ستعرف نمواً مفرطاً يفوق ما كانت تنشده حتى. لكن هذا النمو العددي سيكون بنفسه عاملاً كبيراً مساهماً في القيام بالفتوحات والاختراعات.

وسيأتي يوم يتم فيه الالتقاء بـ «المتوحشين»، أي بالشعوب ذات التقليد الساكن[1]، وذلك بفضل البوصلة وبفضل كريستوف كولومبوس. وبطبيعة الحال، فإن اللقاء سيكون قاتلاً بالنسبة إلى هذه الشعوب؛ إذ ستجد نفسها من بعد، خارج حلبة الصراع.

في القرن العشرين، سيحدث انشطار مأساوي داخل السماط الكبير لـ «السكان المشجعين على الولادة»: وبالفعل، فإن جزءاً من شعوب العالم القديم، ومن المتحضرين الأوائل للكوكب الأرضي، ومن المستفيدين الأوائل من

(*) كرومانيون قرية صغيرة في محافظة الدرودوني.

(١) إني أفضل هذه العبارة على عبارات «تقليد باليوليتيكي» أو «يعيشون بالخصوص من القنص والصيد» أو «يمارسون الزواج الخارجي»، لأن الشعوب المعنية عرفت بشكل أو بآخر، في مرحلة متأخرة وبطريقة متفرقة، تقنيات العهد الحجري الجديد، وقد مارست في غالب الأحيان شيئاً من الزراعة وتربية المواشي ـ لكن ليس بالقدر الذي يمكنها من اجتثاث تقليد من الاحتراس الديموغرافي الذي يبدو لي مميزاً لها.

الانفجار الديموغرافي النيوليتيكي (الفرع البكر)، يتجه اليوم نحو المجاعة التي ولدها تقليدها في التناسل - بينما رجع جزء آخر من السكان أنفسهم (الفرع الأوروبي - الأمريكي، الفرع الأصغر)، بفعل سلسلة أخرى من الاختراعات[1]، إلى الاحتراس الديموغرافي لإنسان الكهوف.

المائة كيلومتر مربعة لعائلة باليوليتيكية

لم يكن أناس العهد الحجري القديم الأوائل بشراً بكل معنى الكلمة، ومن المحتمل أن يكون الرجال الأخيرون رجالاً ماهرين مضايقين بالمشاكل. ولكي نجد صورة الإنسان المنطلق لفتح العالم - آدم -، يجب أن نبحث عنها عند بدايات العهد الحجري الجديد ربما.

لقد كانت الأرض الجميلة لضفاف البحر الأبيض المتوسط لا تزال متوحشة، وكان المناخ رائعاً والتربة عذراء، حيث لم يكن الماعز والفلاحون والفراعنة قد بددوا ثروات الغابات، وحيث لم يكن من الممكن سوى زرع أفضل الطمي، ونحن نتصور بسهولة التحولات الهائلة التي قدمتها الزراعة وتربية المواشي في حياة الناس، والانطلاقة التي وهبتها عندئذٍ لآمالهم.

ومن أجل تصور ترتيب مقداري مقترح، لنذكر بالرقم الذي كان فيدال دولابلانش يحب تقديمه بصدد حقول الأرز في كمبوديا: إن هكتاراً كان يكفي إطعام عائلة. مقابل ذلك، يجب توفر مساحة أكبر بالنسبة إلى مستهلكي القمح في منطقة جافة، وأكبر فأكبر بالنسبة إلى الرعاة. لكن كيف سيتم لنا تقدير المساحة الضرورية لإطعام عائلة من القناصين المجداليين. وعلى سبيل المثال، لنعاين التقديرات التي تم وضعها بخصوص «القارات المتوحشة» قبل مجيء أناس العالم القديم: لقد كان هناك ساكن واحد في الكيلومتر المربع[2] في المنطقة الأكثر كثافة، أي في الساحل الشمالي الغربي لأمريكا.

لكن هذه المنطقة لم تكن آهلة، إلا أن سكانها كانوا يقتاتون بـ «طريدة»

---

(١) يتعلق الأمر بصناعة القرن ١٩ الكبرى.

(٢) غوردون تشايلد، **مما قبل التاريخ إلى التاريخ**، .N.E.F، ص ٦٧.

يستحيل إبادتها ـ اللهم إلا إذا استعملت تقنية صناعية ـ ونقصد بذلك حوت السلمون. وعلى مجموع الساحل الأمريكي للمحيط الهادئ، كان هناك ١٨ ساكناً في كل مائة كيلومتر مربع ـ وهنا أيضاً وجِد صيادون ـ وفيما يخص قناصي المراعي، فإن نسبة الكثافة تنخفض إلى النصف: ٨ أشخاص فقط في المائة كيلومتر مربع، وتصل هذه النسبة في قارة أُخرى (وهي أستراليا) إلى ساكنين اثنين في الألف كيلومتر مربع.

لقد انقلبت الضرورة الحيوية مع مجيء العهد الحجري الجديد، ذلك بأن الموارد، وانطلاقاً من هذه المرحلة، ستعرف تزايداً متناسباً مع تزايد البشر، وعلى مدى آلاف السنوات، لن تكون هناك أبداً سواعد كافية لحرث الحقول وفبركة المحاريث وحماية مخازن الحبوب أو الدفاع عن الماشية (لا يزال فلاحونا إلى الآن يقولون: سنذهب لحراسة الأبقار). أن يكون هذا التغير الجذري والمتمركز قد أثر على الطريقة التي كان أناس تلك المرحلة «يتمثلون» بها مجتمعاتهم، فإن ذلك يبدو محتملاً، لكنني أود إثارة الانتباه إلى أن هذا التحويل لا يمكن أن نعزوه إلى اختراع بدلاً من آخر، ولكن فقط إلى الصدمة التي مثلها، فوق مكان محدد، وفي زمان محدد: اقتران جميع هذه الاختراعات، وبالخصوص نتيجة هذا الاقتران المباشر تقريباً، وأقصد بها، التحول العنيف ضمن علاقة الإنسان بفضائه المغذي له[١].

ذلك بأننا نجد ـ في الواقع ـ مجتمعات توسعية، تمنع بقسوة[٢] تحديد

---

(١) منذ ١٩٣٨، وفي أثناء ملاحظتي الحاصلة في أقل من جيل لدى منتجعي الأوراس الجنوبي، كنت قد توصلت إلى النتيجة التالية، وهي أن السبب الأكثر تحديداً للتحول الاجتماعي كان يتمثل في كثافة السكان. ولقد حاضرت بمركز الـ CHEAM بشأن هذا الموضوع في الفترة بين مهمتي الثانية والثالثة، سنة ١٩٣٨.

(٢) يخبرنا فسترمارك «أن إسقاط الجنين وقتل الأطفال هما من الممارسات الجاري العمل بهما لدى الشعوب الرحّل. ويشكل الأطفال في سِن مبكرة عناصر إضعاف بالنسبة إلى أسرهم، ولربما كانت قاعدتنا إضافة إلى قاعدة أُخرى قريبة منها، مأخوذة هي أيضاً مما يسمى قوانين روميلوس المحرمة لتعريض الأطفال في سن مبكرة للخطر، هي عبارة عن ردود أفعال شعب زراعي ضد عادات سابقة».

ـ بيير نواي، **محظورات الزواج في قانون الرومان البدائي**، «الحوليات الاجتماعية» ـ سلسلة، كراس رقم ٢، ص ١١.

ـ فسترمارك، **أصل وتطور الأفكار الأخلاقية**، باريس، ١٩٢٨، ص ٤٢٠.

النسل، وتمارس الزواج الداخلي إلى حدود ارتكاب المحارم[١]، بل وتتجاوز هذه الحدود أحياناً، مجتمعات «عرقية ومحاربة تنتظم على شكل هالات حول المنطقة الغنية، حيث قاد الإنسان، ولأول مرة، قطيعاً، وحيث بذر حقلاً... وهو أمر واقع أيضاً، كون هذه المجتمعات هي أصل حضارتنا.

مقابل ذلك، فقد احتفظت الثقافات المسماة بدائية ببقائها، متفرقة في جميع أجزاء المعمورة الأُخرى؛ هذه الثقافات التي كان الإنسان يعيش خلالها من القنص والقطف أو من الفلاحة البدائية. وفي الأحوال كلها، داخل اقتصاد ساكن ـ وبحسب فرضيتي، فإن ثقافات مثل هذه، كان عليها أن تواصل بلا فجوات تقليد «الحفاظ على الأوضاع» الذي كان على ما يبدو لي، تقليد الإنسان العاقل إلى حدود الثروة النيوليتيكية وذلك بأن هذه الثقافات كانت مطالبة عن طريق نمط عيشها، بدراسة ومعاينة الحفاظ على توازن ذاتي. وأي توازن؟ إن لم يكن عملياً، تخطيطاً عائلياً وهيئة جنينية للأمم المتحدة... لنتمم المجتمعات الأُولى ـ مجتمعاتنا ـ «المجتمعات المشجعة على النسل»، وهي تقابل المرحلة الحاسمة لأول حضارة نيوليتيكية[٢]، ولنترك للمجتمعات الأُخرى اسم «المتوحشة». ومن بين التقنيات «المتوحشة» من أجل تحديد النسل، ومن أجل السلام العالمي[٣]، نستطيع إثارة مسألة حظر ارتكاب المحارم وتبادل النساء[٤]، لكن، وعلى الأرجح أيضاً، الزواج والزواج الأحادي[٥] بل والفضيلة حتى.

---

(١) انظر الفصل الثاني.

(٢) هذا لا يعني طبعاً أنه لم تكن هناك تقنيات نيوليتيكية لدى «المتوحشين»، ولكن يعني فقط أن التأثير الحاسم للمرحلة النيوليتيكية الأُولى قد تركز على العالم القديم.

(٣) في مجتمع خضع لتأثير العالم القديم، ولكن ظل نمط إنتاجه باليوليتيكياً (وهو مجتمع التوارث)، فإننا نجد ازدياداً «بدائياً» للمواليد، وأقصد بذلك عكس الازدياد «الطبيعي».

(٤) لقد أبرز كلود ليفي ستراوس في **البنى الأولية للقرابة** أن هاتين العادتين متكافلتان.

(٥) لقد كان هذا الموضوع مثار اندهاش الإثنولوجيين الأوائل أيضاً والذين سجلوا تكرار عدد حالات الزواج الأحادي لدى «متوحشيهم». وقد استنبط الأب شميدت (وهو أكبر خصم لمارسيل موس) من خلال ذلك، سوسيولوجيا أخلاقية. علاوة على ذلك، وفي حالة الحرب، فإن تبادل النساء أو الرجال كان، وإلى مدة قصيرة جداً، يمارس بانتظام عند الشعوب القديمة جداً، هذا على الرغم من الموقف «العرقي» الثابت لديها ـ وقد سُجلت العديد من الحالات القديمة لتبادل الرجال بين طايطوك وكيل غيلا (من نسب أميسي)، ويشير بارت إلى تبادلات للنساء بين الكيل أوي البيض، الذين يسميهم الفاتحين ذوي الوجوه الشاحبة، والأهالي السود لمنطقة التكوبر. ولقد توصلوا إلى إبرام اتفاقية تلزم رئيس =

وستكون هذه المؤسسات إذن قد استمرت في البقاء على أنقاض الأسباب التي ساهمت في وجودها. من جهة أُخرى، يجب إضافة أساليب تنظيم الولادات الأقل اعتباراً، وخاصة قتل الأطفال[1]، ولربما القرابين البشرية. أما بالنسبة إلى الإدامة (anthropophagie)، فلقد كانت بينة تماماً، وإذا لم نجد لها أثراً، فيجب علينا إن نتعجب لذلك، وأن نتحدث بجرأة كافية عن التحفيز الروحي.

وعلى العكس من ذلك، فإن السوسيولوجيا النيوليتيكية[2] (وهي سوسيولوجيا)، سيكون من مهماتها حظر التبادل والعودة إلى ارتكاب المحارم وتعدد الزوجات والحرب «العنصرية» والعبودية، ووسواس حقيقي تجاه البكارة النسائية[3] ـ من دون أن نسقط من الحساب سياسة تشجيع النسل التي نجدها في أغلب مجتمعات العالم القديم، وفي هذه المجتمعات فقط ـ ومن الممكن (لكن وليس من المؤكد) أن نضيف تفضيلاً بارزاً للأخذ بالثأر، وللنسب الأبوي ولامتيازات الابن البكر.

= أوي بألا يتزوج سوى امرأة سوداء واحدة (وأظن أن هذه المنطقة ذات نسب أبوي). ومن جهته، يخبرنا دوفيريي أنه حينما يلاحظ على بعض الطوارق النبلاء بأن لون جلدهم غامق، فإنهم يتذرعون بـ «السياسة» التي تدفعهم في حالة الهزائم أو الانتصارات إلى تقبل أو إهداء مجموعة من الفتيات العذراوات سنوياً. انظر دوفيريي، **طوارق الشمال**، باريس، شالاميل، ١٨٦٤.

(١) في أثناء الوضع، ينتظر الأب الذي يرتقب على مدى غير بعيد، أن تخبره القابلة بجنس الطفل. وتكون الإحالة مقتضبة: «اغسليه» أو «لا تغسليه». فإذا قال «اغسليه» فمعنى ذلك أن الطفل يجب أن يحيا. وقد يحدث في الواقع أن ميلاد فتاة داخل عائلة كثيرة البنات يؤدي إلى عدم الاحتفاظ بها. مارغريت ميد، **العادات والسلوك الجنسي في أوقيانوسيا**، بلون، ١٩٦٣، ص ٣١.

تصف لنا المؤلفة في هذا الكتاب مجيء مولود جديد عند الأرابيش، وهم شعب غينيا الجديدة.

(٢) لا يتعلق الأمر هنا بالعهد الحجري الجديد العالمي، ولكن بأول رحلة نيوليتيكية تموضعت في شرق المتوسط.

(٣) أتصور أنه يجب ربط القصة التالية ـ المبتذلة في شمال شرق البرازيل بالتقليد الايبيري، بدلاً من ربطها بالخاصية الجوهرية للهنود الحمر، وهي قصة كاثوليكي مؤمن تزوج للمرة الثانية من دون أن يطلق زوجته الأولى، لأنه اعتقد بإيمان عميق أن زواجه الأول ملغى، والسبب هو أن زوجته الأولى لم تكن عذراء (سانطو أندري، ١٩٦٣). ولقد ارتبك هذا الرجل المسكين الذي أخبرت بقصته كثيراً، واندهش حينما علم بأنه متزوج من امرأتين.

المجال الإنساني للبِنى القرابية ونمطان من ازدياد المواليد

إجمالاً، فإن الإنسان، ومنذ انبثاقه من الوضعية الحيوانية، قد عرف مرتين أرضاً واسعة أكثر مما ينبغي، وضيقة أكثر مما ينبغي كذلك.

لقد كانت واسعة أكثر مما ينبغي في أثناء العهد الحجري القديم الأسفل (منذ حوالى ألفي ألف سنة)، وضيقة أكثر مما ينبغي في أثناء مرحلة القناصين الكبار، المجداليين والأورينياسيين بل والموستريين [عشرون، ثلاثون، أربعون، ألف سنة]، ثم أكثر اتساعاً من جديد، عندما ولدت الحضارة مع العهد الحجري الجديد، منذ ٩ آلاف سنة. والآن، في هذا النصف الثاني من القرن العشرين، ها هي أكثر ضيقاً للمرة الثانية، نتيجة اكتشافات باستور وفلمينغ وآخرين.

وهذه الواقعة هي بكل تأكيد أهم واقعة في زماننا. إن الفرضيات هذه تتوافق مع الاستمرارية النسبية لحضارات العهد الحجري القديم الأعلى، ومع صخب المرحلة اللاحقة، وكذا مع وجود منطقتين عالميتين، تتميز كل واحدة منهما ببنيتها النموذجية. كما تسمح هذه الفرضيات بتفسير توزيع «البنية المتوحشة» على مساحة شاسعة بما فيه كفاية، ومنفصلة بالشكل الذي سيدفع دارسيها إلى تطبيق النظريات التطورية عليها. بينما في منطقة الحضارات الكبرى (المنطقة المجموعة)، فإن الاختصاصيين قد استدعوا بسهولة أكبر النظريات الانتشارية لدراسة وقائع من الصنف نفسه... كما تفسر أيضاً كون «المنطقة المتوحشة»، وضد كل منطق، هي التي فرضت على نفسها النظام القاسي وتعقيدات تبادل النساء والمحاصيل الزراعية، بينما في العالم القديم، حيث طورت الإنسانية بشكل كبير السمات التي تميزها ـ أقصد السمات التي تجعلها مختلفة عن الأنواع الحية الأخرى، باعتبارها نوعاً أصيلاً ـ فقد كانت هناك محاولة لتجنب هذه السمة «الإنسانية» في جميع المرات التي سنحت فيها الفرصة للقيام بذلك.

وباختصار، فإننا سنجد أنفسنا أمام عالمين مختلفين على مستوى أعمارهما، ولكن يحصل أن يكونا متزامنين أحياناً. إن كل عالم يخضع بقوانين فيزيائية خاصة به، فالأول، وهو عالم اجتماعي استاتيكي، يتميز ببقائه لمدة كبيرة على

مساحة شاسعة، وسيكون هذا العالم هو الذي تم صنعه من طرف قناصي العهد الحجري القديم، على مدى الثلاثين ألف سنة من عمر العهد الحجري القديم الأعلى، وسيكون هو أيضاً، ذلك الذي حافظ على بقائه في «العوالم الجديدة» حيث اكتشفه العلم في القرن ١٩، وأراد أن يرى من خلاله دفعة واحدة (وليس بدون حجج متينة)، مرحلة من الماضي المشترك لنوعنا البشري كله.

أما العالم الاجتماعي الثاني، فسيكون «عالماً في توسع». وهو أكثر تموضعاً من الأول لأنه يقابل «حدثاً»، أو بالأحرى سلسلة من الحوادث المتقاربة، والتي يدعوها غوردون تشايلد بحق «الثورة النيوليتيكية». وهو ما يعني أن هذه الحوادث يمكن تأريخها على الأقل بشكل تقريبي، كما يمكن تحديد مركز تشتتها الجغرافي: إنه يقابل العالم القديم.

فمن جهة، هناك سياسات الأمر الواقع التي تمت بلورتها، ضمن الثقافات الأكثر تطوراً لدى «المتوحشين» ـ أي عند الأناس الأذكياء الذين كانوا يعيشون فقط من القنص والقطف ـ. ومن جهة أُخرى، هناك سياسات مشجعة على النسل، مرتبطة بنموذج اقتصادي تكون فيه الإنتاجية نامية بشكل غير مجدد: وهو مجتمعنا الذي لا يزال قائماً إلى اليوم.

الوضعية النيوليتيكية تعيد إنتاج بعض مظاهر الوضعية الأكثر بدائية للإنسان

إذا قبلنا بالربط بين التطور البنيوي للمجتمعات وعلاقات الإنسان بفضائه المغذي له، فإننا سنلاحظ أن الوضعية النيوليتيكية أعادت إنتاج بعض المظاهر لوضعية أكثر قدماً بشكل لا يقدر: إنها وضعية العهد الحجري القديم الأسفل المحاطة بالظل الكبير لجهلنا. لكن يمكننا أن نتصور أن المجال المحيط بالحشود التي كانت مهددة دوماً بالانقراض، كان أكثر اتساعاً.

والحال أننا نعلم أيضاً بأن ظروف الحياة هذه والمشاعر التي تسببت في ولادتها (وهي بمفردها المشاعر البدائية الحقيقية للماضي الإنساني)، قد استمرت لمدة مئات الآلاف من السنين، وهي مدة شاسعة بحيث يجب بكل تأكيد، البحث في عمق هذه الليلة اللامحدودة، عن جذور ما ينعت بـ «الطبيعة الإنسانية».

من جراء ذلك، فإننا نحس بأن العديد من السمات النيوليتيكية هي أكثر «طبيعية»، أكثر «بدائية» وأكثر «تضييقاً» على حاجياتنا الأكثر غريزية على ما يظهر ـ وباختصار، الأقل «اجتماعية» ـ من سمات الحضارات المسماة متوحشة.

إن الأمثلة المتعلقة بالخاصية التضييقية والمعقدة لـ «الحضارات المتوحشة»، تتميز، من جهة أُخرى، بغزارتها في الأدبيات الإثنوغرافية، كما أن الإزعاجات التي أثارتها عند الأناس الذين فرضوها على أنفسهم، قد تمت ملاحظتها: وعلى سبيل المثال، فإن مايير فورتس[1] يصف لنا «الحقد الملاحظ باستمرار لدى الأشانتي من الجنسين ومن مختلف المراتب، تجاه التقييدات والإحباطات التي يردّونها إلى التقيد بقاعدة النَسَب الأمومي».

وفي الجهة الأُخرى من المحيط الأطلسي، عند الهنود الحمر، يشير كلود ليفي ستراوس إلى ردود الأفعال نفسها. وسنرى أيضاً في الفصل السابع (نزاع مع الله) أن طيبة الخاطر التي تم للطوارق من خلالها اعتناق بعض التعاليم الإسلامية، ترجع إلى نفورهم من مؤسساتهم السابقة. وفي هذا الأفق لما قبل التاريخ الاقتصادي، لن يعود أمامنا أي مجال للتعجب إذا ما سجلنا، كون بِنى كل عالم من بين هذه العوالم غنية من الجهتين بالتناقضات الداخلية. ذلك بأن التكاثر الإنساني (الذي نتج بالنسبة للعالم القديم من الاكتشافات النيوليتيكية) قد فرض عليه بحق التواصل الذي يرفضه ـ والتواصل معناه التقدم ـ بينما بقي نصف الكرة الأرضية الاجتماعي الآخر، نصف الكرة الأرضية «المتوحش» الذي ابتكر وأسس التبادل، عالماً للانعزالات الكبرى.

ويمكننا أن نفسر أيضاً داخل كل نظام من هذين النظامين مستبقيات العادات والطموحات ـ وهي تبدو كل مرة أكثر عتاقة ـ المنتمية إلى النظام الآخر المغاير.

ذلك بأننا نصادف في العالم القديم ـ الذي يمارس الزواج الداخلي عناصر

---

(١) مايير فورتس، «القرابة والزواج لدى الاشانتي»، ضمن المؤلف المشترك تحت إشراف راد كليف براون، ود. فورد، **الأنساق العائلية والزواجية في إفريقيا**، المنشورات الجامعية، ١٩٥٣، ص ٣٤٤.

بِنى اجتماعية لا يمكن فهمها إلا في إطار نظام يطبق الزواج الخارجي[1]. ولقد بحثت عن هذه العناصر بدقة في المغرب العربي، ويمكنني ذكر البعض منها[2]. إنها تبدو لي قديمة «باطنية بالنسبة إلى المجتمع»، وهي في قِدم واندماجية الوقائع المرتبطة بالزواج الداخلي. إلا أن هذه العناصر نادرة جداً، ومن الممكن موضعتها.

صحيح أننا إذا ما سلمنا بنظرية تطورية معينة، فإن هذه النظرية قد تسمح لنا بتصور مجتمع «متحضر» يخلف مجتمعاً «متوحشاً» ـ مع احتفاظه ببعض بصمات هذا الأخير.

وستكون الوضعية العكسية مثيرة للدهشة، ومع ذلك، فإن الملاحظ الواثق والحساس لـ «البنى الأولية» ـ تقصد المؤلفة هنا ليفي ستراوس (المترجمان) ـ قد فضل اختتام كتابه بذكر أسطورة اندامانية تتعلق بالحياة الأخرى: حيث يظل الجميع شباباً، حيث يجهل المرض والموت «وحيث لا أحد سيتزوج أو سيتم تزويجه». ويحدثنا الكاتب الفرنسي عن «حلاوة العيش التي يحرم منها الإنسان الاجتماعي دوماً، عن العالم الذي يمكن أن يعيش فيه بين الأهل»[3].

---

(١) كان مارسيل موس، وهو بصدد الحديث عن الزواج الخارجي، يحب ذكر الأمثلة التي أوردها هوبرت وكزارنوفسكي، والمتعلقة بالسلتيين.
«إن تاريخ موستر (Muster) يقدم لنا أسرتين ملكيتين وهما، Channa Darghthine وChanna Dairenne، تتناوبان على السلطة في كل جيل ويتم الزواج فيما بينهما، كما أنهما تحضنان أبناءهما بالتبادل (هـ. هوبرت، **الحضارة السلتية**، ألبان ميشيل، ص ٢٤٣).
ـ إن المؤسسة التي ترتكز على تربية الأبناء من طرف أقارب معينين تأخذ الاسم الأنغلو ـ نورماندي Fosterage، وقد استمرت طويلاً في البلاد السلتية، وتسمى L'altram في إيرلنده.
غير أن هنري هوبرت يذكر أيضاً سترابون (الناسخ لبيتياس Phythéas)، وسترابون يقول عن الإيرلنديين أنهم كانوا يتباهون بعدم معرفتهم لأمهم ولأختهم. (هوبرت، ص ٢٤٦) ـ انظر الفصل الثالث: «العيش بين الأهل».

(٢) **ابتعد عن دمك حتى لا يلطخك** (دراسة ستظهر قريباً).

(٣) يذكر ستراوس (مصدر سبق ذكره، ص ٥٦٧)، الأسطورة الاندامانية هذه كما وردت عند إ ـ هـ. مان: **عن الأهالي، سكان جزر الاندمان**، لندن، ١٨٨٣، ص ٩٤، ٩٥. ونجد في الأناجيل (متى ع٣٠ XXII، ومرقص ٢٦ XII ولوقا 35XX) إجابة المسيح الموجبة للصدوقيين (نسبة إلى الكاهن اليهودي صدوق ـ المترجمان)، والتي لا نجد لها أية إشارة للنص المذكور من طرف إ. هـ. مان في الترجمات الفرنسية. =

«العيش بين الأهل»، ذلك هو العنوان الذي قد يصلح لهذه الدراسة ـ وهذه هي الصيغة الملائمة للإرادة العنيدة التي نريد الآن اتباع أثرها في كل صفحة تقريباً ـ. ويبدو لي أن هذه الإرادة العنيدة ـ حيثما اصطدمت بمستحيلات ـ، هي التي حطت من الوضعية النسائية في حوض البحر الأبيض المتوسط برمته.

أما بالنسبة إلى الفرضيات التي قمنا بتفحصها، فإنه يمكن الاحتفاظ من بينها، قبل إدلافها في المعشبة الشاسعة للنظريات المتجاوزة، ببعض العناصر المتعلقة جميعها بالزواج الداخلي، والتي تبدو لي مؤكدة بما فيه كفاية، أو على الأقل محتملة.

بالنسبة إلى انتشار الزواج الداخلي أولاً: يبدو أنه كان ممتداً عند بداية التاريخ. وهو يوحي بأصل سابق على التاريخ، غير أن هذا الأصل القديم (الماقبل تاريخي بكل تأكيد) يبدو أقل قِدماً من أصل الزواج الخارجي.

لنسجل أيضاً غياب ارتباطه بعِرق أو لغة أو شعب أو حضارة معينة حتى، لكن رابطته الحقيقية قائمة مع مساحة جغرافية متجانسة متصلة، تقابل بالتقريب العالم القديم، وبالتقريب أقدم انتشار للعهد الحجري الجديد، وبالتقريب كذلك المنطقة التي كان فيها التناسل بمثابة واجب وطني. لنسجل أخيراً، الرابطة محتملة جداً بين الزواج الداخلي و«انفراج» ديموغرافي معين، بينه وبين تغير في العلاقة بين الإنسان ومجال تغذيته، إن ذلك يفسر الرابطة الثابتة بين الزواج الداخلي وبين سياسة مشجعة للنسل[1]، توسعية «عِرقية»، فاتحة... إن الفرضيات الأخرى لهذا الفصل ـ والمتعلقة بالإنسان العاقل والزواج الخارجي ـ ليست سوى محاولات للتفسير، وليست البتة، كما هو الشأن بالنسبة إلى سابقاتها، استنتاجات منبثقة من سلسلة طويلة من الوقائع الملاحظة. ورغم ذلك كله، فإنها تملأ مؤقتاً الفراغات التي تهيمن على التجربة الإنثروبولوجية،

= في المقابل، فإن الترجمة الإنكليزية قريبة بما فيه كفاية من النص المذكور، إلى الحد الذي يجعلنا نتساءل إذا لم تكن جملة الأناجيل هذه قد أثرت في إ. هـ. مان ـ أو الاندمان ـ، وعلى الأقل في الصيغة التي وصلتنا، إلا أن الجوهر يظل صحيحاً، وهذا هو المهم.

(١) إن المنطقة التي تمارس الزواج الداخلي تبدو ممثلة لجزيرة صغيرة محدودة جداً في الماضي، غير أن الحضارات التي تقابلها هي في طريقها نحو تغطية الكرة الأرضية برمتها.

أقصد بذلك التجانس المدهش[1] للنوع الإنساني في مجموعه.

وبطبيعة الحال، فأنا لا أعتبر بمثابة دليل، قبول التفكير في أن دماغنا هو نتاج لاختراع إنسان النييندرتال الفظ - وهي هدية لم نستطع تحسينها على الرغم من متاعنا العلمي كله.

---

(١) إن لدى كل مربي الحيوانات تجربة حول السهولة التي تخلق عن طريقها التغيرات العرقية داخل نوع ما، بشكل طبيعي أو اصطناعي: فالكلب الصغير لولو في منطقة بوميرانيا مثلاً، هو حفيد الذئاب الحقيقية للغابة الجرمانية، وهناك ١٠ آلاف سنة على الأكثر تفصل الكلب لولو عن أجداده المتوحشين.

يبدو والحالة هذه، أن الطفل الصغير لدى النوع الإنساني، يتوفر دفعة واحدة على استعدادات ممكنة تظهر متكافئة بشكل ملموس لدى كل الزمر العرقية. بعد ذلك - وفي وقت مبكر جداً - يتصرف الوسيط من أجل تنمية أو كبح هذه الاستعدادات، ومن أجل التمييز بين الرجال الصغار، ابتداءً من الطفولة الثانية.

الفصـل الثالـث

العيش بين الأهل

النبالة وارتكاب المحارم

من جبل طارق إلى قسطنطينة، على الضفة الشمالية للبحر (الأبيض المتوسط) وعلى ضفته الجنوبية، لدى المسيحي والمسلم، لدى الحضري والبدوي، لدى الآبدي والراحل، هناك حقيقة واقعية، وهي أن حساسية مثارة بشكل جماعي وفردي ترافق في كل مكان، وإلى حد الآن، نموذجاً معيناً للفظاظة الذكورية، وهي فظاظة تكتمل بتصور مأساوي للفضيلة النسائية.

إن الأمرين معاً يندمجان داخل كبرياء عائلي يرتوي بالدم ويعرض خارج ذاته من خلال أسطورتين وهما:

أسطورتا السلف والخلف ـ وترافق هذه العدة بشكل منتظم بما نسميه في «التعبير» السوسيولوجي، زواجاً داخلياً، يمكن أن يصل إلى حدود ارتكاب المحارم.

وإذا ما حاولنا التمييز على الضفاف الإفريقية والآسيوية للمتوسط بين المناطق التي يمارس فيها الزواج الداخلي حالياً، وتلك التي يرغب فيها بممارسته فقط، فإننا سنلاحظ أنه ضمن المناطق الأولى، توجد أغلب القبائل ذات الانتجاع الكبير والمتوسط والمجتمعات المتجذرة جداً لملاكي الأراضي، بينما المناطق الثانية، كانت تغطي وإلى حدود زمن قريب، أغلبية أجزاء التراب. نقول

---

(١) توجد في إفريقيا الناطقة بالبربرية مناطق لا تزال فيها آثار الزواج الخارجي (أقاليم الطوارق). ولربما الأطلس المتوسط والكبير والوارشينيس، وهي مناطق قليلة العدد مقارنة بالمناطق السابقة، كما أنها بعيدة عن المناطق الحيوية، وتبدو إلى الآن أكثر عتاقة.

أغلبية لا كلية، وهو أمر ينطبق على الماضي حتى[1]. واليوم، فإن التغير مؤكد في المناطق الغنية والصناعية، وهو في جهات أُخرى تغير ظاهري أحياناً: وبالفعل، في إمكاننا منذ جيلين أن نصادف مثقفين مغاربيين يثورون ضد القواعد البالية، ويؤكدون عن طيب خاطر أن هذه القواعد لا تطبَّق عندهم، ما داموا لا يرغبون في تطبيقها. ونسجل في المكان عينه وجود نزاعات عائلية حالية، بما في ذلك لدى أكثرهم إقناعاً، بين تقليد الزواج الداخلي والنزعة الفردية. وقد رأينا في الفصل السابق أن إرادة الزواج الداخلي هذه تبدو مرتبطة بمجتمع توسعي، وهي تسمح بتحديد منطقة من العالم، ستواجه من خلال بِنى أساسية ذلك النصف الآخر من الكرة الأرضية، حيث اكتشف في أثناء القرون الخمسة الأخيرة الأناس الذين يطلق عليهم اسم «المتوحشين»[2].

إن هؤلاء الأناس ينتمون، بشكل حضري تقريباً، إلى شعوب تجاهلها «الأقدمون»، غير أن هذا التجاهل لم يكن محض مصادفة إذا ما قبلنا نحن فرضيات الفصل السابق. وبالفعل، فقد ظهر على وجه السرعة، وأمام الاندهاش الكبير لمنظري الإثنولوجيا الأوائل، بأنه بقدر ما يكون مجتمع ما «بدائياً» (بحسب المصطلح المستعمل إلى حد اليوم)، بقدر ما يكون معقداً. وما هو أغرب من ذلك كثيراً هو أننا نجد ـ غالباً ـ لدى هؤلاء «المتوحشين»، هؤلاء «البدائيين»، تضايقاً مؤكداً من تعقيداتهم الخاصة، وحنيناً إلى البساطة لا يروى غليله.

ومن بين النظريات الأنثروبولوجية القابلة لتفسير جدول رحب جداً من الظواهر، هناك نظرية تتموضع أكثر من غيرها داخل منظور موضوعنا: إنها تلك التي يدافع عنها كلود ليفي ستراوس في مؤلَّفه **البنى الأولية للقرابة**.

يعرف ستراوس أحسن من سواه التناقضات التي يقدمها البحث الإثنوغرافي، خصوصاً إذا ما اتسع ليشمل العالم الأرضي برمته. لهذا السبب حدد بعناية مساحة دراسته. لنقل، كي نبسط الأمر، أن هذه الدراسة تتفحص بطريقة حضرية، «العوالم الجديدة» التي سبق أن عرفناها.

---

(١) انظر الفصل الثاني.
(٢) ستراوس، **البنى الأولية للقرابة**، ص ٤٠.

وحلل ستراوس في هذا الإطار قواعد الزواج، وأقام الدليل بشأنها على أن حظر ارتكاب المحارم ـ وهي واقعة عالمية ـ يرتبط بدقة بضرورة تبادل النساء، وهي مرحلة أساسية في التواصل الإنساني. ويحدد ستراوس إرادة أو ضرورة التواصل هذه باعتبارها أساسية ـ وهي كذلك بكل تأكيد ـ لكن في إمكان التواصل أن يصبح ضرورة للتقدم، ضرورة للحضارة بل وضرورة للإنسان الفرد، من دون أن يقابل بذلك إرادة للمجتمع مصوغة بدقة وواعية. والواقع، إن تبادل النساء في المجتمعات «المتوحشة»، يخضع، مع ذلك، لقوانين صريحة.

والحال أن هناك مجتمعات أُخرى ـ وبالتدقيق تلك التي تشكل موضوع هذه الدراسة ـ حيث الوضع معكوس تماماً: فإذا ما تمت مصادفة التبادل داخلها (ومن الطبيعي أن تتم مصادفته)، فإن هذا التبادل سيكون على الرغم من إرادة اجتماعية مصرح بها في كل مكان.

حظر التبادل

أكيد أن الزواج من بعض الأقارب محرم في المغرب العربي حالياً، لكن القاعدة هذه عامة في العالم، وهي تحتمل اختلافات كبيرة على مستوى التطبيق.

وحينما يمثل حظر ارتكاب المحارم كواقعة «بدائية»، فإنه يقصي من مجموع الأزواج الممكنين صنفاً كلياً من الناس ليسوا بالضرورة أقارب بحسب تصورنا، ولكنهم يحملون الاسم نفسه ويتنادون فيما بينهم بـ «أخ» و«أخت» ـ مثلما هو شأن ذلك الفييتنامي الشاب من نجود ميونغ العليا، والذي روى لنا جورج كوندومينا[1] انتحاره الناجم عن خجله من اعتباره متهماً بارتكاب المحارم: فقرينته كانت تنتمي إلى نَسَبه الأمومي، لكن قرابتها له لم تكن قائمة إلا في إطار الدرجة الثلاثين. وعلاوة على ذلك، فلقد كانت أرملة، وهو ما يعني في كل مكان تقريباً، أنها كانت «جاهزة».

ويعد الحظر الذي يأخذ بعين الاعتبار أساساً القرابة الطبيعية، مخالفاً للحظر السابق. فهو لا يمنع الزواج سوى بين الأقارب القريبين جداً، ويتعلق

---

(١) ج. كوندومينا، **لقد أكلتنا الغابة**، ميركور دوفرانس، ١٩٥٧، ص ١٠٦.

الأمر في هذه الحالة، بتدبير يكون الدافع إليه وقاية صحية أو أخلاقاً قديمة نسبياً، وهو تدبير لا يزال مرتبطاً بنا (لهذا السبب نسميه باختصار، وفضلاً عن ذلك: الأخلاق).

والحال أننا عندما نتكلم على المغرب العربي، لا يجب أن يغيب عن أذهاننا أن «أخلاقنا» تجد فيه أسسها القديمة جداً، وأننا حينما نتكلم على المشرق، فإننا نجد أنفسنا في المكان ذاته الذي يشكل مهد هذه الأخلاق. وهو ما يعني أن من الواجب علينا إذن، رؤية أفكارنا الخاصة، أفكارنا الحالية، باعتبارها قابلة لأن تكون «أركيولوجية» عند الاقتضاء ـ وأقصد بذلك أن تكون قادرة على تشكيل عنصر ضمن الجوهر، وأن تبدو لنا حينئذٍ، وبناءً على ذلك، نصف مرشوشة بغبار القرون.

وحينما نتفحص في وسط مغاربي عتيق عادة اتخذت الديانات التوحيدية الكبرى قراراً بصددها، فإنه من الأفيد بالنسبة إلينا، ألا نتفحص هذه العادة منعزلة، ولكن دوماً بموازاة التشريع الديني للبلد المعني ـ وسواء أكان هذا التشريع مسيحياً أم إسلامياً، فإن الأوالية تظل واحدة ـ.

إننا نكتشف عندئذٍ أن الدين حينما يحوي لحسابه عادة سابقة على وجوده، فإن الممارسة ستعزز التشريع بلا تغيير. وعلى عكس ذلك، حينما يتعارض الدين مع العادة، فإن تقدير المخالفات الدينية قد يعطينا أهم المؤشرات حول تجذر العادة المعنية. وعلى سبيل المثال، فإن القرآن الكريم يعلن أن الصلاة هي أول فريضة يجب على المؤمن القيام بها، وهو يضع هذه الفريضة قبل واجب صيام رمضان، والقرآن الكريم يشير إلى الحجاب بشكل عرضي، ولكنه لا ينصح بوضعه إلا لنساء عائلة الرسول عليه الصلاة والسلام، وهو لا يقوم بأي تلميح فيما يخص الختان. طبعاً، إن جميع المسلمين يعتبرون القرآن كتاباً كاملاً، ومع ذلك، فإننا نراهم يمثلون من دون استثناء لعادة الختان ـ وهي عادة سبق أن كانت قديمة[1] في الوسط الذي تمارس فيه اليوم بأكثر من ألف سنة قبل ميلاد الرسول عليه الصلاة والسلام ـ، ونراهم يتخلون (بصعوبة) عن الحجاب ـ وهو أيضاً أقدم من الإسلام ـ، كما نراهم يولون اهتماماً كبيراً، وبأعداد كبيرة،

---

(١) انظر فيما يتعلق بمسألتي الختان وتحريم لحم الخنزير، ص ٩٧ ـ ٩٩ من الكتاب.

للصيام. مقابل ذلك، فإنهم يعتبرون أنفسهم مسلمين جيدين، رغم أن أقدامهم لم تطأ قط تقريباً أبواب المسجد، ورغم أنهم لا يعرفون في الغالب كيفية أداء صلاتهم.

إن أية قاعدة اجتماعية ليست ظاهرياً أقدم من حظر ارتكاب المحارم، ومع ذلك، ففي هذه المرة، تظل ممارسة «ساكني ضفاف البحر الأبيض المتوسط النبلاء»، ولا تزال إلى اليوم، مجانبة للتشريع الديني، بل ويمكن أن نصادف لديهم زيجات بين العم وابنة أخيه، وقد يحدث ذلك بين اليهود المتمسكين بشعائرهم الدينية، وبين مسيحيي لبنان العرب ـ القدماء ـ وبين بعض المسلمين على حد سواء.

ومن خلال هذا الصنف من الاقتران الممارس من طرف جميع الأقليات الدينية المتوسطية، تحاول الجماعات الصغيرة المحاطة بالأمواج الصاخبة للديانات الكبرى ذات الأغلبية، الحفاظ على اختلافها.

لكن ليست هذه هي الحالة التي يشير إليها فرنسيس نيقولا (لدى طوارق تامسنا) والذي كتب ما يلي: «يوجد المنع الجنسي بين الإخوة والأخوات من الأب نفسه[1]، ولا يوجد بين الإخوة والأخوات من ناحية الأم، ويمكن للرجل أن يتزوج من عمته أو خالته، كما يباح الزواج بين أبناء العم الأشقاء من الدرجة الأولى». إن الأمر والحالة هذه، يتعلق باتجاه معاكس بشكل محتمل. وبالفعل، فإن الطوارق جميعهم يميزون بين «بنات العم المتصالبات» (بنات الأخوال والعمات) واللائي يعتبرن كحليفات لا كقريبات، وبين «بنات العم الموازيات» (بنات الخالات والأعمام)، وتسمى الأخيرات «أخوات»، وتعاملن بشكل أخوي. إن الطوارق يثمنون مع ذلك الزواج بـ «بنت العم ـ الأخت»، لكن فقط من جهة الأم، لأنهم ينكرون على العموم الزواج بـ «بنت العم ـ الأخت من جهة الأب» [وهو زواج يوصى به في شمال الصحراء مثلما يوصى به لدى عرب المشرق].

إن ضرورات الإرث عند طوارق الهجار تفرض أحياناً زواجاً بين العم

---

(١) فرنسيس نيقولا، **تامسنا، يولامدين الشرق أو طوارق كيل دينيك، دائرة طعاوا مستعمرة النيجر**، باريس، المطبعة الوطنية، ١٩٥٠، ص ٢١٣.

وابنة أخيه، بين العمة وابن أخيها. لكن ارتكاب المحارم بين الأب وابنته يرتب في خانة «جنوحية» (لا ينبغي مع ذلك إهمالها أبداً حينما تقوم بفحص مجتمع معين، لأننا جانحون بهذا القدر أو ذاك، وبحسب الزمان والمكان، بالنسبة إلى الجريمة نفسها)[1].

ملوك مصر

قبل المسيحية وقبل الإسلام، لم يكن ارتكاب المحارم مباحاً فقط، بل من الممكن القول إن الدافع إلى ارتكابها لدى المصريين القدامى، كان هو التقوى أو احترام التقاليد. وها هي على سبيل المثال بعض التفصيلات العائلية المتعلقة بثلاثة ملوك[2] من الأسرة المالكة الثامنة عشرة.

توفي الفرعون أمينوفيس الثالث سنة ١٣٧٢ قبل الميلاد. ونحن نعرف أسماء العديد من نسائه والتي كانت الملكة تيبي من أقربهن إلى قلبه، ومع ذلك فإن هذا لم يمنعه من أن يتزوج ساتامون، ابنتهما من صلبهما.

بعد أمينوفيس الثالث، تولى ابنه البكر أمينوفيس الرابع الحكم، وقد غيّر هذا الأخير اسمه بتغيير ديانته، وهو معروف عند محبي الفن خصوصاً، بكونه زوج نفرتيتي الفاتنة. وقد رُزق منها بعدة بنات، زوج كبراهن (مريتاتون) لأخيه سمينخيري. وتزوج هو بنفسه أصغر بناته أنخسنباتون، التي لا يتعدى عمرها ١١ سنة، ورُزق منها سريعاً «بنتاً ـ حفيدة» اسمها تاشيري.

ويبدو أن أمينوفيس الرابع عاش في المرحلة الأخيرة من حياته منفصلاً

---

(١) لقد حدث سنة ١٩٥٠ في دجانيت أن رجل دين كان متعوداً على زيارة النساء الوحيدات في القرى التي كان يمر منها من أجل جمع الصدقات. انتبه بنوع من الذهول وفي وقت متأخر جداً إلى أن من بين تلك النساء اللواتي جامعهن، توجد ابنته من صلبه، ولقد كان مضطراً إلى التكفير عن فعلته عن طريق الصدقات، وأن يطلب العفو، كما أقيمت صلاة جماعية لأجل ذلك. وتعتبر حالة هذا الدرزي شبيهة في استثنائيتها بالواقعة السابقة، حيث جاء لاستشارة فقيه من مسكارة سنة ١٩٢٥، سائلاً إياه: «هل يُسمح شرعاً بأكل تفاح الشجرة التي غرسناها»، وقد كان جواب الفقيه: «نعم». فقام الرجل، الذي أصبح مدعماً بهذا الجواب، بتزوج ابنته بكل طمأنينة.

(٢) مدام ديروش نوبل كور، **حياة وموت فرعون**، هاشيت، ١٩٦٥؛ انظر خصوصاً ص: ١٢١، ١٦٣، ١٦٧، ١٦٨، ١٧٠، ٢٧٧.

عن زوجته الرئيسية نفرتيتي، لكنه مقابل ذلك، ارتبط بعلاقة حميمة غريبة مع «أخيه ـ صهره» سمينخيري: لقد جسده إلى جانبه في وضع يعتبره الكثير من علماء المصريات وضع زوجين، ومنحه أحد الأسماء المخصصة قبلاً لنفرتيتي[1]. إن المومياء التي يعزوها الاختصاصيون على الأرجح إلى سمينخيري، تشخص أميراً لا يتعدى عمره ثلاثاً وعشرين سنة، متمسكاً بالطقوس التي دشنها أمينوفيس الرابع، وله جمجمة بحجم جمجمة توت عنخ آمون، وهي ثلاث وقائع تجعل النسبة مقبولة ـ. وعلى أية حال، فإن الجسم الذي هو جسم رجل، يمثل حوضاً مظهره أنثوي، وهو مدفون داخل تابوت حجري نسائي، وفي وضع الزوجات الملكيات: أي أن الذراع الأيسر يكون منثنياً على الصدر، والذراع الأيمن يكون ممدوداً على طول الجسم. بعد موت أمينوفيس الرابع و«أخيه ـ صهره ـ أرملته»، سيصبح أخو هاتين الشخصيتين، وهو طفل في التاسعة من عمره، ملكاً تحت اسم توت عنخ آمون، وسيتم تزويجه في الحال بابنة وزوجة أخيه أنخسنباتون الصغيرة، التي هي في الوقت نفسه ابنة وأرملة أمينوفيس الرابع.

إنهما لم يرزقا بأطفال أحياء، وحينما توفي توت عنخ آمون، فإن «أرملته ـ ابنة وزوجة أخيه» ستتولى بعده الحكم. وهذه الأخيرة كانت مؤهلة لتوريث الحكم فقط وليس لممارسته، ولهذا السبب كان عليها أن تتزوج ثانية، وعلى الفور، موظفاً هرماً وهو الوزير الأعظم آي. ويبدو أن هذا الأخير، كان في الوقت نفسه جدها وخالها الأكبر، لكن من جهة النساء هذه المرة. (وبالفعل، يُعتقد أن آي كان شقيق تيي جدة أنخسنباتون من أبيها ووالد نفرتيتي الجميلة، أم الملكة الصغيرة). بعد ذلك بألف عام، سنجد على عرش مصر عائلة يونانية ستحكم لمدة ثلاثة قرون: لقد كان جميع الملوك المنحدرين من هذه السلالة يدعون بطليموس، والملكات كلهن تقريباً كن يدعين كليوباترا. ولقد عاشوا

---

(١) في الصفحات التالية سنجد قصة أحد ملوك سيراكوزة الذي زوج ابنه من إحدى بناته. وبحسب لوي جرني، فإن الحافز لهذا الزواج كان هو فرض هذا الابن وارثاً للملك (فأمه لم تكن من سيراكوزة بينما الفتيات اللواتي رُزقن من زواج آخر كن سيراكوزيات من أبيهن وأمهن). والحال أن أمينوفيس الرابع حاول أيضاً فرض أخيه سمينخيري وارثاً له، خصوصاً بعد تزويجه كبرى بناته، وهو ما يمكن أن يشكل تفسيراً لوضعه الغريب.

(٢) أما التفسير الآخر، فقد يرجع إلى الجمال النادر الذي تكشف عنه صُوَر الأخ الأصغر.

جميعهم ـ رجالاً ونساءً ـ حياة مأساوية تبدو لنا، علاوة على ذلك، إجرامية. لكن في الوقت نفسه، فإن حياتهم تبدو متشابهة فيما بينها بشكل غريب إلى الحد الذي تصبح فيه لفظة «إجرام» خالية من كل معنى.

لقد ولد مؤسس الأُسرة الحاكمة، وهو رفيق الإسكندر، في مقدونيا سنة ٣٦٠ قبل الميلاد. ورغم الأصل الأوروبي الذي يدعيه جميع أفراد هذه الأُسرة، فإن الملك الثاني من الأُسرة الحاكمة هذه، وهو بطليموس الثاني، سيدشن أسلوباً سيتمسك به خلفه: فعند اعتلائه العرش (سنة ٢٨٣ قبل الميلاد)، عمل على اغتيال اثنين من إخوته وتزوج إحدى أخواته.

وابنه بطليموس الثالث لن يتزوج سوى ابنة عم شقيقة لن يقوم بقتلها، لكن حفيده بطليموس الرابع يشتبه في كونه سمم أباه من أجل أخذ السلطة، وقد أمر، مباشرة بعد توليه مقاليد الحكم سنة ٢٢٢ قبل الميلاد، بقتل أمه وأخيه وأخته ـ زوجته أرسينوي.

ولقد تزوج بطليموس السادس أخته أيضاً (سنة ١٧٢ قبل الميلاد)، لكنه اضطر إلى إشراك أخيه وزوجته في الحكم، وحينما توفي بعد ست وعشرين سنة، فإن ثمرة زواجه، وهو بطليموس السابع، سيعلن لوحده ملكاً من طرف أمه.

وكان لبطليموس السابع عم ـ وهو العم الذي قبل بطليموس السادس بإشراكه في الحكم ـ سيتزوج الملكة الأم، أي أخته وأرملة أخيه في الوقت نفسه. وفي يوم الزفاف (سنة ١٤٦ قبل الميلاد)، قام بقتل ابن أخيه وربيبه، واستولى على مقاليد السلطة تحت اسم بطليموس الثامن، من دون أن يلاقي، على ما يبدو، أية مقاومة، بعدها طلق أخته، وهو ما أثار حفيظة رعيته.

هل كان يهدف إلى استرداد مجده المفقود حينما تزوج ابنة أخته وأخيه في الوقت نفسه؟ هل كان يريد الانتقام من أخته ـ زوجته حينما قتل أحد أبنائهما؟ أم أن ذلك كله كان يشكل جزءاً من نظام؟ ومع ذلك، فإن الأخ والأخت سيتصالحان فيما بعد، وسيشرك الملك أحد أبنائه ثمرة زواجه الأول (وهو بطليموس التاسع) في الحكم، لكن وارثه في السلطة سيكون ولده من ابنة أخيه وأخته، وهو الذي سيصبح بطليموس العاشر.

ومثل سابقيه، تزوج بطليموس العاشر أخته، وتم خلعه من طرف أخيه

الأصغر (بطليموس الحادي عشر)، إلا أنه سيرد عرشه فيما بعد. وقد رُزق بنتاً من أخته ـ زوجته كليوباترة، التي سيطلقها والتي ستتزوج ثانية خارج المحيط العائلي. وقُتل بطليموس الحادي عشر من طرف أخت ثانية (كانت تسمى أيضاً كليوباترة). وبعد مرور عام واحد، قُتلت الأخت الثانية من طرف زوج أختها (وهو الزوج الثاني للأخت البكر)، وستتزوج أخت ثالثة لأخ ـ الملك، وحينما توفي هذا الأخير، استولت بنت إحدى الأخوات السابقات على الحكم.

ونظراً إلى عدم وجود أخ لها، تزوجت ابن عمها اللح بطليموس الثاني عشر.

بعد فترة وجيزة من زواجه، سيقوم هذا الأخير باغتيال زوجته، وسيتم قتله من طرف شعبه، وهذا الملك لم يترك ولداً. وهكذا سيأخذ السلطة بعده ابن غير شرعي لبطليموس العاشر، وهو بطليموس الثالث عشر، وقد طرده شعبه وعوضه باثنتين من بناته، ثم توفيت إحدى البنتين، في حين قُتلت الأُخرى على يد أبيها الذي استرد عرشه. وعن طريق الوصية، سيترك بطليموس الثالث عشر التاج لابنه البكر، وهو بطليموس الرابع عشر مناصفة مع ابنته الثالثة. وقبل زواجه، توفي بطليموس الرابع عشر من جراء حادث، وقد جاء بعده أخوه الأصغر بطليموس الخامس عشر الذي تزوج أختهما واغتيل من طرفها.

وكانت هذه الأخيرة تسمى كليوباترة ـ مثل جداتها وعماتها ـ وقد أغوت الجنرالات الرومانيين، وحاكت الدسائس وحكمت وماتت. وهي على عكس سابقاتها، اشتهرت ولم تُنس.

بطريركات بني إسرائيل

في فلسطين، وفي المرحلة التي يصفها لنا سفر التكوين، هناك تمييز بين الأخت من الأب والأخت من الأم، وتعتبر الأُولى بمثابة زوجة ممكنة. إن نبي الله إبراهيم عليه السلام، الذي انحدر منه اليهود والعرب، يقول بصدد زوجته سارة[1]: «إنها حقاً أختي، ابنة أبي، ولكنها ليست ابنة أمي، ولذلك أصبحت زوجتي».

---

(١) **سفر التكوين**، ٢٠ ـ ١٢.

ولا يجد العهد القديم في هذا الزواج ما يمنع تحريمه[1]. مقابل ذلك، فإنه عندما يسير إلى اغتصاب لوط النبي العجوز ـ عليه السلام ـ ابن أخ إبراهيم ـ خليل الله ـ من طرف ابنتيه، فإن موافقته على مثل هذا الفعل لا تبدو واضحة وضوح موقفه الأول، وإليكم النص المعني:

«صعد لوط من كوار واستقر بالجبل مع ابنتيه لأنه كان يخشى البقاء بكوار. وقد نزل بكهف هو وابنتاه. وقالت الكبرى للصغرى: 'إن أبانا بلغ من الكبر عتياً، وليس هناك في البلد رجل يمكنه أن يجامعنا بالطريقة العادية. أقبلي، ولنسق أبانا خمراً ثم لنضاجعه، وهكذا يمكننا أن نرزق بذرية من أبينا'. فسقتا أباهما خمراً تلك الليلة، وجاءت البنت الكبرى، وامتدت إلى جانب أبيها الذي لم ينتبه لا لرقادها ولا لنهوضها. وفي الغد قالت الكبرى للصغرى: 'لقد نمت البارحة مع أبي، لنسقه خمراً هذه الليلة أيضاً، واذهبي لتنامي معه، وهكذا يمكننا أن نرزق بذرية من أبينا'. وسقتا أبيها خمراً تلك الليلة أيضاً، وذهبت البنت الصغرى لتمتد إلى جانب أبيها الذي لم ينتبه لا لرقادها ولا لنهوضها. وأصبحت بنتا لوط حاملين من أبيهما. وقد وضعت الكبرى ولداً سمته مؤاب، وهو جد المؤابين الحاليين، ووضعت الصغرى أيضاً ولداً سمته بن عمي، وهو جد بني عمون الحاليين[*]».

هذه القصة التي تبدو لنا فاضحة، ستصبح أقل إثارة للاستنكار إذا ما قارناها مع ما تبديه لنا الضرورات الاجتماعية لتلك المرحلة، ضمن مقاطع أخرى لسفر التكوين. وحينما رأى إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن أعز أبنائه (وهو الوحيد الذي كان ثمرة زواجه من أخته) قد بلغ سن الزواج، أرسل خادماً أميناً

---

(١) عندما اغتصب آمون بن داود، ثمانية قرون فيما بعد، أخته تمار من أبيه، عاتبته الأخيرة على عنفه اتجاهها، قائلة أنه كان بإمكانه طلب يدها من أبيهما (الكتاب الثاني لصموئيل، ١٢ ـ ١٢). وقد منع هذا النوع من الزواج فيما بعد. انظر Levitique: لاوية، من لاوي، وهو عضو من قبيلة ليفي نذر نفسه لخدمة المعبد (المترجمان)، ٩ ـ ١٨ و١٧ ـ ٢٠.

ـ Deutéronome ٢٢ ـ ٢٧، الصفحات ١٥٤ إلى ١٦٦ من العهد القديم، تحقيق وترجمة لوي سوكند، باريس ١٩٢٩ (المترجمان).

(*) لسنا في حاجة إلى التذكير بأن التعامل مع النصوص التوراتية يجب أن يتم بحذر شديد، وذلك نظراً لما تعرضت له هذه النصوص من بتر وتشويه، جعل العديد من الأحداث المذكورة بعيدة تماماً عن الحقيقة والواقع (المترجمان).

إلى مسقط رأسه، ليبحث هناك عن فتاة عذراء لابنه، منحدرة من نسبه الأبوي. وحينما وصل الأمين إلى المكان المنشود كرر أقوال سيده[1]: «ويل لك إذا لم تذهب إلى منزل آبائي إلى عائلتي، ولتختار امرأة لابني». وستكون المرأة المختارة ربيكا، حفيدة أخي إبراهيم عليه السلام. ورزق إسحاق وربيكا ولدين توأمين. وقد باع الابن البكر عيصو حقه في البكورية للابن الأصغر الذي سيتلقى التبريك، وهو الذي سيواجه مباشرة أيضاً، مشكلة «الزواج الداخلي»، ذلك بأن عيصو [ويُعرف عند العرب القدامى تحت اسم العيص (المترجمان)]، كان قد تزوج امرأتين أجنبيتين (حثّيتين) قالت أمه عنهما[2]: «لقد سئمت الحياة بسبب بنات حيث».

من جهة أُخرى، فهم عيصو، حينما ذهب أخوه يعقوب إلى بلاد إبراهيم عليه السلام ليبحث عن زوجة، «أن بنات كنعان لا يحظين بتقدير أبيه إسحاق»[3]. وهكذا ذهب عيصو إلى عمه إسماعيل للبحث عن زوجة ثالثة، وستكون هذه الأخيرة هي ابنة عمه اللحّة.

في أثناء ذلك، استمر «الابن المبارك» يعقوب في بحثه عن زوجته داخل النسب الأبوي.

ووصل يعقوب إلى مسقط رأس جده إبراهيم عليه السلام، ووجد خاله لابان (لا يفوتنا أن هذا الخال هو حفيد أخ لإبراهيم، أي أنه في الوقت نفسه عم يعقوب من جهة أبيه).

وقد خدم يعقوب خاله سبع سنوات ليحصل[4] على ابنة خاله راحيل، التي أحبها من أول نظرة.

وفي ليلة الزفاف وجد يعقوب نفسه، وبشكل مفاجئ، متزوجاً الأخت

---

(١) **سفر التكوين**، ٢٤ ـ ٣٨.

(٢) **سفر التكوين**، ٢٧ ـ ٤٦.

(٣) **سفر التكوين**، ٢٨، الآيات ٦ ـ ٧ ـ ٨ ـ ٩.

(٤) لقد أدى يعقوب ثمن سبع سنوات من الخدمة لخاله، وسيعطي هذا الأخير لكل واحدة من بناته، ليلة الزفاف، «خادمة» [وهو ما يمكن أن يعني «أَمَة»].
ـ **سفر التكوين**، ٢٤ ـ ٢٩.

الكبرى ليئه[1]، وكان عليه أن يخدم خاله سبع سنوات أُخرى للحصول على الصغرى.

ملوك هند ـ أوروبيون

نجد في الضفة الأُخرى للبحر الأبيض المتوسط التمييز ذاته بين الأخت من الأب والأخت من الأم، خصوصاً ضمن واقعة في حياة طاغية من القرن الخامس قبل الميلاد، وهو دونيس القديم. لقد تزوج هذا الأخير امرأتين في اليوم نفسه، وكانتا معاً من أصل نبيل، غير أن واحدة منهما كانت من سيراكوزة بينما كانت الأُخرى من أصل أجنبي، أي من حاضرة أُخرى: والذي حدث أن الزوجة ذات الأصل الأجنبي رُزقت ولداً، بينما رُزقت الزوجة الأُخرى بنتين.

وقد سجل لوي جيرني سلسلة من الروايات المتطابقة، تجعلنا نميل إلى الاعتقاد أن بنتي الطاغية، ونظراً إلى الجنسية السيراكوزية لأمهما، تبدوان لمن عاصرهما أكثر «شرعية» من الابن. والحقيقة أن دونيس الشاب هو الذي تولى الحكم فعلاً بعد أبيه على رغم أنف أولئك الذين سيصبحون من رعاياه[2].

وباختصار، قام دونيس القديم، وعندما كبر أبناؤه، بتزويج ابنته الكبرى لابنه، لتبرير طموح هذا الأخير إلى العرش، بينما زوج ابنته الصغرى لأخيه، وعندما أصبحت هذه الأخيرة أرملة، تزوجت مرة ثانية، وقد كان زواجها في هذه المرة بخالها. «بأثنيا[3]، ولربما بجزء كبير من اليونان، يمكن للمرء أن

---

(١) **سفر التكوين**، ٢٤ ـ ٢٥ ـ ٢٦ ـ ٢٩، «وجمع لابان أهل المحل وقدم وليمة».. «وحينما أتى الصباح كانت ليئه هي الموجودة، وقال يعقوب للابان: 'ما الذي فعلته بي؟ ألم أخدمك من أجل راحيل؟ لماذا خدعتني'؟ وأجاب لابان: 'ليس من العادة في منطقتنا تزويج البنت الصغرى قبل الكبرى'».
لنسجل بهذا الصدد أن المنطقة المعنية تمتد إلى المحيط الأطلسي، وقد عرفت شخصياً العديد من أشباه «لابان» المعاصرين في المغرب العربي، حيث لا تزال مسألة تزويج الأخت الصغرى قبل الكبرى إلى اليوم، منافية للعادات. ومن جهة أُخرى، فإن العهد القديم مليء بالتعاليم التي تهدف إلى إجبار الفتيات والفتيان على إكثار النسل.

(٢) لوي جيرني، **زيجات الطغاة**، تكريم لوسيان فيفر، جدول التاريخ الحي، كولان، ١٩٥٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٤.

يتزوج أخته من أبيه (وليس أخته من أمه)، ونحن نعرف العديد من الأمثلة في هذا المجال. ويمكن للمرء أيضاً الزواج من ابنة الأخ أو الأخت، ولا يعتبر الزواج بابنة الأخ خصوصاً كأمر مقبول فحسب، بل ينظر إليه أيضاً بنوع من المراعاة، بما في ذلك في العصر الكلاسيكي، ويظهر هذا الأمر ضمن معطيات الأسطورة بتكرار له دلالته، وهو يكتسب أهمية المؤسسة في قانون العائلة: فإذا توفي شخص ولم يترك سوى بنت واحدة، فإن الأخيرة ستُزف بشكل عادي تحت اسم إبيكلير لأقرب قريب لأبيها ـ وسيكون عمها هو أول من يتم استدعاؤه».

إن فراعنة الأُسرة المالكة الثامنة عشرة وطغاة صقلية شخصيات تاريخية. لكن المعلومات المتوفرة لدينا حول الإيرلنديين القدامى ـ ورغم كونها حديثة العهد ـ تبقى غير مؤكدة. يقول لنا سترابون في هذا الصدد، إن الإيرلنديين أكثر توحشاً من سكان إنكلترا «لأنهم آدمون وعاشبون في الوقت نفسه، وهم يعتقدون أنهم يفعلون خيراً بأكلهم لأجساد آبائهم وبمعاشرتهم علانية لجميع أنواع النساء، بما في ذلك أمهاتهم وأخواتهم». ويضيف سترابون: «في الحقيقة، إن ما قلناه هنا يرتكز على شهادات غير موثوق بها. . .»[1].

وبالفعل، يرجع سترابون هنا إلى بيثياس، الذي يقول عنه في موضع آخر: «بيثياس الذي يعرفه الجميع باعتباره أكبر الكذابين»[2]، ومع الإيرلندية، قد كان ثمرة العلاقة المحرمة بين الملك كنشوبار وأخته[3]. أما والدة ملكة كونوث، وهي ميدب، النموذج الأصلي للملكة ماب ـ، فقد كان لها ثلاثة إخوة توائم شنوا حرباً على أبيهم للظفر بمُلْك إيرلنده، «وقبل المعركة ضاجعت الإخوة الثلاثة ورُزقت من أحدهم ولداً ستتزوجه فيما بعد»[4]. إنني لم أبحث بشكل منظم عن أمثلة ارتكاب المحارم التاريخية أو شبه التاريخية التي يمكن أن نجدها في العالم القديم، وإنني أذكر هنا أُولى الأمثلة التي خطرت ببالي. وفي الواقع، فإن المهم هو أن ظاهرة ارتكاب المحارم قبل المسيحية وقبل الإسلام،

---

(١) سترابون، **جغرافيا**، ترجمة تارديو، هاشيت، ١٨٦٧، الكتاب الأول، ص ١٠٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٠٧.

(٣) س. كزارنوفسكي، **شعائر الأبطال**، ألكان، ١٩١٩، ص ٢٦٢.

(٤) هنري هوبرت، **السلتيون**، مصدر سبق ذكره، ص٢٤٦.

شكلت ممارسة، لم تكن لها في هذه المنطقة من المعمورة، تلك الصبغة التدنيسية التي تعزوها لها الشعوب المطبقة للزواج الخارجي.

وفي أيامنا هذه، ورغم تعاليم الإسلام والمسيحية، فإن زيجات ـ تمنعها هاتان الديانتان أو تحذر من ارتكابها ـ بين ابنة الأخ وعمها خصوصاً أو بين ابن الأخ وعمته، ما زالت موجودة بأعداد كبيرة نسبياً[(١)]. وبفرنسا، فإن بحثاً من ٤٥٠,٠٠٠ زواج كاثوليكي[(٢)] تمت مباركتها ما بين ١٩٤٦ ـ ١٩٥٨، بين لنا أن ٢٥٣ وثيقة إعفاء قد مُنحت من أجل إقامة حفل زواج بين عم وابنة أخيه أو بين عمة وابن أخيها ـ وهو رقم قليل الارتفاع نسبياً، بالنسبة إلى بلد يقبل فيه مثل هذا الزواج، لكنه رقم مستحيل في مناطق قد يُعتبر فيها هذا الزواج فضيحة.

إننا نجهل عدد الزيجات المدنية التي تمت إقامتها بفرنسا بين أقارب على هذه الدرجة (من القرابة)، ونجهل أكثر عدد «العلاقات الحرة». وسيكون من المفيد ـ من جهة أُخرى، الكشف في إطار أوروبا عن عدد حالات ارتكاب المحارم بين الأب وابنته والتي عرضت على محاكم الجنايات. وسيكون من المفيد أيضاً مقارنة العقوبات التي أصدرها المستشارون بالنسبة إلى مثل هذا النوع من الجرائم. وقد أكد لي أناس يعرفون منطقتهم جيداً، أن المستشارين القرويين كانوا أكثر تسامحاً بكثير من المستشارين الحضريين، وهؤلاء الأشخاص أنفسهم يستطيعون جميعاً ذكر العديد من حالات ارتكاب المحارم التي وقعت في قراهم والتي كانت العدالة تجهلها.

وقد استرعى انتباه الملاحظين من رجال الكنيسة في بعض مناطق فرنسا (في ملتقى نهري اللوار والرون)، عدد حالات إزالة بكارة الفتيات من طرف

---

(١) نسجل حالتين ببلاد الطوارق وداخل عائلة نبيلة واحدة. ويعتبر هذا الأمر إثماً من طرف جميع المذاهب الإسلامية، وقد حرمه القرآن صراحة.
ـ ميشيل فالي، **نسابة كيل**، بحث مقدم أمام الشعبة السادسة للمدرسة التطبيقية للدراسات العليا (غير مطبوع).

(٢) جان سوتر وجان ميشيل غو، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٤.
ـ ملحوظة: لم نعثر في الهوامش السابقة على هذا المرجع (المترجمان).

آبائهن. ووصف لي طبيب نفساني سويسري أيضاً هذه الواقعة في منطقة الفالي. ويمكن ردُّ ذلك طبعاً إلى الإدمان على الكحول، ولكن هذه الظاهرة تعيث فساداً في جهات أُخرى.

وفضلاً عن ذلك، فإننا نظل في إطار الحالات النادرة، بل الفاضحة حتى - وهي فضيحة تكتسي مع ذلك أهمية قانونية أكبر في المدن منها في البوادي.

الاحتفاظ بكل فتيات العائلة لذكورها

عندما نخرج من الاستثناء لنرجع إلى الممارسة العادية نكتشف أن «الزواج النموذجي» في المغرب العربي كله تقريباً، وفي جزء كبير من المشرق، ما زال يحدث إلى اليوم مع القريبة التي وإن لم تكن أخته، فهي أشبه بالأخت. عملياً، فإن «الأخت» المعنية هي في الحقيقة ابنة العم اللحّة[١]. وهي بالضبط ابنة العم التي تستعمل في مناداتها في اللهجة البربرية الأكثر صيانة، أعني لهجة الطوارق، اللفظة القديمة، الوحيدة للتسمية، وهي «أختي». ونتوفر في باقي المغرب العربي للإشارة إلى هذه القريبة، القريبة جداً، على كلمة أولت عمي. لكن في الأغاني وفي الخطاب الغزلي بل وفي الممارسة اليومية، يقال عادة «أخواتي» و«أختي»[٢] عند الحديث عن بنات العم.

إن عادة استخدام هذه الألفاظ القرابية تجذرت بعمق في السلوك إلى درجة أنه عندما جاءت حرب الجزائر لتحمس روابط الرفقة، فإن المقاتلين لم يكونوا يتنادون فيما بينهم «يا رفاق» (مثلما كنا نفعله بفرنسا تحت الاحتلال)، بل «يا أختي» «يا أخي».

---

(١) إن جزءاً من الفصل الخامس، «ها قد حان موعد زفافنا يا أخي»، قد خصص للزواج بين أبناء العم.

(٢) نجد العادة نفسها عند سكان المشرق.

إيمار. و ح أبوايي، **الشرف واليونان القديم**، المطابع الجامعية، ١٩٦٣، ص ٤٨. في الشعر المصري يدعو الشاب حبيبته «يا أختي» وتدعوه بدورها «يا أخي»، والشيء ذاته كان يحدث في الاستخدام المألوف للكلمتين من طرف الزوج وزوجته. هل يستتبع ذلك أن الزواج بين الإخوة من أبيهم كان يشكل القاعدة؟ إن البعض ينفي ذلك، والبعض الآخر يعتقد ذلك، وهؤلاء يؤكدون أن الأسطورة المصرية، أسطورة أوزيريس وايزيس تقدم لنا مثالاً ممتازاً.

وفي درجة أقل نبلاً، وهي رغم ذلك جديرة بالملاحظة لأنها موسومة بالتأثيرات الكورسيكية والصقلية والجزائرية ـ أقصد هنا الطبقة الاجتماعية الفرنسية التي تدعى «الوسط» ـ فإن النساء اللواتي يجبن الرصيف من أجل إطعام من يحميهن، تتم تسميتهن من طرف هؤلاء بـ «الأخوات». وعلى طريقة الشعوب الأكثر بدائية، فإن هؤلاء الخارجين على القانون يسمون بعضهم بعضاً، وبدون زيادة، «الرجال»...

ومواكبة لهذا البحث عن ارتباط بالقريبة الأكثر قرباً، نجد في هذه المناطق المتوسطية نفسها آثاراً لإرادة عنيفة جداً، تتمثل في عدم الرغبة في التواصل، وفي الاحتفاظ بجميع فتيات العائلة لذكورها، وعدم التصاهر مع نسب أجنبي، اللهم إذا ما اقتضت ضرورة ملحة ذلك.

إن السكن بقرب أناس لا تربطك بهم أية روابط دموية أو قرابة شرعية حتى (ذلك بأن الأقارب من ناحية الأم وفي العديد من الأماكن يتم تحملهم على مضض) قد يسبب في إذلالك، ولهذا السبب بالذات، يتم في جميع الأمكنة تقريباً تدبير جميع وسائل الحيلة والعنف لمنع الأجانب من الاستقرار عن قرب وبشكل دائم. والنتيجة الطبيعية بالنسبة إلى عقلية مثل هذه هي احتضان الجار الذي لم يتم التخلص منه، «كقريب».

نرى إذن، أن الوضعية المغاربية هي بالضبط على العكس من تلك التي وصفها لنا الإثنولوجيون الذين لاحظوا النصف «المتوحش» للكرة الأرضية. وهذا التوازي المتضاد هو، زيادة على ذلك، من أكثر التوازيات تقارباً. ذلك بأننا نجد في كل مكان من العالم القديم أثراً للنفور الذي تثيره الأطعمة الأجنبية (بينما في العوالم الجديدة، فإن الطابو الذي يمنع الزواج بين أناس مقيمين في المكان نفسه أو أناس من النسب ذاته أو الاسم ذاته، يمتد غالباً إلى الأطعمة).

زواج المرء من ابنة عمه مثل أكل لحم قطيعه

ذكر لي عالم مغربي مسن، وهو رجل ذو علم واسع ورأي متبصر، كنت أتحدث إليه حول التفصيل المغاربي لـ «الزواج من داخل العائلة»، ذكر لي رأياً يعتبره عاماً ويتلخص على الشكل التالي: «إن الناس يحبون الزواج من ابنة

عمهم مثلما يحبون أكل لحم الماشية التي يربونها» (حرفياً ذبح حيوان من قطيعهم)[1].

بالنسبة إلى المواطنين ذوي الحساسية الذين سيقرأونني، فإن كلمة «ذبح» تستدعي فعلاً دموياً، لكن بالنسبة إلى الرحّل والقرويين، فإن الذبح يعني قبل كل شيء «طعاماً جيداً وحفلة يؤكل فيها اللحم». وتعتبر الحفلة كبيرة عندما يُذبح ثور أو خروف حتى، وتعتبر صغيرة عندما لا تُذبح إلا دجاجة أو أكثر... إلى درجة أنني سمعت في الأطلس الكبير ترجمة للكلمة البربرية التي تعني «حفلة مع اللحم» بكلمة فرنسية جديدة أجدها في أي مكان، وهذه الكلمة هي «ذبيحة» (Egorgette)[2]. إن العبارة بالفرنسية تصبح مدهشة لأن الجذر «ذبح» يخيف المخيلة، بينما التصغير الأنثوي «ذبيحة» يحيل إلى شيء صغير، جميل، مرح ولطيف.

إن اللفظة الغربية هذه ذات الأصل الشعبي تترجم بإتقان كلمة اللغة الأصلية، إلى درجة أن الثاء (T) في آخر الكلمة البربرية [وهي سمة المؤنث أو التصغير]، تبرز في الكلمة الفرنسية المقتبسة، وبمصادفة عجيبة، مع بقاء المعنى نفسه بالنسبة إلى اللغتين.

وغالباً ما نصادف في المغرب العربي، أكثر من أي مكان آخر، تسلسلاً من المشاعر ليست لها سمة رسمية، على الرغم من أن أي واحد من الناس لا يعتبر نفسه غريباً عنها كلياً. وضمن هذا التسلسل، يمكننا أن نرتب الحب العميق والطمأنينة الداخلية اللذين يسببهما إطار ما أو أشياء حيث لا وجود للمجهول، وحيث التهديدات ذات الصبغة الإنسانية غير متوقعة. لكن هناك أيضاً مكاناً للنشوة الندية لساكن ضاحية المدينة أمام فواكه حديقته وخضر

---

(١) يمكن أن يفهم المثل في الاتجاه المعاكس، وسيعني آنذاك أنه يخشى الزواج من ابنة العم مثلما يخشى تدمير الماشية.

ـ ملحوظة المترجمين: يبدو أن المؤلفة لم تتقيد بحرفية المثل أو أنها لم تدرك دلالة بعض الكلمات بدقة، فالمثل المغربي يقول: «اللي تزوج ببنت عمو بحال إلى عيد من غتنو»، فهي لم تعط للفظة «عيد» بعدها السيمانتيقي كما هو معروف في ثقافتنا. وإن كان المثل في حد ذاته قابلاً لقراءتين مختلفتين، كما أشارت المؤلفة إلى ذلك.

(٢) المؤنث المفرد بالبربرية هو ثامغروت، والجمع هو ثيمغراس (من غارس Ghars، أي ذبح).

بستانه. إن الفرصة الساذجة هذه تعيد إلى ذاكرتنا الغبطة المزهوة لملاّك الأراضي المسنين جميعهم في العالم القديم، وذلك عندما يتذوقون خمر كرومهم وماء نبعهم[1]. والخبز المهيأ داخل المنزل من طرف نساء العائلة بالقمح الذي استخرجه الأب من أرضه بمساعدة إخوته الذين يصغرونه سناً، وأبنائه. وإن طعم مثل هذه الأشياء من الممكن التعرف عليه، بحسب زعم بعض فلاحي المغرب العربي.

وغالباً ما سمعت أشخاصاً في الجزائر القروية لما قبل ١٩٤٠ يعبّرون لي عن سعادة المرء في إبقاء جميع أبنائه إلى جانبه بفضل أزواج وزوجات من صلبه، وعن شعور الزهو الذي ينتابه عندما يحس بأنه محمي بواسطة عدد أفراد أسرته وتلاحمهم.

ونتصور في الحين مثلاً سائراً آتياً من عالم آخر[2] يقول:

أمك الحقيقية

أختك الحقيقية

خنازيرك الخاصة بك.

إنياماتك[*] الخاصة التي كدستها.

---

(١) كنت محظوظة في أثناء وجودي في بومباي بارتباطي مع هنديتين نشأتا بباريس، ثم تزوجتا من براهماتيين. وكان لكل واحدة منهما حماتها، وقد حدثتاني خصوصاً عن الممنوعات الغذائية التي كان عليهما الانتباه إليها: فالبراهماتي الذي يسافر يحمل معه ماءه حتى (أي ماء بئره)، وكل طعام ليس من «منزله» يثير نفوره، سواء أكان هذا الطعام ممنوعاً أم غير ممنوع.
«لكن جاكمون في الهند كان ينظر إلى مرافقيه من السباهيين (وهم الجنود الهنود الذين كانوا في خدمة الجيوش الأوروبية ـ المترجمان) الذين كانوا يتناولون طعامهم: فلقد كان عدد المواقد والآنية والنيران المستعملة والطبيخ بمقدار عدد الرجال. فلم يكن هناك شخصان يتناولان الطعام معاً أو يأكلان الشيء نفسه». لوسيان فيبر، **الأرض والتطور الإنساني**، ألبان ميشيل، ١٩٤٩، ص ٢٠٠.

(٢) مارغريت ميد، **العادات والسلوك الجنسي في أوقيانوسيا**، بلون، ص ٧٥.
(وقد جعل كلود ليفي ستراوس هذا النص عنواناً فرعياً للقسم الأول من كتابه: **البنى الأولية للقرابة**، ص ٣٣).

(*) الإنيام نبات معرش يوجد في المناطق المدارية ويتوفر على حبات طحينية صالحة للأكل (المترجمان).

لا يمكنك أكلها.

أمهات الآخرين.

أخوات الآخرين.

الإنيامات التي كدسها الآخرون.

يمكنك أكلها.

وتشير مارغريت ميد، التي روت هذا المثل، إلى أن الإنيامات الممنوعة هي فقط تلك التي تصلح للبذر بطبيعة الحال! ذلك أنه حيث تجب المبادلة لا يمكن التبادل بكل شيء، وحيث يجب حفظ الأشياء لا يمكننا الحفاظ أكثر على كل شيء، لكن إرادة التبادل تم التعبير عنها ضمن المثل الأقيانوسي بالوضوح الذي تبدو لي فيه الإرادة العكسية التي تسم الحياة المغاربية.

وفي الحالتين معاً، فإننا نتكلم عن إرادة.

الفصل الرابع
المغرب العربي في عهد الزبدة

في البدء كان التالي:

كلما توغلنا بعيداً في الماضي العِرقي للإنسان المعاصر، سواء تعلق الأمر بإفريقيا الشمالية أو بجهات أُخرى، لاقينا الاختلاط. إن إصالة المغرب العربي تتمثل في كون اختلاط الأصناف الأنثربولوجية، والذي يتم إدراكه اليوم، يتألف من عناصر قريبة (لنوضّح الأمر جيداً: إنها متجاورة لا متشابهة) من تلك التي مكنت الحفريات ما قبل التاريخية من إعادة تشكيلها بالنسبة إلى العهد الذي يأخذ اسم العهد القفصي[1]، أي منذ ٦ إلى ٨ آلاف سنة خلت.

يتضمن هذا الاختلاط أصنافاً متنوعة، البعض منها زنجي[2] لا يُعرف

(١) تم تحديد الإنسان القفصي بقفصة، في تونس. وعلى الرغم من اعتباره منتمياً إلى الإنسان الأورينياسي في أوروبا، فإنه، وبكل تأكيد، قد جاء متأخراً عنه، ولربما كان معاصراً للإنسان المجدالیني الذي لا يشبهه في شيء. ونجد أثراً للصناعة القفصية في المغرب العربي القاري كله، وفي إفريقيا الشرقية (كينيا) وبشكل منعزل في الصحراء. ومن غير المستبعد أن تكون الصحراء قد عُبرت منذ أواخر العهد القفصي، من طرف أناس متأثرين بالحضارة التي سبق أن أصبحت نيوليتيكية، والتي غزت مصر في تلك الفترة، قادمة من شرق المتوسط.

وقد قمت في هذا الصدد بتنقيبات سنة ١٩٣٩ في قلب الأوراس، داخل مخبأ تحت الصخر، يتعلق بالصناعة القفصية (ولسوء الحظ، فإن ملاحظاتي لم تُنشر، لأنها كانت قد ضاعت مع ملفاتي الأُخرى، بعد اعتقالي من طرف الغستابو سنة ١٩٤٢).

(٢) هـ. أليمان، **ما قبل تاريخ إفريقيا**، بوبي، ١٩٥٥، ص ٤٠١: «وفي الأخير، تجب الإشارة أيضاً إلى حضور بعض الهياكل العظمية ذات الانتسابات الزنجية في المحيط القفصي».

مصدره، والبعض الآخر متوسطي. أما الأصناف الأُخرى، وهي الأكثر عدداً، فتذكر بإنسان كرومانيون[١]. وهناك عدة احتمالات من أن يكون الخلف المنحدرون من هذه الأصناف المتنوعة هم ساكنو المغرب العربي الحاليون، ولهذا السبب نرى أنه من الممكن الحديث عنهم بعض الشيء. لقد استعملوا الأدوات المصنوعة من الأحجار المصقولة، وبالتالي فإنهم ينتمون إلى الحضارة الباليوليتيكية [حضارة العهد الحجري القديم]، لكنهم عاشوا منذ حوالى ٦ أو ٧ آلاف سنة، ولهذا نجدهم معاصرين لبدايات العهد النيوليتيكي (العهد الحجري الجديد).

وهناك تمايز كبير فيما بينهم من الناحية الفيزيقية، لكن لديهم نمط حياة مشتركاً، وهذا الأخير لا علاقة له بنمط حياة خلفهم: وبالفعل، فهم لا يعرفون الزروع ولا الحيوانات المدجنة، ويقتاتون بشكل سيئ مما يسّره لهم القنص والقطف. لقد قاموا بصنع صوانات صغيرة معقولة بشكل جيد، وإبر من العظام[٢]، واستخدموا بيض النعام (لنقل الماء بدون شك). وكانوا يسكنون أحياناً داخل الكهوف، حيث كانوا يوقدون النار ويأكلون كمية وافرة من الحلزون وجدت أصدافه الفارغة بأكوام كبيرة، مختلطة بالرماد. ونعلم أيضاً بأنهم كانوا يقتَلعون السنّين الأماميتين، ويعتقد أنهم كانوا يدهنون أجسادهم بمادة حمراء لأنه تم العثور على أصباغ مسحوقة في بعض مناجم منطقتهم.

وإذا ما رأيتم في أثناء تجوالكم في جبال الأوراس صخرة مقعرة غير بعيدة عن منبع مائي، فاحفروا هناك خندقاً ضيقاً، ستجدون أولاً أثراً لإقامة رعاة الشاوية، الذين تركوا بعض الرماد وعظام الثمور وآنيات فخارية مكسرة يسهل التحقق منها.

وتحت طبقة رملية ستجدون رماداً أيضاً، ومن المحتمل كثيراً، بعض

---

(١) يرجع اسمه إلى قرية صغيرة في محافظة الدرودوني، حيث تم التعرف على بقاياه لأول مرة، ولا يتعلق الأمر بـ «عِرق» ولكن بصنف يبدو عالمياً عند مرحلة معينة من التطور الإنساني. ولقد وجد علماء ما قبل التاريخ القدماء، وليس بلا حجة، أثر هذا الإنسان في كل مكان تقريباً، غير أنهم استنتجوا من وراء ذلك هجرات «عِرقية» مستبعدة الحدوث.

(٢) هناك أيضاً، بلا شك، إبر أُخرى صُنعت من الأشواك لم تصلنا. إن أشواك الأثافيا صلبة مثل الفولاذ، وبعضها طويل مثل إصبع، ولقد شاهدت طوارقيين يصنعون إبرة بشوكتين، بحيث تُستخدم الواحدة لثقب الأخرى.

الأواني الفخارية الرومانية (المكسرة)، ثم، وتحت الرماد الروماني، طبقة كثيفة من الرمل كذلك. وفي الأخير، يأتي مستوى عميق، سيبوح لنا أناس قفصة من خلاله بأسرارهم. ولقد وجدت هناك صوانات صغيرة رديئة، وبعض قطع بيض النعامة، وإبرة من العظم، وآلاف أصداف الحلزون المدفونة داخل كتلة هائلة من الرماد، وهي أكثر الكتل الرمادية الثلاث كثافة.

حضارة الحساء

في هذه الأثناء، وبينما كان المغاربيون لا يزالون يطاردون الحلزونات، كان حدث عجيب يأخذ طريقه في جهة ما من غرب المنطقة القفصية والهندوس. لقد كان هذا الحدث العجيب ميلاد الحضارة، ويتمثل أساساً في اختراع الزراعة وتربية الماشية، وميلاد الحياة الحضرية.

لقد كانت الزراعة (أي الخبز) وتربية الماشية (أي الزبدة والحليب) وصناعة الخزف (أي قِدر الحساء)، هي الهبات الثلاث الكبرى التي وهبها شرق المتوسط للإنسانية.

وقد انتشرت أول حضارة حقيقية، وهي حضارة الحساء، بسرعة كبيرة باتجاه الغرب[1]. وعندما وصلت إلى المغرب العربي[2]، قلبت العادات بشكل جذري. وابتداءً من هذه المرحلة، فإن آكلي الحلزون سيتبنون نوع التغذية ونمط الحياة والإيقاع الموسمي، وهي معطيات سيتم الحفاظ عليها عملياً، إلى بدايات القرن العشرين.

---

(١) لقد تمكن الفيزيائيون بفضل مادة الكاربون ١٤ من إقامة البرهان على أن القمح الذي وجد في المخازن المصرية التي ترجع إلى العهد النيوليتيكي، قد حُصد ما بين ٤٦٠٠ و٤٢٥٠ قبل الميلاد.

(ج. بوزينير، **معجم الحضارة المصرية**، مازان، ١٩٥٩ ص ٢٣٠. عمود ١). وقد طبقت الطريقة نفسها على الفحم الصادر عن المرحلة القفصية العليا في منطقة «دارمطا المبيوض» (بالجزائر)، وهو ما أعطى التقدير التالي: ٥٠٥٠ زائد أو ناقص ٢٠٠ سنة، قبل الميلاد.

هـ. أليمان، **ما قبل تاريخ إفريقيا**، ص ٨١ (على العموم، يتم في إطار التقديرات القائمة على أساس مادة الكربون ١٤، قبول واحد على عشرين من الزمن الذي مر كهامش للخطأ).

(٢) لقد استغرقت حضارة الترانزيستورات أقل من عشر سنوات لتحتل مساحة أكثر اتساعاً: إنها تمتد عملياً عبر العالم كله.

إن الناس الذين أصبحوا مزارعين ومربين للماشية لم يتخلوا مع ذلك عن الهدايا المجانية للطبيعة، ونقصد بذلك جمع القسطال أو البلوط الحلو، ومتابعة الطريدة. وهكذا، وفي أثناء موسم القطف، شاهدت في تنييط الحد سنة ١٩٥٥، البلوط يباع بـ ٢٠٠٠ فرنك للقنطار الواحد.

وفي السنة نفسها والمكان نفسه، كان الشعير عند البقال يساوي ٤٥٠ إلى ٥٠٠ فرنك لكل ٢٠ لتراً، وهذا يعني أن ثمن البلوط والشعير كان واحداً.

وقد قدر تحقيق تم إجراؤه بالقبايل الكبرى سنة ١٨٨٥، استهلاك عائلة من ٥ أشخاص للحم الطريدة، بـ ٨٠ كيلوغراماً في السنة (والعائلة مكونة من الأب والأم و٣ أبناء عمرهم على التوالي: ١٧، و١٠ و٦ سنوات)، هذا مع العلم بأن هذه العائلة تستهلك ما مجموعه ٢٣٤ كيلوغراماً لحماً. ونلاحظ من جهة أُخرى أن هذا الاستهلاك كان منذ ٨٠ سنة خلت أعلى كثيراً من الاستهلاك الحالي للفلاح الجزائري. ومع ذلك، فإن صاحب التحقيق سبق له أن لاحظ[1] أن منطقة القبايل «لا تنتج ولو نصف الغذاء الضروري لسكانها».

إن عدم التوازن ذاك، بين عدد السكان القبايليين وموارد ترابهم، قد ازداد بشكل غير عادي منذ سنة ١٨٨٥. وقبل سنة ١٨٣٠، كان يوجد توازن اضطراري بين نسبة السكان ونسبة مواردهم ـ وهو توازن تم الحفاظ عليه بقساوة، عن طريق وفيات الأطفال والحرب والمجاعات الموسمية والمنفى الاختياري.

لقد كان استهلاك اللحم في هذه المرحلة من دون شك، أكثر ارتفاعاً مما كان عليه سنة ١٨٨٥؛ ذلك بأن الثروة الحيوانية من الطريدة (والتي تتضاءل دائماً مع تزايد الكثافة السكانية)، كانت بالتأكيد متوفرة بشكل أكبر. علاوة على ذلك، فإننا نعلم بشكل يقيني، خصوصاً من خلال أعمال أندري نوشي[2]، بأن الماشية الجزائرية انخفضت كثيراً منذ ١٠٠ سنة بفعل مصادرة الأراضي في

(١) أوغست جيوفروي، **مزارع، فلاح، بربري، من القبائل الكبرى**، باريس، ديدو، ١٨٨٨، مجموعة لوبلي، ص ٧٨.

(٢) أ. نوشي، **تحقيقات حول مستوى عيش السكان القسطنطيين من عهد الاحتلال الفرنسي إلى سنة ١٩١٩**، المنشورات الجامعية، ١٩٦١.

العهد الاستعماري أيضاً، ويجب أن نضيف إلى الأسباب السابقة وبالنسبة إلى المرحلة التي انتشرت فيها الحروب بين القبائل، الميل الإرادي إلى تفضيل قطيع الماشية على حساب الحقل ـ ذلك أنه من الأسهل حماية الماشية من العدو، وفي حالة الفرار من هذا الأخير، يكون من الأسهل وضعها في مخبأ.

وختاماً، فإن جميع المعلومات التي أملكها (خصوصاً عن طريق المصادر الشفوية)، تؤكد هذا الاستهلاك الكبير للحم من طرف المغاربيين[١]، وفي ماض قريب نسبياً، لا يتجاوز قرناً من الزمن.

إن هبات الطبيعة ستتوقف، مع ذلك، عن أن تكون المورد الوحيد، وستصبح تكملة ـ وهي تكملة تحظى بالتقدير ـ، وسيصبح أساس التغذية من الآن فصاعداً هو قرص الشعير أو القمح وعصيدة الزروع وحليب وزبدة الماعز ولحم الجدي.

إن تغييراً أساسياً بهذه الحدة سيخص مجموع الأنشطة، ويكفي تعديل صنف فيزيقي ما، ومن دون أن يكون من الضروري تصور مساهمة دم جديد، لتفسير هذا التعديل.

وفوق هذا، فإن «حضارة الحساء» لم تصل وحدها إلى إفريقيا الشمالية؛ فلقد أتى بها رجال جاؤوا من الشرق، حاملين إياها ضمن أمتعتهم. لكن عددهم كان قليلاً، مثلهم في ذلك مثل أولئك الذين سيحملون معهم القرآن الكريم يوماً ما. وعلاوة على ذلك، وإذا ما نحن صدقنا بعض المؤشرات الأنثروبولوجية واللسانية، فإن لهؤلاء الرجال صلات بساكني المنطقة (الأصليين)... وباختصار، فإن التعديل الذي أصاب رأس المال الوراثي للمغرب العربي من جراء مساهمة الدم الجديد هذه، كان على الأرجح من درجة التعديل نفسه، وهو التعديل الناتج من الفتح العربي، بمعنى أنه كان ضعيفاً.

---

(١) نشير بهذا الصدد إلى أن الإلغاء النسبي للحليب واللحم في الاستهلاك اليومي الحالي ـ وهو ناتج في افريقيا الشمالية عن الآبدية والتمدن والاستعمار وجلاء الاستعمار والتحديث والإفقار: ولا تهمنا التسمية الطبية لهذه الآفة ـ هو بمثابة كارثة بالنسبة الصحة العامة لسكان نصف القارة هذه.

لكن الثورة على مستوى المعتقدات والعادات كانت من جانبها قد تمت - قبل ذلك - بشكل قوي.

أول إثنوغرافي مهتم بالمغرب العربي

بعد آكلي الحلزون بـ ٣ إلى ٤ آلاف سنة، نجد في الحفريات - وبشكل دقيق هذه المرة - الأصناف الأنثروبولوجية الحالية[١] للمغرب العربي، أي الأصناف الأصلية الإنسانية ذاتها التي تعيش في ظروف متشابهة.

لقد كان أناس تلك المرحلة رعاة ومزارعين، وكانوا يدفنون موتاهم قرب أحجار هائلة منصوبة، مثلما كان يفعل الأوروبيون تقريباً، قد بدأوا القيام به بضعة قرون قبل ذلك، ولربما كان ذلك بالنسبة إلى هؤلاء وأولئك، بفعل التأثير الآتي من شرق المتوسط. ما عدا ذلك، ما الذي كان يقوم به المغاربيون في أوقات فراغهم؟ كيف كانوا ينتظمون؟ وفي أي شيء كانوا يفكرون؟

إن في إمكاننا الآن التوفر على بعض العناصر لتصور ذلك، لأننا نوجد في حوض البحر الأبيض المتوسط، أي في أقدم «المناطق التي لها تاريخ». إن الإشارات التاريخية الأولى المتعلقة بالمغرب العربي توجد ضمن النقوش المصرية منذ الأُسر المالكة الأولى[٢]، وإي نحو ٣٠٠٠ سنة ق.م.، لكن هذه الإشارات فقيرة جداً من حيث التفصيلات الوصفية غير المتفق عليها، ويجب علينا أن ننتظر القرن الخامس قبل الميلاد لنتوفر أخيراً على وصف «إثنوغرافي».

---

(١) «في ركنيا (Roknia)... نتبين وجود أصناف قبايلية: زنجية ومعربة». هـ. أليمان، **ما قبل تاريخ إفريقيا**، ص ٤٧٢. وركنيا مقبرة ميغالينية شاسعة - أي مكونة من صخور كبيرة منصوبة، تدعى ميغاليث، وتتألف هذه المقبرة من ٣٠٠٠ دارلمن (Darlemens) - وهي الأحجار ما قبل التاريخية التي تم نصبها (المترجمان).

وتقع ركنيا على بعد ١٢ كيلومتراً من قسطنطينة.

- حول التاريخ القديم للمغرب العربي، نحيل إلى الكتاب المهم **المغرب الكبير** للدكتور رشيد الناقوري، وخصوصاً الجزء الأول «العصور القديمة: أسسها التاريخية الحضارية والسياسية»، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١ (المترجمان).

(٢) في عهد الأُسرة المالكة الرابعة (من ٢٧٢٣ إلى ٢٥٦٣ قبل الميلاد)، شن الملك سينفرو غزوة على جيرانه في الغرب. وقد أسر ١١,٠٠٠ شخص، وغنم ١٣,٠٠٠ رأس من الماشية (اتيان دريوتون وجاك فاندي، **مصر**، المطبوعات الجامعية، ١٩٦٢، ص ١٧٠).

إن أول إثنوغرافي مهتم بالمغرب العربي يوناني، وهو هيرودوت. وسيكون هذا العلاّمة الحقيقي، المحب للاطلاع، والنزيه، إضافة إلى ذلك، نموذجاً للمخبر بالذات، المخبر الذي يعزه السوسيولوجيون ـ وهو من الأمانة بحيث أنه يعيد بالضبط ما لا يفهمه حتى، بل وحتى ما يبدو له غير معقول. ومع ذلك فهو ليس ساذجاً إلى الحد الذي يزعمه البعض: «بالنسبة إليّ»، يقول هيرودوت، «لا أرفض تصديق ما يحكى لي، إلا أنني وفي الوقت ذاته، لا أصدق ذلك كثيراً»[١]. «... هل هذا صحيح؟ لست أدري، إنني أكتب ما يقال، لكن كل شيء ممكن...»[٢].

ولأول مرة، سنتمكن من أن نتعرف بواسطته أخيراً على هؤلاء الأناس الغامضين والمنتمين إلى ما قبل التاريخ، وأن نعرف بعض ملامح عاداتهم وطبعهم بشكل أكثر تفصيلاً مما تسمح به التصريحات المتحفظة لبقايا المطبخ ما قبل التاريخية.

كانوا يمارسون عادة الختان ألف سنة قبل ميلاد الرسول عليه الصلاة والسلام

عاش هيرودوت قبل ميلاد الرسول محمد عليه الصلاة والسلام بحوالي ١٠٠٠ سنة. ولقد سافر كثيراً، خصوصاً إلى مصر، ومن بين الأشياء التي أخبرنا بها، أن الكهنة المصريين كانوا يحلقون شعر جسمهم بكامله وبانتظام، وكانوا يتوضأون أربع مرات في اليوم[٣]. كما أن المصريين كلهم كانوا يستفظعون لحم الخنزير[٤]، وكانوا يمارسون الختان[٥] منذ العصور الغابرة: «لقد كان الكلدانيون والمصريون والحبشيون، وحدهم من بين جميع الناس الذين يمارسون عادة الختان منذ نشأتهم. ويعترف الفينيقيون وسوريو فلسطين أنفسهم، بأنهم أخذوا هذه العادة عن المصريين».

---

(١) **الكتاب الرابع**، ص ٩٦.
(٢) **الكتاب الرابع**، ص ١٩٥.
(٣) **الكتاب الثاني**، ص ١٠٥.
(٤) **الكتاب الرابع**، ص ١٨٦.
(٥) **الكتاب الثاني**، ص ٣٧.

لقد كان تحريم أكل لحم الخنزير (وهو تحريم سيقره القرآن الكريم بعد ذلك بألف سنة) على الأرجح، أقدم كثيراً من المدة التاريخية برمتها. ذلك بأن حفريات المرحلة النيوليتيكية في مصر الوسطى، كشفت عن طبقات أرضية تم العثور فيها على «أكوام عظمية وفيرة للأبقار والأغنام، لكن لم يعثر على أثر للخنازير. هذا رغم أن هذه الحيوانات الأخيرة كانت مألوفة في المرحلة نفسها لدى أناس الفيوم والدلتا»[1]، إننا نعلم بأنه لا يمكن لأي رجل أن يعتبر نفسه مسلماً إذا لم يكن قد خُتن، إلى حد أن كلمة Circoncision تترجم في الأغلب في إفريقيا الشمالية إلى كلمة «تعميد» (Baptême). لكننا نعلم بشكل أقل بأن القرآن الكريم سكت عن هذه العادة. نجد عند و. س. بلاكمان في كتابه: **فلاحو مصر العليا**، بايو، ١٩٤٧، الصفحات من ٢٤٥ إلى ٢٧٣، فصلاً كاملاً مخصصاً للمقارنة بين عادات العصور القديمة والعادات التي ما زالت سارية المفعول، وسنكتشف بقراءتنا لهذا الفصل، إلى أي حد يعتبر هذا المجتمع محافظاً، ولكنه على الأرجح، ليس أكثر محافظة من المجتمعات الأُخرى التي تبدو ذات أهمية قبل وبعد ألف سنة، ذلك بأن القرآن الكريم لم يشر إليها ولو مرة واحدة.

ونرى في التحفظ نفسه بالنسبة إلى التقويم الإسلامي، إذ نسجل أنه لا يكرس أي حفل ديني لتخليد ذكرى ختان معينة.

ولقد تبنى المسيحيون موقفاً معاكساً تماماً، ذلك أنهم يحتفلون بذكرى ختان المسيح بكل تقوى، لكنهم يمتنعون من ختان أبنائهم.

والحال أن إرادة الديانة المسيحية في الشمولية وتجذرها في روما، كانا بكل تأكيد سبباً في ترك عادة الختان من طرف المسيحيين الأوائل، وقد شكل ذلك كله أحد أسباب القطيعة بين المسيحية واليهودية.

يتعلق الأمر إذن بنزاع مهم، كان له دور كبير ودائم في العالم المتوسطي بأسره ـ وبالخصوص في المنطقة ذاتها التي ولد فيها الرسول محمد عليه الصلاة والسلام، وبشر فيها بدعوته.

---

(١) غوردون تشايلد، **ميلاد الحضارة**، باريس، كونتيي، ١٩٦٤، ص ٨٣.

لقد هدف الإسلام فوراً، مَثَله مَثَل المسيحية، وعلى عكس اليهودية (والديانة الأخيرة تتميز بطابعها القومي والعرقي، نظراً إلى نشأتها الموغلة في القدم)، إلى أن يكون شمولياً. وفي إطار هذه الظروف، كيف لا يعتبر السكوت الذي لزمه الكتاب المقدس للمسلمين بصدد الإلزام السامي العتيق، والمتمثل في ختان الأطفال الذكور، كيف لا يعتبر سكوتاً متعمداً؟ ثم ألا يمكننا أن نرى في الالتزام الصارم بالممارسة هذه،[١] والذي نعاينه لدى المؤمنين بالتعاليم القرآنية، عنصراً ظرفياً لا مبدأ عقائدياً؟

يتفق أن الدعوة إلى اعتناق المسيحية قد تمت بسرعة كبيرة في روما، بين الأشخاص غير المختونين، بينما استمر الإسلام في الانتشار في الوسط السامي، حيث كان الختان، وكما سبق أن رأينا، ممارسة متقدمة في قدمها وعموميتها بأكثر من ١٠٠٠ سنة قبل مجيء الرسول محمد عليه الصلاة والسلام.

في غرب مصر أرض شبه مجهولة

لا يتوفر هيرودوت على معلومات مباشرة بشأن المنطقة الشاسعة التي نسميها المغرب العربي، والتي كانت تسمى آنئذٍ ليبيا، عند الهلينيستيين. (لقد كان المصريون، باعتبارهم من أوائل «الأناس المثقفين»، هم الذين أطلقوا، قبل اليونانيين بزمن طويل، اسم «لوبو» أو «ليبو» على جيرانهم من الجهة العربية).

ورغم غياب هذه المعرفة المباشرة، فإن الوصف الطبيعي للبلد كان صادقاً. فهيرودوت حدد بالضبط موقع الصحراء، وحدد أيضاً سلسلة الجبال العالية التي تمتد بشكل مواز للبحر، وقد أحصى بدقة الحيوانات المتوحشة التي كانت موجودة في المنطقة.

ومن الطبيعي أن تكون لديه معلومات وافرة حول اليونانيين والفينيقيين الذين سبق أن استقروا على طول الساحل، لكنه يحدثنا أيضاً عن داخل البلاد الذي يقطنه الأهالي الذين يقول عن البعض منهم أنهم «ليبيون» وعن البعض

(١) بطبيعة الحال، فإن العديد من الفقهاء والمشرعين يأمرون بالختان، لكن هذا لا يمنع من كون الكتاب المنزل بوحده، وهو حجر الزاوية بالنسبة إلى العقيدة الإسلامية برمتها، قد استنكف عن ذكره حتى.

الآخر أنهم «حبشيون» - أي زنوج - ولا يصف لنا هيرودوت الليبيين جسدياً، لكن المصريين قدموهم لنا، ألف سنة قبله (أحياناً بعيون زرق ولحية كستنائية اللون وسحنة محمرة)، بالمقابل، فإنه يعطينا تفصيلات عديدة بشأن عاداتهم، وهي تفصيلات كثيراً ما يبدو بعضها راهناً بشكل غريب، إلى درجة أعتقد معها بأنه من الأفيد استعراضها:

فوراء النبضات السريعة للحدث، قد تساعدنا هذه التفصيلات في إدراك الإيقاعات البطيئة جداً للتطور.

إن هيرودوت خصوصاً، يخطرنا بأن الليبيين، مثلهم مثل باقي الناس، يرفضون استهلاك أو تربية الخنازير[1].

وبصدد مساكن الليبيين، يقول لنا المؤرخ القديم أنها «مكونة من تشابك سيقان الاسفوديل بسيقان الأسل» وأنها قابلة لأن تنقل[2].

وما زال هناك مساكن مشابهة، أي لا تستعمل الأحجار ولا الآجر ولا الأنسجة، موجودة في الصحراء الشرقية كلها، وهذه المساكن خفيفة الوزن، باردة من الداخل متكيفة مع مناخ البلد، وقد سكنتها عندما كنت في صحراء ليبيا، ورأيتها في مخيمات الطوارق عند توبو والداواودا[3] وتسمى أكبار بلغة الطوارق، وزريبة بالعربية، وهي لا تنقل إلا نادراً في الوقت الحالي، لكن من المؤكد أن ظاهرة الترحل في إفريقيا سبقت إدخال الخيمة السوداء، وأن المسكن القابل للنقل، الذي وصفه لنا هيرودوت، وقبل إدخال الخيمة، يمكن أن يقابل الأكبار (جمع إكبران).

---

(١) **الكتاب الرابع**، ص ١٨٦.

(٢) **الكتاب الرابع**، ص ١٩١.

(٣) داوادا صيغة الجمع في اللغة العربية وتعني «أكل الدود». ومن عادة اللغة الفرنسية أن تعالج صيغة الجمع بالنسبة إلى أسماء الشعوب باعتبارها صيغة واحدة، وأن تقول طوارقي (Un Touareg)، شاوي (un Chaouia)، داودا (Daouda)، طوارق (Les touaregs)، شاويون (Chaouis)، داودا (Des Daouadas).

- ملحوظة المترجمين: إن صيغة الجمع الحقيقية باللغة العربية، ليست هي الداوادا، ولكن هي: الداوديون أو الدوديون.

أما بالنسبة إلى الخيمة المصنوعة من الحصير، والتي تميز رحّل النيجر، فإنها تقابل بشكل أفضل وصف هيرودوت وتتطابق مع المباليا، التي وصفها سالوست[١].

ومن غير الممكن راهناً أن نجد مثل هذه الخيمة في ليبيا أو الهجار، لأن صناعتها تتطلب مادة أولية منعدمة في هذه المنطقة، ويتعلق الأمر بالدوم، وهو نوع من النخيل الموجود بكثرة في منطقة العاير، ويدعى أيضاً «نخيل فرعون». ومن غير المستبعد أن تكون حصائر الدوم، الخفيفة جداً والمتينة، قد نُقلت فيما مضى على مدى مسافات أكبر مما هو عليه الأمر الآن.

ويشير المؤرخ اليوناني إلى الحضور المتزامن في ليبيا لنمطين من الإنتاج ما زالا يميزان المغرب العربي، وهما على التوالي:

نمط الرعاة الرحّل، ونمط المزارعين الآبدين، ويبين لنا ـ هذا المؤرخ ـ الرحّل وهم يزورون كل سنة مناطق الثمور لأخذ حاجتهم منها، ويذكر عادة الليبيين المتمثلة في شي الجراد وأكله. ويصف لنا أجداد المغاربيين وهم يحلفون بوضع أيديهم فوق مقابر أوليائهم ويمارسون العرافة بذهابهم إلى هذه القبور للنوم فوقها بقصد القيام بأحلام تنبؤية، وهم يلتزمون أيضاً بوعدهم ضمن مواثيق أخوية[٢]، ويطوفون بفتاة شابة باحتفال كبير، قبل قيام معركة طقوسية، وفي أثناء تلك المعركة تنقسم فتيات شابات أُخريات إلى معسكرين، حيث يتصارعن بالعصي ويتراشقن بالحجارة...[٣].

وقد شاهدت شخصياً في الأوراس أداء اليمين فوق القبور[٤]، والطواف

---

(١) لقد لاحظ العالم الإثنولوجي الممتاز شارل لوكور (الذي قُتل في إيطاليا في أثناء الحرب العالمية الأخيرة) خيمة الحصير عند التوبو، وفوق المحيط الجنوبي للصحراء، وقد اعتقد أنها تقابل الوصف الدقيق للمباليا، الذي نجده عند سالوست.
أنظر أيضاً جورج مارسي، **بصدد المباليا**، هيسبريس، ١٩٤٢، ص ٢٣.
ـ لاوست، **السكن عند منتجعي وسط المغرب**، هيسبريس، ١٩٣٥، ص ١٨ ـ ١٩ ـ ٧٦.

(٢) **الكتاب الرابع**، ١٧٢.

(٣) **الكتاب الرابع**، ص ١٨٠.

(٤) يشير مارصو غاست في **تغذية كيل أهجار** (أطروحة السلك الثالث، غير مطبوعة) إلى أن النساء العجائز يسائلن أضرحة الموتى (إديبنان) في أثناء فترات المجاعة حتى يتسنى لهن معرفة متى ستصل الذرة البيضاء المنقولة بواسطة القافلة.

الطقوسي بفتاة صغيرة في الحقول التي سيتم حرثها، ومبارزات الكورا[١] بواسطة العصي والحجارة، في اليوم الأول من فصل الربيع.

ولا يزال ذهاب الرحّل إلى مناطق الثمور لأخذ حاجتهم منها أمراً معتاداً في موريتانيا. أما بالنسبة إلى مواثيق الأخوة، فقد وصفت باعتبارها ممارسة كانت قائمة منذ جيل مضى، في كل من الأطلس الكبير والمتوسط وفي القبايل.

الموضات النسائية نموذج للاستمرارية

يقول المؤرخ القديم هيرودوت: «أعتقد أن الأصوات الحادة المرافقة للاحتفالات الدينية، قد سُمعت بدءاً في ليبيا، ذلك بأن عادة (الزغردة) منتشرة جداً وسط الليبيات، وهن يقمن بهذه المهمة بشكل جيد»[٢].

فيما يخص النقطة هذه، لم يطرأ أي تغيير على المغاربيات، وإذا ما حدث أن بعث شخص ينتمي إلى عهود القبور الدائرية من جديد، في أثناء حفل زواج في أي بلد من بلدان إفريقيا الشمالية، فإنه سيتعرف من دون شك على زغرودة حفيداته. وعلى عكس ما يمكننا افتراضه منطقياً، فإن اللباس النسائي لن يفاجئه كثيراً أيضاً - فاللون والزي يحافظان فيما يبدو على استمرارية مدهشة - وإليكم ما يقوله هيرودوت في هذا الشأن: «إن الليبيات يضعن فوق لباسهن جلود الماعز (إيجي)، وهي جلود تم نتفها وتزيينها بخيوط متدلية ودهنها بالفوة - وهو نبات يستخرج من جذره مادة حمراء اللون - ومن هذه الجلود استعار اليونان كلمة حامية (égide)[٣].

وبحسب الأشخاص الذين سألتهم في الأوراس، فإن لباس النساء كان يتألف في العقدين أو الثلاثة عقود الماضية، من ثوب مستطيل مصنوع من الصوف الأحمر الروماني، وهو غير مخيط، تم نسجه يدوياً، ويوضع هذا اللباس

---

(١) الكورا لعب طقوسي نجده في المنطقة الحامية السامية كلها. ويتعلق الأمر بالمنطقة التي سادت فيها اللغات الفينيقية والمصرية القديمة والعبرية والعربية والبربرية ولغات إفريقيا الشرقية - المترجمان - ويسمى تاكورت في الأوراس وتاكريكرا عند الطوارق.

(٢) **الكتاب الرابع**، ص ١٩٠.

(٣) **الكتاب الرابع**، ص ١٨٩.

مباشرة فوق قميص طويل.

ويبدو أن هناك شبهاً كبيراً بين اللباس الذي لاحظته جان جوان في جزر كركينا واللباس الذي وصف لي: «إن نساء كركينا يضعن خماراً مستطيلاً يتكون ثوبه السميك من الصوف الأحمر المزركش»[1].

إن نبرة واحدة هي المقبولة هنا، ألا وهي الأحمر الغامق. وفيما يتعلق بالخمار الكركيني، الذي يشكل جزءاً من مجموعة المعروضات في متحف الإنسان، والذي أعيد تقديمه ضمن مقالة ج. جوان، فإنه مزين بخيوط متدلية.

لقد كان عبيد داك غالي في بلاد الطوارق لا يزالون[2] حوالي سنة ١٩٣٩ يضعون ألبسة من الجلد مصنوعة بالأحمر ومزينة بالخيوط المتدلية. وعلى العكس من ذلك، فإن نبلاء الطوارق كانوا سباقين، قرناً من الزمان قبل هذا التاريخ، إلى وضع ألبسة مستوردة ـ ذات لون أبيض، أسود أو مصبوغة بالأزرق «الغيني» ـ وهي الألبسة التي تم لأوروبا التعرف عليهم من خلالها فيما بعد.

«على طول البحر من جانب المغرب[3] يأتي الماسيون بعد هؤلاء، وهم

---

(١) جان جوان، «طرف الكركينيات»، **مجلة الدراسات الإسلامية**، ١٩٤٨، ص ٥١.

(٢) يمتلك السيد غي بارير، وهو معلم بالهجار، قميصاً من جلود الماعز والغنم دُبغت بالعاير وصُبغت بالأحمر، وقد تم صنع هذا القميص المزين بخيوط متدلية سنتي ١٩٥٦ و١٩٥٧ من طرف امرأة عجوز من داك غالي.

(٣) هيرودوت، **توايلخ** (ميلبومين Melpomène، **الكتاب الرابع**، مقطع ١٧٥)؛ السُّنة الإسلامية الصحيحة، أحاديث مختارة، ترجمة ج. هـ. بوسكي، فاسكيل ١٩٦٤، الصفحات ٨٩ ثم ٢٩١، مقطع ٦٧.

ـ ملحوظة المترجمين: لقد رجعنا مباشرة إلى النص الأصلي من صحيح البخاري، المجلد الرابع، ويتضمن الجزأين السابع والثامن، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الصفحة ٦٠ باب القزع: «حدثني محمد قال، أخبرني مخلد قال، أخبرني ابن جريح، أخبرني عبيد الله بن حفص، أن عمر بن نافع، أخبره عن نافع مولى عبد الله، أنه سمع ابن عمر رضي الله عنهما يقول، سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن القزع، قال عبيد الله قلت وما القزع، فأشار لنا عبيد الله إلى ناصيبه وجانبي رأسه، قيل لعبيد الله فالجارية والغلام، قال لا أدري هكذا قال الصبي، قال عبيد الله وعاودته فقال أما القصة والقفا للغلام فلا بأس بهما، لكن القزع أن يترك بناصيته شعر وليس في رأسه غيره وكذلك يشق رأسه هذا وهذا».

يحلقون رؤوسهم محتفظين بالقنزعات، إنهم يتركون شعر الرأس ينمو في الوسط، ويحلقون باقي الأجزاء يميناً وشمالاً عن الآخر...».

إن الطوارق لا يمتلكون سوى كلمة واحدة لتسمية قنزعة الديك وشكل حلاقة الرأس ذاك، وهي كلمة أغار كوبا (جمع إغاركوباتن). لكن تتم حلاقة شعر الأطفال الصغار بهذه الطريقة في العديد من مناطق المغرب العربي. وفي الجزائر كلها تُستعمل كلمة كطاية (التي لا يمكن ترجمتها إلى الفرنسية) وأحياناً أيشا كلمة شوشة للإشارة إما إلى خصلة الشعر وسط الرأس والتي يحبق كل ما يحيط بها، وإما إلى شريط الشعر الموضوع على شكل قنزعة وتعطى لهذه وتلك قيمة وقائية لا علاقة لها تقريباً بالسّنة[1].

أناس من دون رأس وأناس برأس كلب

حتى الحكايات الخرافية ذاتها التي يرويها هيرودوت لها رنة مألوفة. وإليكم على سبيل المثال هذه الحكاية: «انطلاقاً من هذا النهر (تريطون)، فإن الجزء الغربي يبدو كثير الجبال، مشجراً وغنياً بالحيوانات، فعند الليبيين قاطني هذه المنطقة، توجد الثعابين ذات الحجم الكبير جداً والأسُود والفيلة والأفاعي والحمير ذوات القرون والقردة ذات الوجه الشبيه بالكلاب والوحوش من دون رؤوس والذين لهم عيون بصدرهم حسب رواية الليبيين»[2]. والحال أنني عندما كنت أجمع أنساب القبائل في الأوراس[3]، حكى لي رب عائلة قصة ذهاب شقيق جده إلى الحج[4]: «لقد كان حجاً حقيقياً ‹قال لي كان السفر على الأقدام عبر الصحراء›... وفي الطريق التقى المسافر التقي ثعابين كبيرة تأكل الآدميين وأناساً متوحشين يمشون عراة». وقد التقى على الخصوص ببني كلاب الذين قال عنهم عند رجوعه: «لهم رائحة وزغب وأذنا الكلب، أما الأيدي والوجه والأرجل فهي بشرية». وعلى ما يبدو، فإن ما يؤكد صدق رحلة شقيق الجد بشكل قاطع أمام أعين حفيد أخيه، هو الالتقاء ببني كلاب (أي الكائنات

---

(١) البخاري، **السُنة الإسلامية**.

(٢) **الكتاب الرابع**، ص ١٩٢.

(٣) ما بين ١٩٣٤ و١٩٤٠.

(٤) حوالى ١٨٥٠ على الأرجح.

التي ذكرها هيرودوت)، وليست شهادته التي تثبت وجود هذه الكائنات الغريبة ذات القائمتين. وفي طرف آخر من المغرب العربي ـ في إدليس، وهو مركز ثقافي صغير بالهجار ـ هناك رواية[1] منسوبة إلى مرابط رحل من منطقة تازروك وتوفي منذ ٥٠ سنة تقريباً، وبعد أن مكث في بلاد الزنوج فيما وراء بلاد هاوسة عند الآدميين وبني عريان الذين يعيشون بدون لباس، وبني كلبون. ويولد جميع الذكور في هذه القبيلة الأخيرة كلاباً، أما الإناث من الأطفال فهن أدميات، وهؤلاء وأولئك لا يتزوجون إلا فيما بينهم. أما بالنسبة إلينا، فإذا كانت شهادات مرابط الطوارق وحاج الشاوية المعاصرة تقريباً لا تكفينا، فها هو ذا غليوم لوتيستو، وهو ملاح فرنسي من القرن السادس عشر ومؤلف أطلس جغرافي[2]، يرسم في أطلسه هذا ثلاثة جمال إلى جانب رجال من دون رأس ورجال برأس كلب، وها هو ذا فارس إنكليزي[3] لا يوصف بالمتحل ولكنه يحكي ما رآه: «باتجاه الجنوب يوجد أناس ذوو خلقة قبيحة وذوو طبع سيئ وليست لهم رؤوس».

وها هو ذا كاهن أرسله البابا[4] إلى المناطق ذاتها وفي المرحلة الزمنية نفسها، يصف لنا «الناس الذين لهم وجوه كلاب»، وها هو أخيراً النحات البوركيوني من منطقة البوركوني، الذي نحت بوابة فيزيلاي، حيث رسم جميع هؤلاء الناس على اللوحة المؤدية إلى صحن الكنيسة إلى جانب المسيح بجلاله . . .

وبحسب تقليد مسيحي، فإن تقديس رجل برأس كلب[5] كان قد تم

---

(١) إنني أدين بهذا الخبر لغي بارير الذي يتكلم لغة الطوارق والذي يدير منذ ٨ سنوات مدرسة في هذه القرية الآبدة الصغيرة الواقعة في قلب الهجار.

(٢) حوالى سنة ١٥٥٠.

(٣) جان دوماندفيل، **كتاب العجائب**، وهو مخطوط مكتوب بالفرنسية. وقد قام المؤلف بأسفاره ما بين ١٣٣٢ و١٣٥٦.

(٤) لقد سافر الأخ أُدريو دوفريول سنة ١٣١٤.

(٥) لقد كان القديس كريستوف، هذا الشهيد المقدام في سبيل المسيح، ذا وجه شبيه بالكلب بحسب ما رُوي (إميل مال، **الفن في القرن الثاني عشر**، ١٩٤٧، ص ٣٣٠)، ويمكننا أن نرى من بين منحوتات كنيسة نوتردام دوباري تمثالاً للقديس كريستوف برأس كلب.

حقيقة. طبعاً، من غير المستبعد أن يكون لليوناني هيرودوت حق الأبوة على جميع هذه الحكايات[1] (فقد نسخت كتبه وتُرجمت وانتشرت بشكل واسع، كما تم وسمها بطابع فولكلوري)، لكن من غير المستبعد أيضاً أن يكون ما حُكي قبلاً في زمان هيرودوت ما زال يُحكى في الأمكنة نفسها. وفي جميع الأحوال، فإن النادرتين معاً ـ نادرة الأوراس والهجار ـ لم تعتبرا قط كخرافات من طرف الناس الذين أشاعوهما، بل كمغامرات حقيقية، حديثة العهد، مؤكدة، حدثت لأناس ذوي صيت محترم في جميع أنحاء قريتهم.

«هل هذا صحيح؟ لست أدري، إنني أكتب ما يقال..».

ركام هائل من القواقع الفارغة

إن هذا التحليل الطويل بعض الشيء، لم يكن يطمح فقط إلى تحديد موقع أقدم المؤرخين مقارنة بوارثيه الأكثر حداثة ـ وبالتالي التشديد على القيمة العالية جداً لأخباره ـ ولكنه كان يطمح أيضاً إلى إبراز مدى تميز المجتمعات التي نقوم بدراستها، بالطابع المحافظ؛ إنها محافظة بشكل غريب، كما سنرى.

إن ما نتمناه طبعاً هو ألا يقع الخلط بين الأشكال الاجتماعية ومضامينها، وسيكون من المؤسف ألا نهتم إلا بالأمور التي فقدت كل دلالة. ومع ذلك يجب أن نلاحظ هنا أن في إمكان المجتمعات الإنسانية أحياناً أن تشبه الفقاريات التي تستمر هياكلها العظمية في البقاء رغم اندثار ما يكسوها من لحم، لكن يمكن أن تشبه أحياناً الرخويات أيضاً التي تختفي أجسامها كلية بينما تنجو قواقعها فقط من دمار الموت.

إنها «أصداف اجتماعية» يعاد استعمالها أحياناً من طرف سلاسل عديدة من محار «عسكري البحر» المغتصب، وتتكسر بعد ذلك وتتفتت وتصبح على شاكلة بقايا غير تلوفة تقريباً، والأصداف هذه هي التي تسمى الفولكلور.

والحال أن الذي يقول «فولكلوراً»، يقول «شعباً له تاريخ»، لأنه يصعب بالنسبة إلى شعوب بلا ماض معروف أن نتبين داخل نسق منسجم قد نكتشفه

(١) نجد هذه الحكايات عند كل من المؤلفين القدامى مثل بومبونيوس ميلا، والذين نهلوا أخبارهم إما من كتاب هيرودوت وإما من التراث الثقافي المنبثق من هذا الكتاب.

في يوم من الأيام، ما يمكن لهذه الشعوب أن تقتبسه عن سابقتها.

إن الأمر يختلف في الوادي المتوسطي، فهناك يمكننا أن نجد عدداً كبيراً من العادات الراهنة. ثم لإثبات قِدمها السحيق منذ فجر اكتشاف الكتابة، بل قبل ذلك قليلاً حتى: مثل ذلك النفور تجاه لحم الخنزير الذي يمكن استنتاجه من الحفريات النيوليتيكية لمصر الوسطى.

أوراق دائمة وجذور متلاشية بفعل القِدم

أكيد أن تغييرات كبيرة حدثت في العالم على العموم، وفي المغرب العربي على وجه الخصوص خلال القرون الخمسة والعشرين التي تفصلنا عن وصف هيرودوت، وإن إرادة تقريب الشعوب العشرين الذين أحصاهم، من التجمعات الحالية، تعتبر اليوم عملية صعبة ـ إن ابن خلدون أقرب منا كثيراً، ومع ذلك، فإننا نتيه عندما نريد الاهتداء إلى القبائل المعاصرة داخل رقعة الشطرنج التي يعرضها علينا. لنتصور بالأحرى حضارات المغرب العربي القديمة كعقود، فمن فترة إلى أُخرى، ينقطع خيط من عقد وتتدحرج اللآلئ من شاطئ إلى آخر وتمتزج فيما بينها. بعد ذلك يجمع خيط دولة جديدة ذلك كله داخل نظام جديد. . . اللالئ تظل دائماً هي نفسها[١]، لكن العقد يتغير.

لقد كان أقدم إثنوغرافي دارس للمغرب العربي يهتم لحسن الحظ ببِنى القرابة، أي بما يعتبره أكثر جوهرية وأصالة داخل مجتمع معين، ذلك بأن وقائع الحضارة يقتبس بعضها بعضاً بسهولة ـ ويمكننا التأكد من ذلك كل يوم ـ لكن عندما يغير مجتمع ما بناه، فإن الأمر يشكل حدثاً من الضخامة، بحيث لا يمكننا تفسيره إلا بالرجوع إلى نضج داخلي لهذا المجتمع.

---

(١) تم إبداء الملاحظة نفسها ـ المتعلقة هذه المرة بالأصناف الإنثروبولوجية لا بوقائع الحضارات ـ من طرف م. كولينيون منذ سنة ١٨٨٦: «ليست هناك والحق يقال، ناحية لا يمكن أن نجد فيها العديد، إن لم نقل الأصناف المنتشرة في مجموع التراب».
ـ **نشرة الجغرافيا التاريخية**، ص ٢٨٢.
وما يقوله عن تونس يصح عملياً بالنسبة إلى المغرب العربي كله، غير أن تقدير نسبة اختلاط الأصناف يميز كل منطقة على حدة.

إن المغرب العربي الذي كانت فيه أشياء قابلة للتبدل (مثل الموضات النسائية وطريقة قص الشعر و«الريبورتاجات») ثابت ظاهرياً منذ ما قبل التاريخ إلى أيامنا هذه، والذي توجد فيه «وقائع الحضارة» الأكثر جهراً بإسلاميتنا (وهي وقائع تم إدخالها، والحالة هذه، في فترة تاريخية محددة)، متأصلة مع ذلك، قبل مجيء الوحي القرآني بألف سنة. إن المغرب العربي هذا سيظهر لنا الآن جذوره ـ وكم هي مختلفة عن الجذور التي يمكننا اكتشافها اليوم.

إنه نبات غريب مؤلف من أوراق دائمة وجذور تلاشت بفعل القِدم.

غيـرة مريبـة

لنترك الآن الكلمة للشاهد، وذلك بتسجيلنا بكل بساطة، ومن دون حذف، لكل ما يتعلق داخل روايته بموضوعنا مباشرة.

إنه سيسمي ويموضع ويصف بإيجاز حوالى عشرين شعباً، لكن لبعض تلك الشعوب عادات جيرانهم، ولهذا فهو ـ أي هيرودوت ـ لن يقدم لنا سوى خمسة انماط اجتماعية.

الشعب الأول (الآتي من مصر)[١]: «إن نساءه يضعن على كل ساق خلخالاً من النحاس، ولهن ضفائر طويلة. إن أفراد هذا الشعب يعرضون على الملك الفتيات الشابات اللواتي يكن مقبلات على الزواج، وإذا ما أعجبت الملك إحداهن فإنه هو الذي سيفتض بكارتها».

الشعب السادس[٢]: «من عاداتهم أن يتزوج الرجل عدة نساء، لكنهم يتمتعون بالنساء بشكل جماعي مثلما يفعل الماساجيتيون، فهم ينصبون عصاً أمام المكان الذي سيعاشرون فيه المرأة ثم يضاجعونها. وبالنسبة إلى النازامونس، عندما يتزوج الرجل أول مرة، فإن العادة تقتضي أن تمر الزوجة في الليلة الأُولى بين أيدي المدعوين كلهم، وأن تستسلم لرغبتهم، وعندما يتم ذلك، فإن كل واحد استسلمت له يناولها هدية استقدمها من منزله».

---

(١) أدرماشيد، **الكتاب الرابع**، ص ١٦٨.

(٢) ناراموس، **الكتاب الرابع**، ص ١٧٢.

الشعب العاشر[١]: «بعد ذلك يأتي الجنداليون الذين تضع زوجاتهم عدداً من الخلاخيل الجدلية بكعابهن. وبحسب ما يحكى، فإن كل امرأة، وفقاً لهذه القاعدة، تضع خلخالاً بالنسبة إلى كل رجل ضاجعته، وتعتبر المرأة المتوفرة على أكبر عدد من الخلاخيل هي الأكثر استحقاقاً، لأنها هي التي رغب فيها أكبر عدد من الرجال».

الشعبان الثاني عشر والثالث عشر[٢]: «إن للماشليس والأوزيس عادات متشابهة نوردها كما يلي: «في أثناء موسم الاحتفال السنوي بأثينا، تنقسم فتياتهم إلى معسكرين[٣] يتعاركان في ما بينهما بالحجارة والعصي، وتعتقد الفتيات بحسب ما تزعمن أنهن تنجزن احتفالاً تم تأسيسه من طرف آبائهن على شرف البلد التي ندعوها أثينا. وتسمى الفتيات اللواتي يلقين مصرعهن من جراء جروحهن عذراوات مزيفات. وقبل بداية المعركة إليكم ما يتم القيام به: يزين الناس الذين سيتحملون جميعهم مصاريف الاحتفال، رأس فتاة تكون هي الأجمل في كل مرة، بخذوة كورنثية ويلبسونها وقاء هيلينياً كاملاً، ويُركبونها عربة ثم يطوفون بها حول البحيرة».

وحول عاداتهم في الزواج: «فهم يمتلكون النساء بشكل جماعي ولا يعقدون زيجات بينهم». «وحينما يشتد عود الطفل المولود: فإن الرجال يجتمعون بالمكان نفسه عند الشهر الثالث، ويعتبر الطفل ابناً للرجل الذي يشبهه».

الشعب التاسع عشر: «وهم الزاويس[٤] الذين تقود نساؤهم العربات في ساحة الحرب»...

إن هيرودوت لا يقدم لنا معلومات أُخرى بشأن البنى العائلية لأجداد الأفارقة الشماليين. ورغم إيجازها، فإن هذه الملاحظات القليلة تسمح لنا على الأقل بعدم تفسير الغيرة الزوجية ـ غير المشكوك فيها ـ لسكان المغرب العربي

(١) جندانيون، **الكتاب الرابع**، ص ١٧٦.
(٢) ماشليس واوزيس، **الكتاب الرابع**، ص ١٨٠.
(٣) إن وصف هذا اللعب يطابق تماماً الكورا، وهو لعب طقوسي مقام في المغرب العربي حالياً.
(٤) زاويس، **الكتاب الرابع**، ص ١٩٤.

الحالين، بإرجاعها إلى عامل الوراثة. وبالنسبة إلى المسائل الأُخرى، فإن هذه الملاحظات تشدد عكس ذلك على نزعة المحافظة الاجتماعية المتشددة للمناطق غير الحضرية في المغرب العربي. إن الغيرة، بحسب ما نعرف، شعور طبيعي: ويمكننا فعلاً أن نلاقيها بدرجات وفي ملابسات مختلفة في القارات كلها. إن وجود الغيرة لا يعكس بمفرده إذن تأثير المجتمع، وعلى العكس من ذلك، فإن كلاً من الغياب التام للغيرة داخل وضعية تلاحظ فيها هذه الظاهرة مع ذلك، وتضخم هذا الشعور حينما يصبح معمماً، هما معاً واقعتان اجتماعيتان.

إن الحالة الأُولى قد وصفت لنا كحالة موجودة عند سكان معينين، والحالة الثانية - العكسية - هي بالضبط تلك التي يمكننا أن نلاقيها في أيامنا هذه لدى هؤلاء السكان أنفسهم.

ولتفسير هذا الاستبدال العجيب، علينا الآن تحليل العلاقة الأخوية، أي بدءاً بعلاقة الأخ بأخيه ثم بعدها علاقة الأخ بأخته.

الفصل الخامس

«ها قد حان موعد حفل زفافنا، يا أخي...»[1]

قسمات أخوية

في المجتمعات المغاربية القديمة رابطة تبقى دائماً أساسية، سواء كان النسب من جهة الأب أو من جهة الأم[2]: ألا وهي رابطة الأخوة.

إن هذه الرابطة الأخوية لها دور محدد على المستوى العام، يسمح لنا بإتمام نص أقدم الأثنولوجيين من دون مجازفة كبيرة، وضمان ألا تكون زمرة الأزواج الذين يتقاسمون زمرة النساء قد اجتمعت عن طريق الاختيار، عن طريق الانتخاب أو المصادفة، لكن قد تحدث في رابطة أولية متينة: ألا وهي الرابطة الأخوية؛ «فالأزواج المشتركون» الذين تحدث عنهم هيرودوت كانوا رجالاً من الفرقة نفسها، أو على الأصح من زمرة متشابهة تقريباً وكان يطلق عليها طبعاً اسم آخر.

أما في ما يخص النساء، فإن هذا التاريخ يضم بالنسبة إليهن ـ ويتعلق الأمر هنا بماض سحيق في الحقيقة ـ غموضاً ما في العلاقة بين الزوجة وأخت زوجها. إننا نجد في الحاضر، كما في الماضي كله الذي نعرفه في كل مكان من المغرب العربي، هذه الرابطة الأخوية مصحوبة بحد أعلى من الامتيازات

(١) إنها عروس تغني، والنص الأصلي يقول: «زفافك» (ضمنياً معي)، وللحفاظ على المعنى الحقيقي في الفرنسية، يجب أن نقول «زفافنا».

(٢) النظامان معاً يوجدان لدى البرابرة، لكن النظام الثاني لا يوجد إلا لدى الطوارق، وليس الطوارق كلهم، وعلى الأقل ليس في الوقت الحالي.

والمسؤوليات. فإذا أخذنا رجلين من أب واحد من شمال الصحراء، أو من أم واحدة من جنوب الصحراء، فإنهما لا يحملان فقط الاسم نفسه بل ولهما الشرف نفسه و«الشخصية» نفسها؛ ففي مسائل الانتقام يمكن أن يعوض الواحد الآخر بصرامة، ولقد عرفت عدة حالات ـ معاصرة ـ رحب فيها الرجال بالموت بسبب جريمة ارتكبها أحد إخوتهم.

إن هذا الاشتراك لجميع أنواع الربح والخسارة الذي يميز العلاقة الأخوية في المغرب العربي، لا يتضمن أبداً أي ألفة عائلية. فالأخ الأكبر محترم تقريباً مثل الأب، حيث يجب غض البصر في حضوره وعدم التدخين أمامه، والانسحاب من كل اجتماع رجالي يحضره هذا الأخ الأكبر خوفاً من سماع ما يندى له الجبين. في عدة عائلات مغاربية ينادي الأطفال أخاهم الأكبر «سيدي»، وعكسياً اعتاد الأخ الأكبر، وقبل أن يصير مراهقاً، التبجح أمام إخوته وأخواته الصغار.

سيدي أخي

صحيح أن هذا الصبي موجّه لمسؤوليات كبيرة، لأنه هو الذي سيكون له شرف وواجب تسيير الميراث المشترك كله، إذ بقيت العائلة موحدة (حالة عرفت عنها عدة أمثلة خاصة في الأوراس قبل ١٩٤٠).

هذه أيضاً نقطة، يبدو أن معطيات التاريخ وتلك الخاصة بالإثنوغرافيا لا تتطابق بصددها: لأن المؤرخ[١] (وبتسجيله لامتياز اختياري أو تقريباً أخلاقي للأخ الأكبر) يشير إلى أن هناك في كل من الشرق الأوسط واليونان والهند والصين مساواة سائدة بين الأبناء تترجم بتقسيم الميراث، ويعزو هذه القاعدة الوراثية الخاصة بالدولة الاستبدادية، مع مقابلتها بتلك السائدة في أوروبا العصر الوسيط، حيث يتم التعبير عن أحد مظاهر الحرية بامتياز الأخ الأكبر في باب الميراث. والحال إننا نعثر على احترام كبير للأخ الأكبر، بالضبط في المناطق التي تكون فيها قسمة الإرث المتساوية بين الأبناء مؤكدة منذ عهد قديم[٢] (اليونان،

(١) كارل. أ. ويتفوجل، **الاستبداد الشرقي**، منشورات Minuit، ١٩٦٤، ص ١٤٠.

(٢) قبل الإسلام بزمن طويل على كل حال. نعرف أن الإسلام ينص على تساوي القسمة بين الأبناء، ولكل فتاة (حظ) يساوي نصف حظ الولد. هذه القسمة بين الأبناء لم تكن شيئاً =

بابل، مصر)، في حين أن في البلدان التي تكون فيها اختيارات الأخ الأكبر في باب الإرث ما زالت راهنة (إنكلترا) أو تقريباً راهنة (فرنسا) يكون البروتوكول الأخوي متساوياً بشكل محسوس.

في الواقع، إن التقابل بين المعطيات الملاحَظة حالياً، وتلك التي نستطيع أن نعثر لها في التاريخ على آثار بعيدة جداً، أقل حجماً مما يبدو، لأن في مصر الفرعونية يحصل الابن الأكبر[1]، الذي يقوم بمهمات طقوسية مهمة، على حصة أكبر من الإرث الأبوي، لكن «في إمكان الأولاد الآخرين المطالبة بالحصة التي يضمنها لهم القانون. إن مبدأ قسمة متساوية تقريباً نجده مسطراً بوضوح في السنن البابلية. إن الهبة المقدمة من طرف الأب في حياته للمولود الأول لا تندرج ضمن القسمة النهائية.. فالقانون الآشوري أكثر تعقيداً. هنا كذلك يتمتع الابن الأكبر بامتياز، لكن جميع الإخوة الآخرين لهم الحق في حصتهم».

«في الهند، وضعية الابن الأكبر، الامتيازية في الأصل، أصبحت مختزلة بالتدريج...».

«لا تبكِ يا شابلون، سأشتري لك سمكة بالبيض»... نعرف أنه تم حذف حق الفتاة البكر رسمياً في فرنسا من طرف الثورة الفرنسية لكنه استمر عملياً في عدة عائلات حتى مطلع القرن العشرين (لاحظت ذلك خاصة في عائلة أمي من منطقة مجموعة الجبال الوسطى)، غير أن جميع الأطفال تقريباً يتم التعامل معهم حالياً وفي الجهات كافة على قدم المساواة. بعض الاستثناءات توجد في الجنوب وفي الغالب على الضفة اليسرى للرون بين Ventoux والبحر[2].

هنا، في العائلات القديمة، ما زال الناس الذين تجاوزوا الخمسين سنة ينادون صغارهم باسمهم الشخصي، في حين يستعملون الاسم العائلي بالنسبة

= جديداً في الشرق الأوسط، لكن مشاركة البنات والأم وأرملة الزوج في الإرث يعد أمراً جديداً.

(١) ويتفوجل، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٠ ـ ١٤١.

(٢) هناك عدة حالات معزولة، ما زالت في تخوم La Lozère ومنطقة اللوار العليا.

إلى الابن الأكبر بمفرده. في بعض هذه العائلات نفسها نقول «أنتم» للبكر منذ ولادته، ونرفع الكلفة دفعة واحدة عن جميع الأبناء الآخرين.

مشهد قصير وسريع، منذ ثلاثين سنة مضت، في ترام ليون: ثرثارة تقول لولدها ذي الثلاث سنوات لأجل تسليته: «لا تبكِ يا شابلون، سأشتري لك سمكة بالبيض، وستأكلها بشراهة». وهدأ شابلون، في حين سجل الإثنوغرافي أن المستبد الصغير هو الابن الأكبر لعائلة فرنسية من الجنوب الشرقي.

إن الوضعية على عكس ما سبق بالضبط في جنوب البحر الأبيض المتوسط، لأننا نجد هنا تقليداً قديماً جداً في التساوي بين الإخوة في باب الإرث وفي الوقت نفسه نجد انعدام تكافؤ فعلياً، ما زال قائماً في البروتوكولات العائلية.

قال لي طفل صغير، ذكي، من الأطلس المتوسط: «إني الابن الأكبر لأبي. ويبدو أن الأمر مهم جداً».

ما زالت مرتبة الإخوة عند الطوارق الحاليين أساسية. حتى أن المرء منهم لا يستعمل الكلمة التي تدل حرفياً على «الأخ» ـ ابن أمي: «أيتما»، إلا ليشير بصفة عامة لمجموع أقاربه[1]. بالنسبة إلى إخوته الحقيقيين أخي الأكبر «أمقار»، أو أخي الأصغر «أمدراي»، وسيستعمل هذه الكلمات حتى بالنسبة إلى ابن عمه أو بنت عمه الشقيقة، وقد يقول رجل عن فتاة شابة، يمكنها أن تكون أصغر منه، إنها تمقارت (حرفياً «عجوزتي»)، هذا يعني أنها ابنة عمه الشقيقة، بنت الأخ الأكبر لأبيه أو بنت الأخت الكبرى لأمه.

في هذه الناحية ذاتها، يتبع نظام الإرث الشريعة الإسلامية بإخلاص: حصة للفتاة وحصتان للولد، لكن الحقوق لا تنتقل إلا من خلال الفتيات (على الأقل في منطقة الهُجّار)، والحقوق الامتيازية تنتقل أولاً إلى الابن الأكبر، لكبرى الخالات أو لكبرى الأخوات.

(١) ولأجل تدقيق القرابة، نقول الآن: أيتما وين تي، حرفياً «ابناً من أمي من أبي» (قريب من جهة أبي)، أيتماوين أنا «أبناء الأمهات من أمي» (قريب من جهة أمي).

إن حق البكر مَثَله مَثَل عدة امتيازات أُخرى يمكنه أن يصبح مسؤولية، وأعرف عدداً كبيراً من الشباب الجزائريين الذين أكملوا دراساتهم العليا بفضل العمل الشاق الذي كان يقوم به الأخ الأكبر الأمي في المعمل والذي كان بمثابة أب حقيقي. في المغرب قد يتردد أخ أكبر من عائلة طيبة كان بمثابة أب حقيقي، في شأن زواجه، قبل تزويج أخواته. وفي لبنان لا تجرؤ يتيمة بالغة على الزواج من دون موافقة أخيها الأكبر. في اليونان، بمنطقة أركوليد، يفكر الشاب نيكوس البالغ من العمر ثلاثين سنة تقريباً في تزويج أخته وتعليم أخيه الصغير ـ وبعد ذلك فقط يؤسس عائلته.

هكذا، يمكن للملاحظ المعاصر أن يجمع من خلال العالم القديم كله في شمال وجنوب البحر الأبيض المتوسط، تقاليد قديمة أصلية متشابهة، ويمكن أن نصادف في كل مكان تقريباً رجالاً كانت لهم في عائلتهم وضعية محفوفة بالمخاطر من وجهة نظر نفسية: وضعية البكر. هذا الرجل الصغير الذي يتعامل معه إخوته الصغار كشخصية، والذي لا يجرؤ أبوه، حشمة، على تقبيله أمام عضو مسن من العائلة[١]، والذي سيدلَّل من طرف أمه، جدته، عماته، أخواته، وإذا لم يكن له خلق طيب سيصبح غير محتمل.

هناك مثل من تلمسان يقول: «تحتوي دار المسلمين على الملك، الملكة، الخنزير والحمار». الملك هو الرضيع ـ المولود الأخير: المازوز (يعني الخلَف) والملكة هي الأم، والحمار هو رب العائلة، أما الخنزير فهو الأخ الأكبر.

في الختام، إن احترام البكر خاصية مشتركة للعالم القديم بأسره: سواء كنا عند الحضر، عند الرحل أو عند المدنيين، أو كنا في منطقة ذات قرابة ذكورية أو في مناطق سكنية، حيث ما زالت القرابة الأنثوية هي السائدة ـ إن التوزيع المتساوي للإرث بين الأبناء يوجد في الغالب مع احترام شبه بنوي للأخ الأكبر ومع تفان شبه أبوي لهذا الأخير.

من الممكن، وإلا من المحتمل، أن يكون التوزيع المتساوي للإرث أقدم من الإسلام الذي ينص عليه: على الأقل في المغرب العربي. إن التوزيع هنا لا

---

(١) لا سيما أمام حميه (والد زوجته) وأمام أبيه، وبدرجة أقل أمام أخيه الأكبر.

يتوقف بالتأكيد على تدخل الدولة الاستبدادية (كما هو الحال في المشرق)[1]: ونشرح ذلك حالياً من دون جهد، بفعل كونه «يتفق» والشريعة الإسلامية، الشيء الذي قد يبدو شرحاً كافياً. في الواقع، إن الشرح لا يكفي، لأن المغرب العربي الفلاحي قد أعفى نفسه ببساطة من الخضوع للإسلام في باب الإرث الأنثوي - إذا كان قد أطاع الإسلام في باب الإرث الذكوري فلأنه لا يضايقه ظاهرياً أو ربما لأنه كان متوافقاً وعاداته.

يبدو لي فعلاً أن في المغرب العربي القديم، كما في اليونان الجمهورية، كان الطاويست، الفرقة، العشيرة، القبيلة:

- أي كان الاسم الذي يعطي للزمرة - في حاجة أكبر إلى الرجال، إلى الأرض أو إلى الماشية. وفعلاً ما قيمة ميراث غير محروس؟

عندما عُممت الملكية الفردية، أمكن أن يكون للقسمة المتعادلة منذئذٍ هدف الاحتفاظ بالإخوة الصغار. هذه الحاجة إلى الرجال يمكنها من جهة أُخرى أن تتألف مع بنية تقليدية للقيادة تعطي الامتياز للبكر. إلا أن الميراث المشترك في منطقة فلاحية، وفي مرحلة معاصرة تقريباً، كان مسيراً أكثر منه مملوكاً، وكان هذا التسيير يؤمن من طرف القيدوم: وهو أقدم باق على الحياة لأقدم جيل.

شـرف الأخـوات

إن بكارة الفتيات، في البحر الأبيض المتوسط كله، شمالاً وجنوباً، مسألة تهم أولاً - وبشكل غريب - إخوتهن، وتهم الأخ الأكبر أكثر من الأخوة الآخرين.

فالذكر الصغير، ذو السبعة أعوام، يكون مدرَّباً سلفاً على القيام بمهمة المصاحب/ المراقب لمراهقة فاتنة، ويعرف بالضبط أي نوع من الخطر هي معرضة له - حيث أن هذا الخطر يقدم للطفل كسبب لعار مخيف، يسقط كلية العائلة المعتزة بكبريائها في الدناءة، ويلطخ حتى الأجداد الأماجد في مقابرهم، وهو

(١) بحسب ويتفوجل، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٠.

شخصياً الصبي القاصر، المسؤول أمام ذويه عن رأس المال الصغير والخاص جداً للشابه الجميلة التي هي بمثابة خادمته، أمه، موضع حبه، وجوده، وغيرته. . . باختصار: أخته.

لا غرابة في أن يؤدي تهيؤ كهذا بالرجل الصغير، إلى عدد من الجرائم النموذجية على صعيد البحر الأبيض المتوسط. نأخذ هذا المثال مصادفة، والذي كانت ضحيته شاعرة إيطالية شابة، معاصرة لفرنسوا الأول.

- أن هذا النوع من الجريمة لا يزال حالياً في اليونان، ولبنان، والعراق[1]، وفي المغرب العربي كله.

إيزابيلا مورا بنت بارون دي فافال. ولدت سنة ١٥٢١، وقُتلت وعمرها ٢٥ عاماً.

«في قصر[2] لا يبعد كثيراً عن بوليطا تسمى نوفا سيري، كان يعيش رجل إسباني نبيل، دون دييغو ساندوفال دي كاسترو، حاكم كوزينزا. وكان شاعراً هو الآخر، من المحتمل جداً، ألا يكون بين إيزابيلا ودون دييغو إلا تبادل أبيات شعرية - ولم يسبق لهما أن تراءيا من قبل. . . ذات يوم وقد أرسل لها دون دييغو بواسطة جابي عائلة مورا، رسالة شعرية (أو مجموعة قصائد، النقطة ما زالت غامضة) احتجز إخوة إيزابيلا الرسالة، فقتلوا الجابي، وطعنوا أختهم بشكل مميت، ولم يكفهم الأمر فنصبوا كميناً قاتلاً للرجل الإسباني النبيل».

يشير دومنيك فرننديز بصدد هذه الجريمة القديمة والنموذجية إلى «الضراوة الذكورية المترقبة لفضيلة الأخوات» وإلى «جريمة العفة، أي الغيرة المقنعة من قريبة محرمة بقناع الدفاع عن العائلة». . .

(١) في سنة ١٩٦٤، نشرت الصحافة مرسومين للمريشال عارف واحد يتعلق بالعفو الكلي على ٤٣ أخاً سبق أن قتلوا أخواتهم، والآخر خفف إلى سنة جميع الأحكام المتجاوزة لهذه العقوبة والمتعلقة «بجريمة الشرف».

(٢) روى قصتها دومنيك فرننديز (المرجع السابق، ص ٦١) بحسب العلامة الإيطالي بنيديتو كروشي، نعرف عنها ثلاث أغنيات، وعشر قصائد من أربعة عشر بيتاً من الشعر في كل واحدة منها.

وحتى لا أثقل على كاهل هذه الدراسة، سأحد من الاستشهادات والمراجع؛ فهذا كاتب في المجال العمومي - يتعلق الأمر بستاندال[1] - وحكاية مسيحية حدثت منذ أربعة قرون (في ١٥٥٩ بالضبط): في اليوم الثلاثين، وصل إلى غاليس دون ليوناردو ديل كارديني من عائلة الدوق، ودون فيران دي أليس شقيق الدوقة، واتجها إلى جناح هذه الأخيرة لاغتيالها. «وقد أشار أحد الرهبان (كان موجوداً قصد تعميد الدوقة) إلى أخيها، أنه من الأفضل انتظار وضعها لحملها قبل قتلها - أجاب الأخ: تعلمون أنه عليَّ أن أسافر إلى روما، ولا أريد أن أظهر بهذا القناع على الوجه»[2]. . . يعلق ستاندال في مكان آخر: «بضع سنوات فيما بعد، تزوج الأمير أورسيني أخت الدوق الأكبر لطوسكان، وأعتقد أنها خائنة فدس لها السم في طوسكان بالذات بموافقة أخيها الدوق الأكبر»[3].

«ولم تُنسب إليه تهمة القتل قط. وقد توفيت عدة أميرات من عائلة Médicis بهذه الطريقة».

يعزو ستاندال هذه العادات إلى «الانفعال الإيطالي»، وأي انفعال؟ إن الأمر لا يتعلق بغيرة الزوج، إنما بالأخ الذي يقتل أخته. فالمستبد الصغير، رب العائلة الشاب، هو أيضاً ذلك الكائن الذي يعيش إحباطاً نوعاً ما.

تنتمي الأم، في المغرب العربي، فعلاً، إلى المولود الأخير: فهي له خصيصاً، وبلا منازع، كسيد آمر، في النهار كما في الليل. في النهار يعيش ملتصقاً بها، متحركاً معها، وهو على ظهرها، أو غاف على ركبتها: في الليل ينام عارياً ملتحماً جلده بجلدها. يرضع متى يشاء، ينام، يستقيظ أو يقضي حاجته بحسب رغبته. فيما وراء الأم وداخل ضباب عطوف، يتحرك عضو من

---

(١) ستاندال، **يوميات إيطالية**، مكتبة La pleiade، روايات وقصص، المجلد ٢، ص ٧٢٨.

(٢) المصدر نفسه، ٧٣٠.

(٣) تحكى حكايات من هذا النوع في قرى المغرب والقبايل، ولا نعثر على ذلك في الأوراس، حيث أن المرأة قد تُقتل في بعض الأحيان من طرف أبيها أو إخوتها (نعلم أن القرآن يمنع قتل المرأة الزانية عندما لا توجد الحجج الكافية: ويفرض أن تكون الزانية قد شوهدت من طرف عدة شهود. أما الإنجيل فيمنع قتل المرأة الزانية). يشترك المسيحيون والمسلمون المتوسطيون في كونهم يأخذون بعين الاعتبار تلك الممنوعات والمحظورات.

أعضاء العائلة - أخوات، عمات، جدات، آباء، أعمام - لا يميز الطفل بينهم جيداً، يلاطفه عند المرور ولا يناوئه أبداً.

وعندما تأتي ولادة جديدة، يفقد الولد السابق كل شيء في بضع ساعات: يفتقد مكانه في السرير. يفقد الثدي، ويفقد كائناً كان تحت تصرفه المطلق والذي لا يمكن نسيانه. وتكون الصدمة العاطفية قوية، قوية إلى درجة أن آلاماً قاسية تنتج منها في بعض الأحيان، وبشكل مسترسل، تستوجب وجود علاجات تهدف إلى إبعاد هذه الآلام عن الطفل: في منطقة وهران مثلاً، ولمنع المولود ما قبل الأخير من كره المولود الجديد (أو من أن يسقط مريضاً أو يموت من جراء هذه الكراهية) يتم تهيئة بيضة، يكون الطفل الأول شغوفاً بأكلها وتوضع بين فخذي المولود الجديد حتى يتغوط فوقها. ويمكن للغيور الصغير أيضاً أن يلحق أذى بالمولود الجديد... أن «يأكله»، بحسب التعبير الشعبي.

يبدو أن هذا المرض معروف في الجزائر كلها، بأعراض متشابهة، إلا أنه لا يحمل الاسم نفسه في كل مكان: ففي منطقة عناية[1]، يحمل الاسم التالي: بوبعران. ويرجع هذا الاسم إلى عرضه الأهم: بعران[2] يعني الشرج، والغيرة تبرز الشرج - وكترياق، تغمس سبع ثمرات في دم الولادة ويطعم بها الطفل المحبط في الوقت الذي تضاعف العائلة كلها اهتماماتها الحنون اتجاهه.

يقال عادة في الجزائر كلها لرجل يكره آخر: «إنه لم يولد من بعدك على كل حال».

وليست الأزمة الوحيدة للطفولة هي ولادة أخ: بل في عدة عائلات، ما أن يصل الرجل الصغير إلى مستوى الفهم، حتى يشعر بحزن كبير. كم هي مهزوزة وضعية الأم في المنزل - حيث تكفي نزوة أبوية، لتصبح خارج المنزل،

(١) درس كلود ومبروكة بروتو، «الأمراض الاجتماعية بمنطقة عنابة»، يوجد جزء من توثيقها في الأطروحة غير المنشورة لكلود بروتو (المدرسة التطبيقية للدراسات العليا، القسم السادس). وقد وضعت الأطروحة يوم ١ آذار/مارس ١٩٦٤ والمعنونة بـ: «الشمال الشرقي لقسطنطينة، الركيزة الأولى للشخصية».

(٢) هذا الاسم مستعمل في الجزائر العاصمة.

ويعرف الطفل ذلك في وقت مبكر.

في بحر الأعوام التي أمضيتها مع شبه الرحّل من جنوب الأوراس، غالباً ما أسر لي الكبار بحقائق تبرز ذكرى ذلك القلق الطفولي. ورأيت طفلاً صغيراً عمره ١٣ سنة صرح لي باكياً: «إذا ما طُردت أمي سأنتحر» (حدث هذا سنة ١٩٣٥، ولم يحدث آنذاك أي انتحار[1] في الأوراس. لكن الطفل كان في المدرسة وكان يعرف الكلمة).

لقد تحدثت بعجالة عن علاقات الطفل بأبيه وبالبكر مع إخوته؛ علاقات جافة فيها احترام وإحراج، تتحدد ملامحها منذ اللحظة التي يخرج فيها من تلابيب حاضنته، كما يجب الإشارة أيضاً إلى حب امتلاكه لأمه وإلى كون الطفل الصغير يغدو مبكراً الحارس المسؤول عن أخواته (لقد رأينا أن طفلاً في أقل من العاشرة من عمره، في شمال البحر الأبيض المتوسط كما في جنوبه، يرافق بنات عائلته بشكل طبيعي كمحافظ على الاحترام، كمراقب). وهذا النوع من العلاقات الأخوية[2] يمكنه أن يتطور إما نحو حنان كبير وإما نحو استبداد مقيت.

ليس قصدي أن أدرس هنا الصدمات النفسية التي تكبدها الطفل المغاربي خلال السنوات الأُولى من حياته؛ أريد فقط أن أشير إلى أن هذا الحقل الطفولي أكثر ملاءمة للعذابات المبكرة، التي تكوّن وتشوه النفوس، من أي حقل آخر.

وإنه لحدث على كل حال، أن تكون الجرائم المسماة عاطفية على ضفتي البحر الأبيض المتوسط، نسبياً أكثر عدداً مما هو عليه الحال في باقي العالم، وأنه لحدث أيضاً كوننا لا نستطيع، ضمن الأسباب التي تعبد الطريق أمام هذا الإجرام، إلغاء الخلفية الدراماتيكية للطفولة كعلة...

صناعة الغيرة

إلا أن العامل المحدد، ليس ذلك المذكور أعلاه، ونقترب أغلب الظن

---

(١) كان الانتحار قليلاً في الجزائر قبل سنة ١٩٤٠، مع إشارة إلى بعض الحالات في المدن، ولا سيما قسطنطينة. أما الآن، فقد أصبح متواتراً.

(٢) في إفريقيا الشمالية، الأخت الأرملة أو المطلقة تأتي للعيش مع أخيها، وتكون لها في الغالب سلطة أكثر من الزوجة.

أكثر من الحقيقة إن نحن عكسنا التفسيرات الروتينية: ليست الغيرة هي التي توحي في الغالب بالجريمة، ولكن الجريمة (أو صورتها الاجتماعية) هي التي تصنع الغيرة.

يوجد فعلاً في جنوب أوروبا وشمال إفريقيا سيناريو حقيقي للخيانة النسوية، وجميع سكان هذه المناطق يعرفونها جيداً منذ نعومة أظفارهم. وعندما تظهر في عائلة ما الشروط المناسبة للمأساة، ترتج الآلية الاجتماعية كلها من قريب إلى قريب، وتوحد قواها الأساسية للدفع حينئذٍ بكل واحد من الممثلين ليلتزم بالدور المنوط به منذ القِدم.

في قبائل الأوراس، حيث أقمت مدة، أُتيحت لي فرصة التعرف جيداً على أناس وعائلات أُدرجوا ضمن هذه الأنواع من الجرائم التي، يسميها القضاة أنفسهم عاطفية. هكذا علمت بأن القتلة يمكنهم أن يُدفَعوا دفعاً إلى ارتكاب الجريمة من طرف أقربائهم ـ يمكننا القول أنهم يُدفعون إلى ذلك بالركلات ـ فبالنسبة إلى واحد منهم (وقد كان طباخي لبعض الوقت بعد ارتكاب جريمته) هدده أعمامه بالقتل أمام العموم قصد إرغامه على قتل عشيق زوجته المفترض: وقد تحقق لهم ما أرادوا. في حين أن القاتل المسكين كان يتعاطف مع غريمه علانية ويكره زوجته التي كان يتمنى التخلص منها بكل حرقة. طبعاً يمكن لعواطف عنيفة وواقعية أن تعزز بتأثيرات الاحترام الإنساني والامتثال للقواعد الاجتماعية، لكن، وكما رأينا ذلك، فإن هذه العواطف ليست ضرورية.. وعكس ما كنا نعتقد، غالباً ما كان الضعف، والانقياد واللين، أشياء كافية لتوفير حصة الدم والحكايا المأثورة التي يتطلبها الرأي العام بكل ضراوة.

سيكون إذن الرأي العام هو المسؤول. وما هو الرأي العام؟ من أين جاءت هذه الحاجة العطشة للدم في المجتمع المتوسطي؟ كيف أمكن لهذا المجتمع الأقدم حضارة في العالم أن يشكل هذا القالب الأجوف الذي ينصبه، من جيل إلى جيل، لمرونة الرجال؟

يوجد بالتأكيد، في شمال إفريقيا كما في جهة أُخرى، مستبدون متكبرون، كما يوجد الغيور القلق، لكن هناك أسباباً اجتماعية شتى تشجع هاتين الخاصيتين: أولاً إضفاء قيمة مفرطة على الرجولة، وبهذا تغدو سبباً للقلق الشديد بالنسبة إلى الرجل المضطر إلى المواجهة في جميع الظروف مع النموذج

«المثالي» المتبجح الكامل ـ ليس هذا كل ما في الأمر، بل هناك الطفولة الصغيرة التي عرفت إحباطات أكثر قساوة من تلك التي يخضع لها اليوم البورجوازيون الصغار للحضارة «الصحية» الأوروبية ـ الأمريكية.

أنصح لقراء هذا الفصل بأن يشاهدوا، أو يعيدوا مشاهدة شريطين إثنوغرافيين ممتازين: «طلاق على الطريقة الإيطالية» و«هجرت بعد إغراء». إن مؤلفهما، بيترو جيرمي، كاتب أخلاقي بالتأكيد، وسوسيولوجي بارز.

إن حبكة هذين الفيلمين الزاخرين بالفكاهة، لكن على أرضية كئيبة، ذات خصوصية إيطالية. ولقد عرفت جزائريات بكين عند مشاهدتهن الفيلمين في باريس، لفرط ما ذكّرهن المناخ الشنيع لبعض المشاهد برعب طفولتهن.

من خلال تتابع للمشاهد التي تكون حقاً مختارات ساخرة عن المجتمع الوسيطي، نرى ظاهرة الاستحواذ الجنسي مفروضة على الرجال، لا بالفصل التام بين الجنسين فحسب، ولكن كذلك بأدب يجبر أي طفل على مغازلة أي امرأة، عندما يجد نفسه معها بمفرده. نسجل كذلك نوع القبول الصامت، لكن الشامل الذي يحيط بالدعارة[1]. إن الفتى ـ لكن على الخصوص الابن الأكبر ـ ملك كسول تتلاقى حوله الاهتمامات الدنيئة لجميع نساء العائلة، اللواتي تتراوح أعمارهن ما بين سنة وثمانين سنة، لأجل ذلك يجب أن يكون على الدوام شبيهاً بالسيد المسيطر، المهيأ باستمرار لذبح جميع الرجال واغتصاب جميع النساء.

في بعض الأحيان، يجب أن يكف هذا النوع من الاستعداد الخفي الذي يطلب منه، عن أن يبقى ضمنياً، ويكون رودريغ المسكين قد أُخبر بأن من الواجب عليه «الظهور». وفي انتظار الاستعراض، يصعد الضغط الاجتماعي حوله بانتظام إلى أن يصبح لا يطاق، ويكون هذا الضغط أولاً عائلياً ثم تتدخل المدينة كلها، وليس هناك مجال للتردد، لأنه لا وجود إلا لحل واحد. والاغتيال في البحر الأبيض المتوسط كله، وأمام أي حدث كيفما كان، ينقسم المجتمع

---

(١) الدعارة ليست محدودة في صقلية فقط، لقد أشار لي طبيب قروي، عارف لخبايا قريته، إلى أن أغلبية الرجال المتزوجين يترددون على محل الدعارة في أوقات محددة على مرأى ومسمع زوجاتهم (تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٦٥).

المنغمس سابقاً في صراعات غامضة، أوتوماتيكياً إلى زمرتين: المناصرون والمعارضون. أنصاركم سيحنون رؤوسهم مكبلين خجلاً، تحت هزء معارضيكم. ثم إن تلك الحركة المنتظرة منكم - إصبع واحدة تضغط على الزناد - ستعكس مواقف الفريقين. وستنجزون الشيء الذي من أجله ولدتم.

النساء مثل الحقول: جزء من الميراث

لفهم هذه الغيرة المفروضة، يجب الآن أن نتتبّع الأشكال التي يتخذها الزواج الداخلي القبلي، أو ما تبقى منه في مجموع حوض البحر الأبيض المتوسط.

فالمغرب العربي القديم في أغلبيته يمارس الزواج الداخلي، لكن هذا لا يؤكد أي شيء في ما يتعلق بماضيه البعيد، حيث نعثر أيضاً على بعض الآثار القليلة لبنية أخرى، وحيث تحدث أمام أعيننا انزياحات في هذه الميادين القليلة الحركة ظاهرياً[١].

هناك أسباب أُخرى أكثر صحة تقف إلى جانب القِدم النسبي للزواج الداخلي: إنها تتعلق بانتشاره - طبعاً إن الزواج الداخلي ليس عربياً فقط أو بربرياً فقط، وإنما ينتمي إلى «الشخصية» البربرية الأكثر قِدماً، وإلى «الشخصية» العربية الأكثر قِدماً كذلك، مع احتمال قوي جداً ألا يكون بينهما استعارة من الواحد إلى الآخر.

يمكننا علاوة على ذلك أن نوسع مجال هذا الزواج، أن يشمل - وقد رأينا أنه يتجاوز المجموعة العربية البربرية، المجال السامي كله، بل والأبعد من ذلك، مجموع العالم القديم.

لنبدأ تحليقنا السريع من المركز المحتمل للظاهرة: المشرق المتوسطي. كتب جاك بيرك[٢] في حديثه عن العراق: «عادة أُخرى، تنبثق من أساس مشترك لمؤسسات ملحوظة مسبقاً قبل الإسلام، قد اجتاحت العالم البدوي لأنها تكون

---

(١) مجتمع الطوارق - مثلاً - عرف تطوراً منذ مدة (أقل من ثلاثة قرون): انتقل من نسب عائلة الأم إلى نسبة عائلة الأب.

(٢) جاك بيرك، **العرب من الأمس إلى الغد**، لوسوي، طبعة جديدة، ١٩٧٦، ص ١٨٧.

خاصية أرستقراطية في العالم المديني. إن الأمر يتعلق بالزواج (الاختياري) الذي يؤهل ولد العم من الأب... للحصول، إذا جاز القول، على ابنة عمه. إن هذا الجانب القرابي من جهة الأب الواحد نجده بارزاً في الأهوار، حيث أن القيمة المتناقضة للمهر[١] تزكي التقارب العائلي لطالب الزواج، إن العم يملك حق النقض... فيما يخص زواج ابنة الأخ وإذا تم تجاهل ذلك الحق، ففي مستطاع العم أن يعاقب على ذلك».

في سوريا ولبنان، التقطت عدة أمثلة عن الزواج بين أبناء العم الأشقاء من ذرية الأب: لقد استمر هذا التعامل حياً في إيران عند القبائل المسلمة، خاصة لدى بختيار وكاشجي. واستمر أكثر عند الزمر الأقلية طبعاً ـ وقد أشار لي الدروز إلى هذا النوع من الزواج في عائلتهم الخاصة، وما زالت العادة بارزة بشكل قوي في المجتمعات من أصل مجوسي من فارس[٢]، لأن الزواج المقدس المجوسي كان يتم بين العم وابنة أخيه، بين العمة وابن أخيها، وكذلك بين الأم وابنها أو الأب وابنته. حالياً نعثر على زواج داخلي صارم في أوساط فارسية كانت مجوسية، حيث لا يتم الزواج إلا بين أبناء العم الأشقاء.

عند مسيحيي الشرق[٣] (أقلية في آسيا الصغرى، كما كان اليهود في كل جهة) ما زال رجل الدين يزكي اقتران ابنة الأخ بعمها: هذا الزواج يتطلب إعفاء، إلا أنه، وبسبب أقلية المسيحية في مناطق الشرق، لم يرفض قط. هذه التزكية ترجع، بحسب ما قيل لي، إلى الخوف من الذهاب بعيداً في الاختلاط، إذا ما تعود السكان الملكيتيون على الزواج من خارج أفراد عائلتهم، ويقبل هؤلاء السكان إذن القران بالمسلمين، باليهود، أو بالأرثوذكس، وباعتبار عددهم الصغير، فإن مثل هذا الزواج قد يساهم في تحجيمهم، لأن الزواج المختلط يكون في صالح المجموعة الأكثر كثافة، لهذا تتحفظ منه الأقليات الصغيرة.

---

(١) Douaire مهر مؤجل، صداق.

(٢) أنا مدينة بهذا الخبر للسيدة بيريي، مصورة فنية أمضت مدة بين ظهرانيهم ـ نلاحظ في العالم القديم أن مشروعية «زواج المحارم» لم يكن محصوراً في مصر الفرعونية.

(٣) خاصة في لبنان، لا يرفض الإعفاء أبداً ـ على العكس من ذلك في اليونان المعاصرة، وقفت الكنيسة الأرثوذكسية بحزم ضد زواج أبناء العم، ووصلت عملياً إلى حذفه.

أجل، تأتي الدوافع الاقتصادية، في بعض الأحيان، لتدعيم التقليد فتكون هناك رغبة، من خلال الزيجات العصبية، في القدرة على عدم تشتيت الميراث، إن تلك الدوافع مع ذلك غير كافية لتفسير تردد كهذا، وتفسير مستبقات في مثل هذا العناد ـ وغالباً ما يكون الميراث معدوماً تقريباً ولا شيء يوجب القسمة في الواقع.

هذه ليست هي الحالة الموصوفة لنا في كتاب[١] متعلق بعائلة روتشيلد:

«في ١١ تموز/يوليو ١٨٢٤، أفصح أصغر أبناء ماير، ويدعى جيمس، بصراحة عن الدوغم السلالي لعائلة روتشيلد. لقد تقدم تحت تشيبه ـ قبة: زفاف يهودية ـ مع بيتي ابنة أخيه سليمان ومنذ ذلك العهد[٢] أصبح مقبولاً، كما هو الأمر مع هابسبورغ بأن ألمع زواج بالنسبة إلى عضو من العائلة هو الذي يكون في داخل أسرته. فمن بين ثلاثة عشر زواجاً أقامه أولاد خمسة إخوة، تسعة كانت مع بنات أعمامهم. ومن بين ثمانية وخمسين زواجاً أقامه أحفاد ماير الشيخ فإن النصف بالضبط تم بين أبناء العم الأشقاء».

من المحتمل أن يكون (في الواقع) التقليد الخالص للاهتمامات الدينية والنزعة الخصوصية المميزة للأقليات قد لعبت دوراً أكثر أهمية حتى لدى الروتشيلد في القرن التاسع عشر ـ من عبادة المال ـ إن الاختلاف الحالي، حول هذه النقطة، كبير جداً بين الشمال الشرقي والغرب الشرقي للبحر الأبيض المتوسط.

لقد لاحظنا كم أن رجل الدين المسيحي مسامح في لبنان فيما يتعلق بالزواج الداخلي إلى درجة مباركة زواج العم من ابنة أخيه، على العكس من ذلك فإن الكنيسة الأرثوذكسية في اليونان تمنعه إطلاقاً، «إنه زواج شيطاني»، كما قالت لي امرأة يونانية شابة ـ فالكنيسة ترفض مباركة[٣] لا فقط الزواج بين أبناء العم الأشقاء ولكن كذلك أبناء العم المنحدرين من أبناء العم الأشقاء...

---

(١) فردريك مورتون، **التاريخ الحقيقي لعائلة روتشيلد**، باريس، غاليمار، ١٩٦٢.

(٢) إن الأمر يتعلق في الواقع بتقليد من أقدم التقاليد، مثبت بشكل واسع في العهد القديم. انظر الفقرة ٣، **بطريركات بني إسرائيل**، ص ٧٩ ـ ٨٢.

(٣) لا وجود للزواج المدني في اليونان.

وأبناء العم المنحدرين من هذه الفئة الأخيرة إلى حدود الدرجة الثامنة.

إن القرابة بواسطة المصاهرة تشكل أيضاً حاجزاً في وجه الزواج، إلا أن هذا الحاجز لا يمتد إلا إلى حدود الدرجة الرابعة من هذه القرابة. هذه الممنوعات تدل في جميع الأحوال على أن أخوين لا يمكنهما نكاح أختين، وأخ وأخته لا يمكنهما الزواج من العائلة نفسها (زواج يحرمه القرآن، لكنه ما زال قائماً في القبايل وفي مناطق مسلمة أُخرى). هذه الممنوعات تدل كذلك على أن روابط القرابة تميل إلى الانتشار بشكل أبعد مما هو عليه الأمر في باقي مناطق البحر الأبيض المتوسط[١].

ولدنا الذي تزوجته أجنبية

في فرنسا يحارب رجل الدين الكاثوليكي صراحة، ومنذ قرون، الزواج الداخلي، وذلك بفرض شروط تمنع الزواج بين الأقارب. وفي الاتجاه نفسه، تلعب بعض الخرافات، ومشكلات نسالية عامة دور المانع، إلا أن زواجاً داخلياً من العائلة بارزاً بما فيه الكفاية استمر في الوجود إلى حدود الحرب العالمية الثانية، لكن المعارضات الخاصة بهذه المسألة توضح لنا أن هذا الزواج ربما بقي محتشماً جداً، ولم يتجسد في عادات رائعة ومثيرة. يجب أن نتجنب فعلاً الخلط الكلي بين الزواج الداخلي من العائلة والزواج الداخلي الموسع الذي يتم على المستوى الإقليمي، الأكثر بروزاً، والمشار عليه من طرف كل الفرق الفولكلورية، في جميع أقاليمنا: «إن أهمية[٢] هذا الميل في العادات الفرنسية ما زالت متجلية رمزياً في عدة عادات للزواج، خاصة في عادة 'المانع' أو 'المتراس'... الذي يبدو من خلاله شباب القرية وكأنه يعارض زواج فتاة من البلد بـ 'أجنبي' مع العلم أن هذا الأخير لا يسكن في بعض الأحيان إلا على بضع كيلومترات أو يقطن في جماعة محايدة».

في ماض قريب جداً، لم يكن التعارض رمزياً فقط. ويؤكد أرنولد فان

---

(١) وتعني أيضاً أن بحثاً إثنوغرافياً بشأن تاريخ الزواج في اليونان سيكون مهماً. (لا أحد ينسى من جهة أُخرى ما هو موطن «عقدة أوديب»).

(٢) أرنولد فان جنيب، **موجز الفولكلور الفرنسي**، الجزء ١، باريس، Picard، ١٩٤٣، ص ٢٣٤.

جنيب ذاكراً رجل الدين جورج بروكال أن ما يقوله عن البيريغورد صالح بالنسبة إلى جميع الجهات الأخرى.

«سابقاً لم يكن الرقص يتم إلا في ما بين سكان القرية نفسها. ولم يكن للفتيات الحق في أن يغازلهن أولاد جماعات مجاورة. وعندما تُنتهك هذه القاعدة، تنبثق مشاجرات في مكان التجمعات. إن جلسات سكر النهار تحول الضربات المتبادلة إلى ضربات قاسية. وما زالت تُمارَس بعض الانتقامات في البقع العراكية ضد غير المرغوب فيهم، بضربهم في الشوارع أو بنصب كمين لهم على الطريق»[1].

أتذكر في هذا الصدد اندهاش عائلة باريسية كانت تمضي عطلتها في قرية بروتاني زارت بغتة عائلة تعيش جواً مأتمياً. بانفعال وحرج تساءل الزوار عن طبيعة الشقاء الذي ألَمَّ بأفراد هذه العائلة المسكينة، فأجابوا: «ولدنا تزوجته أجنبية. . .» أجل أشفقوا من أمرهم، ثم حان وقت المواساة: «لكن من أين جاءت هذه الأجنبية؟» ويتجدد النحيب، «لقد جاءت من نانت».

لقد تراجع حالياً ـ لكن منذ مدة قصيرة ـ عدد الزواج العصبي في فرنسا بشكل سريع، كما تبين ذلك دراسة حديثة تتعلق بالمرحلة ما بين ١٩٢٦ ـ ١٩٥٨: «إبان المرحلة الأولية، لوحظ أن المعامل الأكثر ارتفاعاً يوجد في جزيرة كورسيكا، في البلدان الجبلية، وفي المقاطعات الريفية التي لا تملك مراكز حضرية مهمة»[2].

في سنة ١٩٢٦، كان المعامل المتوسط لقرابة العصبية الأكثر انخفاضاً يوجد في منطقة La Gironde (١٦) والأكثر ارتفاعاً نعثر عليه في منطقة Le Cantal (١٨٠)، الألب العليا (١٨١) ومنطقة L'aveyron (١٨٢)، منطقة Le Marbihan (١٨٨) وأخيراً في كورسيكا (٢٧٤).

بصدد هذه المنطقة الأخيرة، وقصد تبيان أن الإثنوغرافيا مفتاح يحل

---

(١) الأب جورج روكال، **فولكلور البيريغورد القديم**، Guitard، ١٩٢٧، ص ١٣، ذكره جنيب، الجزء ١، ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧.

(٢) Jean Michel Gaux et Jean sutter، «تطور قرابة العصبية بفرنسا ما بين ١٩٢٦ و١٩٥٨» مع معطيات حديثة ومفصلة، مجلة *Population*، ١٩٦٢، ص ٦٨٣ إلى ٧٠٢.

مشكلات عدة (بما فيها فهم رقم لا تكفي العزلة الكورسيكية في شرحه) سنذكر فقط طلب العفو[١] الذي تقدم به شاب متزوج من كورت سنة ١٧٦٠ إلى السلطات التي اعتقلته (لقد أدين بتهمة تقبيل زوجته قبل نكاحها).

«سيدي الفاضل والمحترم، يعرض أنجلو فرانكو فاليو ابن جيوفاني باريرا من منطقة كورتي بتواضع أمام سموكم أنه أحب لوسي ابنة المرحوم باتيستا سانتوسي من المنطقة نفسها، ومحبته لها تجاوزت ست سنوات، وقد طلب يدها من جدها سيتفانو سانتوسي ومن أقاربها، الذين وافقوا باستثناء أحد أبناء عمها[٢] وقد وعد أقرباؤها الموافقون على السعي.

«لديّ ابن العم هذا لتلبية رغبة الخاطب، وبما أنهم لم يحصلوا على شيء بعد وقت طويل، نصحوا المسمى إنجلو فرانكو بتقبيل[٣] الفتاة الشابة معتقدين أنه بهذه الطريقة يمكن تحقيق المبتغى - هذا ما قام به الخطّاب بعد موافقة الفتاة المذكورة - لكن ابن العم الآنف الذكر رفع شكاية بصدد القبلة التي كانت بتلك الطريقة في الحين صدر الأمر للقيام ببحث، وتم سماع الشهود، فتابعت الدعوة سيرها ضد كاتب هذه الرسالة. لذا يرجو هذا الأخير من سموكم، بتواضع شديد، أن تمنحوه عفوكم، نظراً إلى تعوّد الناس على التمتع بالشفقة في حالات مماثلة، خاصة أن الموافقة على الزواج كانت من طرف الكل، ما عدا المسمى ابن العم».

فيما بين ١٩٢٦ و١٩٥٨، انتقل معدل القرابة العصبية في كورسيكا من ٢٧٤ إلى ٩٤، في منطقة Le Cantal من ١٨٠ إلى ٣٧، في الألب العليا من ١٨١ إلى ٣٠، في منطقة L'Averyon من ١٨٢ إلى ٥٦، في منطقة Morbitan من ١٨٨ إلى ٤٤.

من غير الممكن أن نذكر هنا جميع الأغاني الفرنسية القديمة التي يكون

---

(١) انظر بصدد هذا الموضوع نص جاك بيرك حول العراق، مصدر سبق ذكره، ص ١٢١.

(٢) القبلة المقصودة هي شكل من أشكال (L'attacar) وتعني قيد، والتي يمكننا أن نسميها القبلة الاستراتيجية.

(٣) المصدر نفسه.

فيها ابن العم هو المحبوب، وذلك بسبب ضيق الحيز، وعلى كل حال هذه أغنية ما زلت أتذكرها:

كيف تريدني أن أتزوج منه.
وأبي، غير موافق على ذلك.
أجل أبي، أقل منه أمي.
باستثناء واحد من أقربائي.
إنه ابن عمي، جان بيار الجميل. . .

عندما التقى بيرديكان لأول مرة ابنة عمه كاميليا التي أراد عمه أن يزفها له، حياها قائلاً: «صباح الخير أختي». بعد ذلك أحبها ولم يتزوجها، لأن أبطال موسي لا يمزحون بالحب.

وعندما كتب بودلير دعوته إلى السفر: «ابنتي أختي. . .»، وضع نفسه بهذه الطريقة في صف تقليد محترم هندو - أوروبي - سامي.

الثورات تمضي لكن الحماوات يمكثن

إن الزواج الداخلي يتأكد بشكل أكبر عند مسلمي إفريقيا، إلا أننا لا نملك أبحاثاً مرقمة - عن تطور معدل القرابة العصبية كما هو الأمر في فرنسا، ويجب أن نرجع إلى «القيل والقال» الإثنوغرافي لقياس التطور في هذا الميدان.

قبل ١٩٤٠: تعرفت على بعض المثقفين الجزائريين الشباب، الذين بدأوا الاحتجاج ضد إلزامية[1] الزواج بابنة العم المختارة من طرف العائلة منذ الولادة، البعض منهم، وهم قلة تمردوا على رغبة العائلة، بعد ١٩٤٥. كف الشباب بعدد ملحوظ عن الخضوع للعائلة وتزوجوا بحسب اختيارهم - فأصبحت الشكوى صادرة من العائلة[2]، لأن الفتيات الشابات المربيات أحسن

---

(١) في المدن المغاربية المتقدمة، بدأ الناس منذ بضعة سنين فقط، وخوفاً من النسالة، يتحفظون من الزواج بالأقارب.

(٢) لقد تعرفت على سيد إقطاعي جزائري، توفي مؤخراً، تكدرت سنواته الأخيرة بالحزن لكونه لم يستطع تزويج بناته بسبب غياب الرجال من مرتبته - أي من دمه - ولم تتوصل جميع مصائب الثورة والحرب إلى جعله ينسى ذلك.

تربية، مهددات دائماً بعدم الزواج بحسب صيغ الماضي وغير قادرات على الزواج من «خطيبهن» (المتزوج ثانية من باريسية)، هؤلاء المهجورات لا يملكن القدرة على الزواج بآخرين حتى.

ثم جاء التغيير الكبير لثورة ١٩٥٤ ـ ١٩٦٢، فهل زكى هذا التغيير ميل الشباب إلى التحرر من التقليد؟

إن الأمر غير ملموس بما فيه الكفاية، لأن الثورات تمضي، في حين أن الجدات والعمات العجائز خالدات، العادات هي التي تستمر في تحديد عدد مهم من الزوجات، إنها تسير بسرعة أقل من السياسة.

لقد استمرت القاعدة بصراحة أكبر في العائلات الأكثر حظوة. ذكر لي الابن الأكبر لعائلة نبيلة من قسطنطينة، بحياء شديد، جملة لوالده الكبير الراغب جداً في عقد قران بناته، بعد أن رفض جميع الذين تقدموا لهن، قائلاً لولده الذي لح على زواجهن: «لا نترك في فرنسا أصيلاً يُركَب من طرف حمار». إن الشاب الذي روى لي هذا كان يكن احتراماً كبيراً لأبيه، إلا أنه صدم بالتالي بقولة أبيه كما صرح لي، وذلك بشكل مضاعف أولاً من حيث الشكل، الذي وجده غير لائق ولا يجرؤ على تكراره، ولكن كذلك من حيث العمق، لأنه كان حزيناً ومحرجاً لكون أبيه لم يتنازل قط في زواج أخواته.

جميع المشاعر التي يمكن استخلاصها من هذا الحدث الصغير، تسمح لنا بوضعه عند ملتقى الثورة: بالنسبة إلى هؤلاء الفتيات، اللائي تربين تربية صارمة في الخدر يعرفن تسيير منزل، ويشغلن فيه مكانهن بفخر متواضع، كان مجيء الخطاب متوقعاً في كل وقت، هؤلاء: «أبناء العم من خيمة كبيرة» اختاروا، بعد الثانوي والجامعة، رفيقهم من مكان آخر: لقد مر الأوان للحصول على طاعة الأولاد، وما زال الوقت باكراً لتحرر الفتيات... وليس هناك، إلى حد مفردات الرجل الكهل، وإلى حد ردود الأفعال المحتفية للولد، من لا يسجل، بيد دقيقة، ساعة هذه النكتة.

«ها قد جاء موعد زفافنا، يا أخي

ها قد جاء اليوم الذي طالما انتظرته».

إن المفردات تقدم لنا دائماً مؤشرات دقيقة حول الصادرات ذات الأصل

البعيد: حيث أن الشاعر في البلدان ذات اللسان العربي، كما في المناطق التي تتكلم البربرية ينادي حبيبته: أختي. وعندما يكون صاحب الأغنية امرأة، فإنها تنادي حبيبها: أخي.

لقد جمعت في الأوراس عدداً كبيراً من القصائد المرتجلة من طرف الباكيات في ليال مأتمية[1] بعد اغتيال ما (نعلم أن هذا التقليد القديم ما زال يمارَس من حين إلى آخر في كورسيكا). ولقد احتفظت بأربعة أبيات، بسبب غرابتها، وهي أبيات نظمتها ابنة «العم الأرملة» بعد قتل زوجها.

كان الاغتيال في سنة ١٩٢١، وقد التقطت هذا النص سنة ١٩٣٥، أي بعد مرور أربعة عشر عاماً، ويستحق هذا النص أن يحتفظ به. حدث آخر يجب الإشارة إليه كذلك: الأرملة، المسماة شريفة كانت ابنة عم الرجل المقتول السقيقة، لكنها طُلقت منه بوقت قبل الواقعة، لأن القتيل، ويسمى حسين، كان يغازل امرأة محصنة تنتمي إلى فرقة أُخرى من قبيلته، وكان الابن الوحيد لأب اغتيل مثله هو الآخر.

لم ينتقم لحسين وما زالت «العنزة»[2] منذ خمسة عشر عاماً فيما بعد، قائمة فوق تراتب العشيرة القاتلة، مثبتة بهذه الطريقة وجود إهانة لعائلة القتيل لأن كل فرقة كانت تملك ترابها والذي لا يمكن للأجانب أن يطأوه من دون مصاحبة رجل من الفرقة، وإلا شككوا في نياتهم السيئة، وكانوا على صواب في ذلك.

ها هو نص هذا الغناء:

لبالطو، جيليت

---

(١) لقد اختفت لسوء الحظ هذه الليالي (مع أكبر جزء من مذكراتي) في مجرى الحرب العالمية الأخيرة.

(٢) المتعارف عليه في الأوراس، بعد مقتل ما، هو نصب كومة من الأخبار في المكان الذي وقع فيه القتل، وكانت عائلة القاتل هي التي تقول بهذا الفعل المشين بعد الثأر تأتي عائلة المقتول لتحطيم ذلك الركام. لقد وجدت هذه العادة في الأطلس الكبير والمتوسط، لكن الناس لا يدرون منْ من العائلتين قام بنصب تلك الأحجار. قال لي شيخ مطلع «لا هذه ولا تلك وإنما من يريدون الحرب».

لبالطو، جيليت.

أوما نيدجيته

دهب هقيبليته

حرفياً:

المعطف، والصدرية

المعطف، والصدرية

أخي، تركناه

هوليا(*) رأسه نحو الشرق.

إن كلمتي «معطف وصدرية» المأخوذتين من الفرنسية إلى البربرية يعملان هنا على توفير قافية غنية للشرف (القبلة) (Hqebelith). لكن وبدون شك تدفعنا غرابة تلك الألفاظ أيضاً إلى الحلم وإثارة الترف «لينضج Cipango في مناجمه البعيدة»... يبدو أن رمزيتنا لا تحتكر البلاغة بمفردها...

بعد مرور خمسة وعشرين عاماً، في ايلول/سبتمبر ١٩٦٢، عثرت على هذه الأغنية لفتاة ستزف إلى زوجها، في منطقة الريف الناطقة بالعربية، تغني على شرف عريسها:

ها قد حان موعد زواجك[١] يا أخي!

ها قد جاء اليوم الذي طالما انتظرته...

أولاد عمك قد احتفلوا بك.

وأنا أية حفلة أهيؤها لك؟

نجد كذلك، في كل مكان تقريباً من المغرب العربي، عادة تسمية صهر ما بـ «عمي». يقال إن في الأمر لياقة، لأن في كلمة «عمي» حناناً واحتراماً،

(*) يبدو أن الأغلبية تؤكد فكرة الذبيحة: (المترجمان) حيث يتم توجيه رأس الضحية نحو القِبلة.

(١) ضمنياً «زواجك بي».

في حين أن كلمة «صهر» فيها شيء من التحفظ والبرود. في الحقيقة، في المغرب العربي كله، تطلق كلمة «عمي» على جميع الناس تقريباً: على العكس من ذلك، في لبنان، تسمية «عمي» خاصة بالصهر حقاً.

إن عادة تسمية رجل زوجته «ابنة عمي» ومناداتها له «ابن عمي»، في الوقت الذي لا توجد فيه بين الزوجين أية قرابة، هي عادة ما زالت مستمرة ومنتشرة جداً وسط مسيحيي لبنان، ويمكن أن نعثر عليها كذلك وبشكل منعزل في بعض العائلات المسلمة ـ بإفريقيا ـ إن الوازع إذن هو: «حشمة الزوجين»، لكنها كذلك طريقة رقيقة جداً، ودودة ولطيفة في التعبير.

وفي الضفة الأُخرى للمتوسط، لوحظت هذه العادة في حوالي ١٨٨٠ من طرف جدي، عند بعض العائلات القليلة، لوسط وجنوب فرنسا ـ وبنوع من الفجائية، لأنه فكر في حكايتها خمسين عاماً فيما بعد، مع الإشارة إلى أنه لم تكن توجد بين الزوجين أية قرابة.

ابن العم ـ الأخ هو ابن العم ـ الزوج

تشكل اللغة هنا انعكاساً أميناً للعادات ـ فما عدا بعض الطوارق، وشيئاً ما أطلس المغرب والورشانيس، ما زال عدد من الناس، في كل باقي أنحاء المغرب العربي، سواء عند المزارعين المقيمين أو عند المنتجعين، عند الرحّل أو عند البورجوازية الحضرية القديمة، يعتبرون الزواج المثالي قران فتاة شابة عذراء بابن أحد أعمامها[1]، يعني بابن عم شقيق، اعتاد الناس على تسميته: «أخي». فكلما كان الأهل من ذوي القربى كان الزواج ناجحاً.

لهذه الرغبة، في كل مكان، طابع قطعي جداً. حتى أني لاحظت في وهران والجزائر العاصمة وفي قسطنطينة وفي المناطق الصحراوية أن الناس يعتبرون أن فعل تبادلهم للنساء في مرحلة ما، يشكل اعتداداً بالقرابة من جهة الأب.

---

(١) نفهم جيداً علاقة «ابن العمومة» عند برابرة الشمال عندما نكون قد لاحظنا العلاقة نفسها عند برابرة الجنوب: يسمي الطوارق «إخوان» كل أبناء العم الحقيقيين، أي الأبناء من آباء أشقاء أو من أمهات شقيقات ويسمون (خ. إيبوباب Aboubab) أبناء الدم المتقاطعين: أبناء الخال أو أبناء العمة.

إن الممارسة اليومية، في القبائل نصف الرحّل لجنوب الأوراس، حيث عشت ما بين ١٩٣٤ و١٩٤٠، تتناسب كلياً مع المثل الأعلى للمجتمع: يرغب في الزواج في ما بين أبناء العم ويتم الزواج بينهم فعلاً.

في الحقيقة، إن هذا الوضع لا يشكل قاعدة مطلقة ـ هناك مثلاً تحريم الزواج بأخت من الرضاعة ـ كما يمكن نظرياً لابن ما أن يأتي بكنة أجنبية، ويحدث هذا في بعض الأحيان من دون مشكلات. إن مثل هذه الحالة كانت مع ذلك قليلة جداً، حتى أننا لا نكاد نعثر على أكثر من ست نساء من قبيلة أُخرى، داخل زمرة تتكون من ألف نفس تقريباً، في الواقع هذا النوع من الزواج لا يستمر طويلاً، لأن الأجنبية تمل وترحل. كما توجد حالة عكسية، أي امرأة من القبيلة متزوجة خارج قبيلتها، وقد عرفت بعض هذه الحالات، إلا أنها تشكل أحداثاً نادرة لا يمكن نسيانها، فهي موشومة في الذاكرة. (لنسجل أن هذا النوع الأخير من الزواج يُنظر إليه نظرة قبيحة أكثر من السابق). اللهم إلا إذا كان سيصلح لإقرار مصاهرة مع عائلة في حاجة إلى المساعدة. وجميع الزيجات الأُخرى تمت فيها بين العائلات الخمس للقبيلة نفسها، ومن الأفضل أن تكون داخل كل واحدة من تلك العائلات[١]. لقد أعددت شجرة نسب هذه العائلات، وضمنتها الأحداث التي طرأت على حياة كل فرد مكون لها، إلى الحد الأقصى الذي يمكن أن ترجع إليه الرواية الشفوية، يعني إلى حدود منتصف القرن الثامن عشر (خمسة إلى ستة أجيال)، وقد استطعت أن ألاحظ عدم انكسار هذه الإرادة القوية للجميع في أي مرحلة من مراحل التاريخ مع احتوائها على عدد صغير من الاستثناءات في الحقب كلها.

لقد تم بشكل ما تجميد هذه الإرادة، التي تجسدها أجمل حفلة في السنة، ألا وهي حفلة الزواج الذي يدشن فصل الأعراس، بعد الحرث مباشرة[٢].

تريد العادة فعلاً أن تتم جميع الأعراس الكبيرة، ـ يعني أعراس الفتيات

(١) بين ١٥٠ و٣٠٠ شخص.

(٢) نجد هذه الممارسة في الأطلس المغربي.

العذارى - في مجرى ايلول/ سبتمبر، أي في ما بين الفصل القصير للمواسم وحرث تشرين الأول/ أكتوبر. إذن، مباشرة بعد المرحلة التي يتم فيها تبادل البضائع في شهري تموز/ يوليو وآب/ أغسطس وتبادل حيوانات الشمال والجنوب، وذلك في ظل هدنة دينية.

إن الظرف كان ملائماً بشكل مضاعف، لأنه وافق الغبطة القصيرة التي تلي الحصاد والتبادلات التجارية، وتسبق بقليل في بداية الخريف اتحاد الماء بالأرض التي تعطي إشارة البذر والحرث.

ولكي تمر الأمور بخير طوال السنة - لكن أولاً وأساساً أمور الحصاد المقبل - يجب أن يكون الزواج الأول، الزواج التدشيني، «أفضل زواج ممكن». لأجل ذلك، هناك شرطان: أن يكون الزوجان أبناء العم من سلالة الأب، وأن تكون العروس عذراء - إن سمعة العائلتين وقوتهما وثروتهما، هذا كله يؤخذ أيضاً بعين الاعتبار، لكن بشكل ثانوي.

خلال السنوات التي تلت، تعرفت على مئات المغاربيين المنتمين إلى جميع جهات القارة العربية - البربرية، وأعطوني كلهم، أمثلة عن هذه الأفضلية. ولقد عاينت ذلك شخصياً، في الأوراس، في القبايل (بنوعيها) في منطقة عنابة، في الريف في موريتانيا، وفي جزء من الهجار، وعند بورجوازية قسطنطينة وبجاية، في الجزائر العاصمة وتلمسان، وتونس العاصمة، مع بعض الاستثناءات بالنسبة إلى الأطلس المتوسط والأطلس الكبير، وكذا الورشانيس.

لماذا استمر الزواج الداخلي قوياً إلى يومنا هذا، خارج وسطه المفضل، أي القبيلة الرعوية؟ يبدو أن عدة أسباب ساهمت في هذا البقاء، السبب الأول تفسره بسهولة الرغبة في الصراع ضد تشتيت الميراث الذي يفرضه نظام الإرث الإسلامي على كل جيل، الثاني هو الدور الذي لا يستهان به لإرادة المحافظة على نزعة خصوصية مهددة، خاصة بالنسبة إلى الشعوب التي تشكل أقلية (مسيحيو الشرق - اليهود - والمسلمون غير السُّنَّة).

ويبقى مع ذلك، أن هذه التفسيرات لا تشرح كل شيء، حيث يجب أن نأخذ بعين الاعتبار في آن واحد تقليداً متأصلاً حتى في الأوساط الأكثر تقدماً

في التحضر، تقويماً عاطفياً للمجتمع الأندوغامي، أي المجتمع البدوي[1].

لقد كان لهذا الأخير ممارسة مبررة بما فيه الكفاية، كما سنرى ذلك في الفصل التالي.

(١) جاك بيرك، **المغرب العربي بين حربين**، ١٩٦٢، ص ٢٠٢، ٢٠٣. لقد كتب هذا الأخير بصدد اليوم البورجوازيين الكبار في تونس العاصمة ما يلي: «كيف أمكن لعملية تمايز عائلية أن تصمد أمام الزمان؟ لقد كان ذلك بسبب ممارسة نوع من الزواج الداخلي. أجل لم تكن تلك الممارسة لاعتبارات سحرية ودينية ولا حتى بصفة مبدأ عرفي وإنما بافتخار (Chic) بكل بساطة، لأن التأدب قد يصل إلى تسيير حياة قائمة على عدة فوارق، لذلك يقال في المدينة كما عند البدو «لابن العم» حق الأسبقية في ابنة عمه الشقيقة، وكما يقول المثل: «يمكنه أن يزعزع الخطيبة عن كل كرسي الشرف». ليست هذه هي السمة الوحيدة للشرف القبلي، أي للمصاهرات البدوية. لقد أثارتنا ملاحظة ذلك في قرية من الساحل التونسي، ونعتقد أن تلك الملاحظة تمتد إلى العالم الإسلامي المتوسط كله».

الفصل السادس
النبل الرشدي والنبل الخلدوني

إن المجتمع القبلي، الذي لا تزال خصائصه في بعض الجماعات المغاربية الجبلية أو الصحراوية المعزولة محفوظة، قد خضع في جهاته الأُخرى كلها لتطورات أو بدايات تطور. والحال، إن هذه التطورات، أو على الأصح حركات الدفاع التي أحدثتها هذه التطورات، هي التي تبدو لي أنها المسؤولة مباشرة عن تقهقر الوضعية النسائية في حوض البحر الأبيض المتوسط، مثلما هو الأمر في أوروبا الجنوبية، وإفريقيا الشمالية وآسيا الغربية. لهذا السبب، وقصد فهم الأواليات التي تهمنا، يجب تحليلها في كل مرحلة من تطورها، لكن بالبدء من نقطة الانطلاق، إذن انطلاقاً من القبائل الرحّل.

الحضر والرحّل

على هذا المستوى، سيكون من الطبيعي معالجة موضوع سوسيولوجي كلاسيكي: موضوع التعارض بين الرحّل والحضر.

لقد وصف علماء الاجتماع المجتمعَين دوماً في شرق المتوسط باعتبارهما مختلفين بشكل أساسي، ويبدو لي أن التماثل في هذه النقطة مع المغرب العربي يجب أن يكون أكثر تدقيقاً.

توجد في الغالب، عند العرب البرابرة من الشمال، عداوة[1] بين الرحّل والحضر، مع سيطرة الرحّل على الحضر قديماً. ومع ذلك، فالاختلافات في مجال البنى لها حضور قليل، يمكن أن نلاحظ على الأكثر، أن الرحّل يعطون

---

(١) نجد كذلك تجمعات وتعاقدات بين هذين النمطين من السكان.

أهمية كبرى لرئيس العشيرة، لكن هذه الأهمية ليست مجهولة لدى الحضر، فلدى هؤلاء أهمية مجالس الشيوخ هي المسيطرة، لكن هذه المجالس توجد كذلك عند الرحّل - ففي المجال الزواجي والعائلي نلاحظ سلسلة التحولات التي تتم من زمرة إلى أُخرى.

إن الأمر ليس كذلك في جنوب الصحراء. هنا نعثر فعلاً على مجتمعَين متمايزين: مجتمع رحّل منسجم ظاهرياً (مجتمع الطوارق أو المجتمع الموريتاني) ومجتمع حضري تابع للمجتمع السابق أكثر تنافراً ظاهرياً، هنا سنعثر على تماثل كبير مع المجتمع البدوي لشرق المتوسط.

ما عدا مجتمعات الرحّل والمجتمعات الحضرية، المنفصلة بحاجز يمكن تسميته الحاجز العمودي - لأنه مثل حائط يقسم السكان إلى مناطق جغرافية - نجد في مجموع المغرب العربي، في الشمال كما في الجنوب، آثاراً واضحة بهذا القدر أو ذاك لحاجز أفقي يقسم المجتمع، مثل خشبة إلى طبقات، ويحدد بالخصوص طبقة مغلقة، وسطية بين طبقة[1] العبيد وطبقة الأحرار: طبقة الحرفيين أي الحدادين والجزّارين والفخارين والموسيقيين.

إن آثار هذه البنية نعثر عليها في جميع المجتمعات القروية القديمة للمغرب العربي، عند الطوارق الرحّل أو الموريتانيين، عند نصف رحّل الأطلس أو رحّل الأوراس وعند حضريي القبايل.

لنسجل كذلك، أننا نجد في المغرب العربي رحّلاً يتحدثون العربية (الموريتانيون) ورحّلاً يتحدثون البربرية (الطوارق): الأولون لهم نسب من جهة الأب فقط، أما الآخرون فيحافظون على النسب من الأم[2] في بعض القطاعات. عكس ما قد نعتقده، فإن هذه الاختلافات الأساسية ظاهرياً لها تأثير قليل على عاداتهم المتشابهة بشكل غريب، لا سيما فيما يخص وضعية المرأة.

---

(١) تمارس الطبقة المنغلقة كذلك الزواج الداخلي، لكن من الصعب الجزم إذا كان ذلك إرادياً أو تحت ضغط الضرورة. إن هذه الطبقة تستحق دراسة مجملة لم تتم بعد.

(٢) نعثر، عند هؤلاء على آثار للزواج الخارجي.

ومع ذلك، هناك نقطة تميز حالياً[1] رحّل وحضر المغرب العربي: معدل الولادات. هذا الاختلاف أشار إليه الجغرافيون والإثنولوجيون[2] في الغالب.

في الحقيقة، يمثل الرحّل الحاليون ـ على الأقل رحّل المنطقة الصحراوية من وجهة نظر اقتصادية ـ مجتمعاً يشكل نسق إنتاجه وسيطاً بين القطف والقنص والزراعة. أجل يمكن لبهائمهم أن تتكاثر بمعدل سريع، لكن المراعي التي تغذي هذه البهائم لا تتجدد إلا بحسب الإيقاعات البطيئة جداً للطبيعة المتوحشة. كل شيء يمضي إجمالاً كما لو أن الرحّل الصحراويين قد استُدرجوا، بسبب محدودية المراعي، إلى المحافظة على إيقاعات النمو المبلورة من طرف قناصي العصر الحجري القديم ـ رغم اختراعات العصر الحجري الجديد التي تضمن جزءاً كبيراً من حاجاتهم[3].

العشيرة السلتية والفرقة البربرية

مهما يكن الفاصل، فإننا نجد في المغرب العربي كله وحدة أساسية تمثل

---

(١) يتكاثر الرحّل الرعاة الذين يصفهم لنا سفر التكوين بنفس إيقاع تكاثر الحضر.

(٢) إدمون بارتوس، **بعض ملامح تطور طوارق الغرب**، ١٩٦٣، ص ٢٨.

ـ يسجل المؤلف في فصل حول الديموغرافيا ما يلي:

ـ نجد عند الطهابنات (Tahabanat) ٢٦ عازباً (١٨ رجلاً و٨ نساء) و١٦ عائلة بزواج أحادي لها ٢٨ طفلاً.

ـ عند إيهايوان (Ihayawan): ٢٥ عازباً (١٢ رجلاً، ١٣ امرأة) و٨ عائلات بزواج أحادي لها ٩ أطفال.

ـ عند ايراتفان (Iratafan): ١٥ عازباً (٨ رجال و٧ نساء) ٦ عائلات بزواج أحادي لها أقل من طفلين.

وفي تجمع تينخيلفيدش لبانكليرا، نجد أربعين نبيلاً (إيماجرن)، ٩ أطفال لهم أقل من ١٥ سنة، ١٠ من الكبار لهم أكثر من ٤٠ سنة. وضمن ٢١ شخصاً من الكبار الذين لهم بين ١٥ و٤٠ سنة نحصي ١٥ رجلاً و٦ نساء، على ١٥ رجلاً ٨ عازبين و٤ لا أبناء لهم. الوضعية نفسها نجدها عند كالدينيك.

(٣) إن هذا الغذاء، كما جمع ذلك Marceau Cast في وثائق شاملة، لا يزال إلى اليوم يقوم في جزء كبير منه على القطف والقنص، اللذين كانا يشكلان منذ حوالي خمسين سنة العملية الغالبة في توفير الغذاء.

(M. Cast، **غذاء شعوب الهكار**، الفن والحروف النقشية، ١٩٦٨).

أمامنا تحت أسماء مختلفة[١]، من أشهرها في الجزائر ـ الفرقة ـ وهي كلمة عربية تعني حرفياً Fraction.

فعلاً، فالفرقة هي جزء من القبيلة، لكنه أمر مدهش أن ترى هذه الزمرة تتحدد بالنسبة إلى القبيلة، لأن هذه الأخيرة، باستثناء ما نراه في القبايل، وحدة فضفاضة، في حين أن الفرقة وحدة أساس المجتمع المغاربي برمته، حتى في القبايل حيث أن الوحدة القبلية هي أقوى مما هو عليه الحال في باقي جهات المغرب العربي، استطاع ملاحظون ممتازون كتابة ما يلي: «مجتمع فريد في نوعه، حيث القرية خاضعة في الغالب للعائلة، ولا يمس الحق غير المألوف للخواص إلا ليجعله محترماً».

يمكننا، إذا أردنا، أن نترجم كلمة فرقة بـ «Clan» (عشيرة)، شرط أن نخصص بأننا لا نستعمل هذه الكلمة الأخيرة بالمعنى المعمم من طرف الأدب الإثنوغرافي، وإنما نستعملها بالمعنى الايتمولوجي، ذلك الذي كان للكلمة السلتية Clanna إبان الغزو الروماني.

يعرّف هنري هوبير[٢] كلمة Clanna كما يلي: «... إنها كلمة غوادوليكية (Goidekique) لا تشير إلى نوع ما من وحدة مقدار أو شكل محدد ـ إنها تعني خَلَفاً أو ذرية. مثلاً في اللغة الإيرلندية، وعلى صيغة الجمع، تعني Clanna Morna خَلَفَ مورنا، لكن Les Clanna Morna يمكنها أن تكون على السواء ما يسميه علماء الاجتماع، قبيلة، عائلة، أو ربما عشيرة... إن العشيرة بالمعنى السلتي للكلمة شيء مختلف جداً عن العشيرة الطوطمية... العشائر السلتية عائلات أو قبائل مدركة كعائلات...».

---

(١) تستعمل كلمة فرقة في جميع القرى التي تتكلم العربية وفي عدة مناطق بربرية وفي الأوراس، نجد شكلاً بربرياً: هارفيكة (Harfiqth) جمع هيرفيكين، ينطقها القبايليون تارفيقت (Tharfiqth) في نفس الاتجاه يستعمل تواركة كلكة طاويست (Taouist)هجار (Hoggar) أو تاوشيت (Air) العابر في معنى العشيرة وكذلك في معنى قبيلة، وهذه الكلمة تعني حرفياً «تفاحة اليد» و«أخمص القدم».

(٢) هنري هوبير، **السلتيون منذ مرحلة التين والحضارة السلتية**، ألبان ميشيل، ١٩٥٠، ص ٢٤١ ـ ٢٤٢. إنه يعرف القبيلة (ص ٢٣٩) كما يلي: «الوحدة الاجتماعية الأولى المكتفية بذاتها». إنه تعريف ممتاز للقبيلة المغاربية.

الشيء نفسه بالنسبة إلى العشائر المغاربية.

شـرف مشتـرك

تعرض العشيرة المغاربية نفسها أمام أعيننا كواقع ما زال ممكن الإدراك مباشرة، لأن هناك حدوداً، فضاءً في الشمس، اسم علم معروفاً من طرف جميع الناس، شرفاً جمعياً وتعبداً: ألا وهي الحفلة السنوية للجِد، لمؤسس العِرق.

سواء كان هذا المؤسس حضرياً أو رحالاً، فإنه يحتل دائماً تراباً، شاسعاً أو ضيقاً، حيث لا يجوز لأي غريب أن يطالب بحق ما بداخله، اللهم حق الضيافة أو العنف. هنا يعيش الأقارب، في زمرة خيام أو منازل متقاربة بشكل بيِّن، موجهين دفاعهم كله نحو الخارج.

لا شيء أكثر إيحاء، بهذا الصدد، من الهيئة الفزيقية للقرية، الدّوار، المنزل العربي المدني: المنزل المغاربي والمنزل الشرقي. حول المنزل: أسوار عالية، بدون نوافذ، مشوكة بشقف القنينات، حول القرية: كل الدفاع الطبيعي، الخنادق، أشجار الصبار، حول الخيمة حشد من الكلاب نصف وحشية، لكن هناك ما هو أكثر وحشية من الكلاب، «تقديس» الفضاء الذي يحمي الخيمة، والذي تختلط فيه الحصانة مع الشرف: «أي الحُرمة».

بالإضافة إلى التساكن، يتقاسم رجال العشيرة رابطة غريبة هي رابطة الدم. إنها تُترجم في اسم العَلَم نفسه الذي يعطي لحامله سنة ولادته حقاً مطلقاً في الدعم اللامشروط لجميع الآخرين.

«تسألين ما إذا كان أولاد أحمد[1] بن يحيى أولاد العم؟ طبعاً إنهم أولاد العم. كل الناس الذين هم في الفرقة نفسها، هم أبناء العم ـ تقولين: كيف

---

(١) أولاد أحمد هو الشكل العربي، لقد كان من جاورتهم يقولون في الواقع: أحماد أو يحيى تارة، وتارة أُخرى يقولون أحاند أو يحيى ـ لكن الشاويين كلهم يعرفون العربية، . وقليل من العرب من يعرف اللهجة الشاوية. والحال أن هدفي هو ألا أتعب قرائي، لهذا القصد استعملت الشكل الخطي الأكثر بساطة وعامية.

يمكن لواحد من أولاد زيان مثلي، أن يكون من أبناء عم البلوني، اليهود[1]، وأولاد عزيز وجميع الآخرين، الذين هم من أولاد أحمد على كل حال؟ قديماً كان شيوخ الفرقة يقولون لشخص ذي قيمة كبرى: كن بيننا كأخ لنا لأجل تقوية الفرقة... والآن بما أنه من الفرقة نفسها فهو أخي، أضحي بنفسي من أجله، ويضحي بنفسه من أجلي...».

ولأجل الثأر لأحدهم إذا قُتل، يتعاضد الناس فيما بينهم، وعكسياً عندما يصبح أحد الرجال من زمرتهم قاتلاً، فإنهم يجتمعون لمساعدته في تأدية تعويض عن ضرر يسمى الدية، أو ثمن الدم.

قبل سنة ١٩٤٠، كانت قيمة الدية في الأوراس ٨٠٠ دورو (٤٠٠٠ فرنك ذهباً)، لكن في بعض الحالات يمكن للتسعيرة أن تكون أكثر ارتفاعاً أو انخفاضاً. في سنة ١٩٤٥، وبشأن أربعة اغتيالات اقتُرفت في جنوب الأوراس (عمليتا اغتيال من كل جهة)، أدت العائلتان المتصارعتان الواحدة للأخرى ١٠٠,٠٠٠ فرنك. هذه المقادير ذات قيمة كبرى، في بلد تندر فيه النقود، والملاحظ أن قيمتها تتغير بحسب سعر النقود[2].

في الحقيقة، إن الناس داخل هذا النوع من العائلة أكثر من متعاضدين؛ وهم كذلك لأنه في حالة قتل ما، وإذا رفضت الدية من طرف العائلة المتضررة، فإن هذه الأخيرة تنتقم بقتل أي عضو من عائلة القاتل.

وكما هو مفهوم، فإن هذا الأمر يساهم في تنمية مبادرة الأقارب، عندما يتعلق الأمر بمساعدة قاتل على التحرر من دَيْنه.

لا أحد يعلم ما يضمرون في قلوبهم

من بين حكايات أُخرى، أتذكر أني في سنة ١٩٣٥ استقبلت في مخيمي

---

(١) يجب أن نفهم الذين هم من أصل يهودي (بحسب التقليد الشفاهي) إنها حالة عدة فرق في المغرب والجزائر. والواقع أن الأمر يتعلق بمسلمين.

(٢) إن الأمر يختلف في هذه المنطقة بالنسبة إلى المهر، الذي حافظ على قيمته الإسمية عبر جميع تحولات النقود، الشيء الذي يعني أنه يشكل الآن وهماً (صحيح أن الأمر يتعلق بمنطقة يسود فيها الزواج الداخلي).

على الجناح الصحراوي للأحمر خدو زائراً عابراً، وكان رجلاً مسناً من قبيلة أولاد عبد الرحمن والذي منحني ضيافته الودية. ضيفي العابر عاش منذ ١٥ سنة منفياً في قبيلة مجاورة لأولاد عولاش، على بُعد ثلاثين كيلومتراً من حقوله الموروثة ومن منزله ـ من دون أن يجرؤ على الذهاب إلى حقوله ولا إلى منزله ـ لأن أخاه سبق أن قَتَل في سنة ١٩٢٠ رجلاً من قبيلته ينتمي إلى فرقة أُخرى. بعد هذا القتل، غادرت عائلة القاتل بأكملها البلاد (وهي تتكون من أربع أُسر على الأقل وربما من ستت أُسر) ـ ثم خلال الأعوام الخمسة عشر التالية، توفي القاتل بدوره من دون أن يترك أولاداً ـ خمسة عشر عاماً بعد الجريمة، وخمسة أو ستة أعوام بعد وفاة القاتل، يأتي أخو القاتل مرة أُخرى ليطلب «العفو»، أي السماح له بتأدية قدر كبير من المال لأولاد ضحية أخيه.

إن قصة هذا القتل تتطلب تحليلاً، لأننا نجد فيها اختزالاً لأهم مقتضيات الشرف المغاربي.

كان شقيق ضيفي يدعى سي محند صالح، وكان ينتمي إلى أهل Parentèlc تبنتهم الفرقة[1] القوية لأولاد علي أو موسى، اعتقد، يوماً ما، أن شرفه قد أُهين: لأن رجلاً من فرقة أولاد خلاف، أحمد وعبد الرحمن، كان يبحث عن زوجته.

ولكي يعطي لانتقامه كل الرونق الممكن، ارتقب فرصة زواج كبير: وكانت فرصة ملائمة.. لأنه كان من المألوف أن يأتي المرء مسلحاً. بالإضافة إلى ذلك، كان فعل الزواج عند فرقة أولاد علي أو موسى، أي أبناء عمه، الشيء الذي يضمن وقاية مؤقتة له، وأخيراً، الفرق الخمس للقبيلة ستكون موجودة وسترى أنه ليس رجلاً من أولئك الذين يهانون بلا عقاب.

سي محند صالح أطلق النار في أثناء حفل الزواج على خصمه وأرداه قتيلاً، لكن الرصاصة التي اخترقت جسم أحمد أصابت بعد ذلك أحد الضيوف، إبراهيم المنتمي إلى العشيرة التي تقام فيها الحفلة، والذي مات من جراء ذلك، ولم يترك إبراهيم أولاداً، وكان أبوه متوفى. لكن كان له ثلاثة

(١) إن الأمر يتعلق بعائلة عمر أو أحمد، المتبناة من طرف فرقة أيت سي علي أو موسى، والتي تكون جزءاً ينتمي بهذا القدر أو ذلك إلى هذه الأخيرة.

إخوة. هكذا أعطي ثمن الدم (الدية) للعالمي، الأخ البكر.

لقد رضي هذا الأخير بتسعيرة منخفضة (ألف فرنك) لأن عائلة القاتل تنتمي إلى فرقته، وأن القتل حدث عرضاً، ولم تكن للميت زوجة ولا أطفال. هذه العناصر كلها تم فحصها، وهي التي تفسر بالتالي «ثمن التراضي» الذي طلبه العالمي من السي مسعود، والد القاتل. لقد أدى السي مسعود وأخواه (أعمام القاتل وضيفا العجوز) معاً ثمن الدم[1]، لأنهم كانوا يعيشون داخل فضاء واحد.

القتيل الآخر، أحمد، وهو من أولاد خلاف، ترك طفلين صغيرين، البكر يسمى محند صالح والصغير ولد بعد موت الأب وسمي باسم أبيه ـ لقد تربيا بحسب العُرف، من طرف جدهم لأبيهم، سي عبد الرحمن، وكان ثمن الدم قد قدم للسي عبد الرحمن لكن رفضه قائلاً: «ولدي كان يغازل زوجة من قتله، لقد قتل إذن بحق. لذا لا أقبل الدية. أما أحفادي فليفعلوا ما يشاؤون، عند بلوغهم السن الذي يؤهلهم لذلك...».

في ١٩٣٥، عندما رجع أخو القاتل، تم التشاور لأول مرة مع الطفلين البالغين (١٨ سنة و١٥ سنة على التوالي) اللذين قالا: «إننا نفكر مثل جدنا».

استمع أخو القاتل إلى القرار بوجوم، ورأيته ذاهباً مطأطأ الرأس، عند أولاد عولاش ـ لأن له ولداً وحيداً (كما قال لي العجوز الكبير)[2] من العشيرة المهانة متأملاً، في ما بعد وهو يتحدث عن رفض أولاد عمه: «لا أحد يعلم ماذا يضمرون في قلوبهم».

وبعد ذلك بثلاثة أعوام، في سنة ١٩٣٨، أرسل أخو محند صالح مرة أُخرى جماعة[3] كبيرة إلى القبيلة المجاورة بالالتماس نفسه الذي رفض كذلك (لم ألتقه في ما بعد لأني كنت في زيارة منطقة أُخرى).

---

(١) لقد كانوا في تلك اللحظة موجودين في القبيلة.

(٢) يتعلق الأمر بالشخص الأكبر سناً ضمن فرع المسنين.

(٣) هذه الكلمة تشير إلى Sénat الجمهوريات المغاربية الصغيرة، أي تجمع رؤساء العائلة الذين يأخذون القرارات التي تهم مجموع القليلة. وتستعمل هذه الكلمة للإشارة إلى أي اجتماع للأعوان.

لقد كان القاتل وأبوه وأخواه وعماه ـ أي ست أُسر ـ يعيشون خارج قبيلتهم فيما بين سنتي ١٩٣٤ و١٩٤٠، وهي المرحلة التي أمضيتها هناك: الأسر الأربع الأولى هاجرت فقط بسبب جريمة القتل الذي ارتكبها سي محند صالح، وليس أكيداً أن عمّي القاتل قد هاجرا في الوقت نفسه[١] لكنه من المحتمل، لأنهما ساهما في تأدية الدية الأُولى (ثمن الدم المقبول من طرف رجل من فرقتهم).

إن الواجبين الأساسيين للرجل المتوسطي يظهران في هذه الحكاية. الواجب الأول، والموجود في عدة مجتمعات، يقتضي أخذ ثأر القريب: في هذه الحكاية لم يكن الانتقام فعلياً، لكن التهديد به (المتمثل من طرف شيخ ورضيعين) كان كافياً لهروب أربع أُسر على الأقل، ومن المحتمل أن تكون ست أُسر ـ الواجب الآخر نفذ، بالطريقة الأكثر احتفالاً، في حضور القبيلة كلها: إنه يقتضي غسل أي شك يمس شرف امرأة من العائلة.

إن هيلين الجميلة لحرب طروادة هذه كانت تسمى باركة ـ أولت ـ محند مع استثناء، هو أنها لم تكن ابنة عم زوجها رغم انتمائها إلى القبيلة نفسها، بعد ترحيلها، رجعت إلى أبيها في فرقة أولاد داود.

يتيمان يزوران أمهما

اليتيمان هما محند صالح القصير القامة وأخوه الأصغر، المربَيان من طرف جدهما لأبيهما. كانا يترددان بكثرة على عائلة أمهما أكثر من تردد أي من الأطفال الآخرين. هذا أمر يُفهم بيسر، ولم يكن يمثل أي صعوبة في فهمه: الجدان كانا يقطنان متباعدين مسيرة ساعة إلا ربعاً، والحال أنه لولا تسلسل الظروف هذا لما سنحت الفرصة لطفل من أولاد خلاف فيما بين سنتي ١٩٣٥ و١٩٤٠ أن يترددا باستمرار على تراب فرقة مجاورة، لكن غريبة.

بالفعل كانت المرأة المتزوجة، في هذه القبائل وفي هذه المرحلة، تتحرك بكل حرية على تراب فرقة زوجها، لكن لا يسمح لها بمغادرته ولو لزيارة

(١) لم أعد أتذكر، وجزء كبير من وثائقي اختفى سنة ١٩٤٢ ـ لكن يمكن استخلاص ذلك من كونهم ما زالوا يعيشون مشتركين مع والد القاتل لحظة القتل المزدوج.

أبيها، من دون أن تكون مصحوبة بزوجها، صهرها، ولدها أو أحد إخوتها - وهذه قصة أُخرى.

أن يذهب طفلان صغيران يتيمان لزيارة أمهما، فإن الأمر يعتبر طبيعياً في كل مكان.

وتعوّد الجد من جهة الأم، والأخوال، وأطفال وبنات الخال، على استقبال الطفلين وعلى حبهما. . . وفي تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٣٩ (كنت ما زلت في البلد) اختطف البكر ابنة عم أمه أرلح، فاطمة أولت عبد الله.

لقد كان عمره اثنين وعشرين عاماً، وكانت في سنه تقريباً، بالإضافة إلى ذلك، كانت حرة، لأنها كانت مطلَّقة بعد الزواج، بحسب العادة، من ابن عمها أحمد أو بمعراف.

كان يجب الصعود إلى الجد الثالث للعثور على الجد المشترك بين فاطمة وأحمد أو بومعراف، لكن القرابة كانت ذكورية، وكلاهما كان ينتمي بالتالي إلى الفرقة نفسها، فرقة أولاد داود. فاطمة لم تكن تهوى أحمد أو بومعراف، وهذا الأخير لم يكن يهوى فاطمة، كل واحد في القبيلة كان على علم بأن أحمد كان يريد امرأة أُخرى تسمى زهرة تنتمي إلى فرقة خلاف، وهي مطلَّقة. لا أحد يستطيع الزواج من زهرة، لأن زوجها الأول، رغم كونه قد طلّقها عقاباً على هروبها، فإنه هدد بالموت كل من تسوّل له نفسه الزواج منها.

مباشرة بعد هذا الزواج المفروض من ابنة عمه فاطمة، انخرط أحمد أو بومعراف الحزين في الجيش، تاركاً زوجته - ابنة عمه - في منزلها. فالجيش هو الوسيلة الوحيدة للهروب من الجور العائلي، خصوصاً أن حرب ١٩٣٩ كانت قد اندلعت - في هذا الوقت لا أحد من هذه القبيلة كان يعمل في فرنسا، ولا أحد كان يعرف كلمة من الفرنسية، فالانخراط في الجيش في ١٩٣٩ - بالنسبة إلى فرد في أولاد عبد الرحمن عمره عشرين سنة - كان يعادل سيكولوجياً أنبوب السم الذي تجرعته مدام بوفاريه[١].

---

(١) إشارة إلى رواية فلوبير، وتحديداً إلى انتحار المدام بعد شعورها بالذنب إثر خيانتها لزوجها. . (المترجمان).

بعد ذهاب ابن عمها ـ زوجها، فرت فاطمة المهجورة إلى عمها محند أُو بلقاسم، لأن أباها وجدها لأبيها كان قد توفيا.

غالباً ما يحصل هذا النوع من الهروب: فعندما تُخذل امرأة أو تُهمل من طرف زوجها، فإنها ترجع إلى منزل أبيها، وإذا كان متوفى، فإنها تذهب إلى أخيها البكر، أو إلى عمها يومين أو ثلاثة، ثم يوفد فرداً من العائلة ويزوده بالكلام اللطيف وبعض الهدايا. وغالباً ما ترجع المرأة. إذا لم ترجع فإنها تعتبر مطلَّقة، والحالة هذه لم يستطع أحمد أو بومعراف الموجود في الحرب النطق بالصيغة العامة التي تحرر ابنة عمه، أمام أي كان، ولا يمكنه أن يدعي أنه لا يريد فاطمة وأنه لم تكن له قط رغبة فيها.

لقد أغضب اختطاف فاطمة جميع رجال فرقة أولاد داود. ولكي يدفعوا المسألة إلى حدود القتل، ارتأوا اعتبار فاطمة غير مطلَّقة «حقاً» ـ على كل، كان عليهم انتظار رجوع أحمد الزوج ـ الجندي ليحققوا نيتهم في القتل.

إبان هذه المرحلة من الحرب الباردة بين الفرقتين، سقط شاب أعزب من فرقة أولاد داود، بلقاسم، ضحية محاولة اغتيال، وعلم الناس مباشرة أن أبناء عمه أطلقوا عليه النار: «قصد إنذاره» ـ لم تكن للضحية علاقة بهذه الحكاية، لقد كان فقط صديق الطفولة لمحند صالح وهو الشاب المنتسب إلى أولاد داود اعتبروا المسألة خيانة عظمى يعاقَب عليها بالموت تقريباً ـ لكن ليس الأمر بهذه الصيغة كلياً، فالمسألة على كل حال تدور في جو عائلي.

لنسجل هنا أن هذه التعقيدات التي كان في إمكانها أن تصبح درامية، لم يكن لها أن تقع لو لم يتزوج أبو محند صالح (ذلك الرجل الذي قُتل في ١٩٢٠، وهي اللحظة التي بدأت فيها الحكاية) من أجنبية: يعني امرأة ولدت في مكان يبعد بأقل من ثلاثة كيلومترات عن منزله، لكن في فرقة أُخرى.

النبل والشرف لا يمكنهما أن يتحققا إلا بغياب الاختلاط

في القرن الرابع عشر، عندما يتحدث المغاربي الكبير ابن خلدون[1]،

---

(١) ولد في تونس سنة ١٣٣٢، عاش في غرناطة وفاس ثم تلمسان، وتوفي سنة ١٤٠٦م. لقد كان أنموذج القاري.

وهو من أوائل علماء الاجتماع المعاصرين، عن الرحّل الفقراء فإنه يقول: «. . . وبعدوا من أرياف الشام والعراق ومعادن الأدم والحبوب كيف كانت أنسابهم صريحة محفوظة لم يدخلها اختلاط ولا عرف فيها شوب». وفي حديثه عن زمرة أُخرى أكثر خطورة يقول: «وأما العرب الذين كانوا بالتلول وفي معادن الخصب للمراعي والعيش (. . .) فاختلطت أنسابهم وتداخلت شعوبهم مع كل واحد من بيوتهم من الخلاف عند الناس ما يعرف وإنما جاءهم ذلك من قبل العجم ومخالطتهم. . .»[1].

يفند ابن خلدون، في مكان آخر، الصانع اللامع «للنهضة» التي سبقت نهضتنا بأربعة قرون: ألا وهو ابن رشد، المتحمس للفكر القديم، الذي ساعد على بعثه، والمتشبع بالروح الأثينية، وهو الآخر مديني، كان يدافع عن فكرة أن النبل يتوقف على قِدم العائلة وعلى عدد أفراد مشاهيرها.

يجيب ابن خلدون، بعد ذلك بقرنين من الزمن: «النبل والشرف لا يمكنهما أن يتحققا إلا بغياب الاختلاط». ومن خلال هوة السنين تؤكد العائلات الأرستقراطية الأكثر قدماً في البحر الأبيض المتوسط ما قاله ابن خلدون. وأقصد بالعائلات الأرستقراطية طبعاً الرحّل والفلاحين الملاكين.

هناك إذن نوعان من النبل: نبل حديث، لأنه لم يكن من الممكن تصوره قبل وجود المدن الكبرى والدول، حدده ابن رشد، حيث يتم فحص ومقارنة قِدم الأنساب وشهرتها.

أما في النوع الثاني، والذي عبّر عنه ابن خلدون[2]، لا يمكن القيام فيه بفحص ولا بأية مقارنة، لأن ما يغذي جوهر النبل بالضبط هو أن يكون

---

(١) لقد تم الرجوع مباشرة إلى النص الأصلي لابن خلدون، وذلك بسبب ما يشوب النص المترجم إلى الفرنسية من غموض والذي اعتمدت عليه الكاتبة. مقدمة العلامة ـ ابن خلدون ـ الفصل ٩ «في أن الصريح من النسب إنما يوجد للمتوحشين في القُفْرِ من العرب ومن في معناهم»، نشر دار الفكر، ص ١٣٠ (المترجمان).

(٢) «وقد أخطأ أبو الوليد بن رشد في هذا لما ذكر الحسب في كتاب الخطابة من تلخيص كتاب المعلم الأول. والحسب هو أن يكون من قوم قديم نزلهم بالمدينة ولم يتعرض لما ذكرناه، وليت شعري ما الذي ينفعه قدم نزلهم بالمدينة إن لم تكن له عصابة يرهب بها جانبه وتحمل غيرهم على القبول منه». ابن خلدون، **المقدمة**، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٥.

وحيداً. إذن المحافظة على الذات كما هي، بوقايتها من الاختلاطات والاتصالات، المواجهات وبإبعادها عن هذا الإذلال الماكر الذي تتضمنه كل مقارنة، فردية أو متملقة.

الآن، في جنوب البحر الأبيض المتوسط، يتفاعل هذان النوعان من النبل تقريباً في كل جهة: فالنبل هو الذي ينحدر بكل يقين من جد صاحب أمجاد ـ لكن اليقين لا وجود له إلا في الزمرة التي لا تقبل الأجنبي. وعكسياً، إن عدم قبول الأجنبي يكفي في حد ذاته لخلق النبل ـ وأي جد يكفي إذن لتزكية كبرياء ما ـ والحال أننا ننحدر دائماً من شخص ما.

تقديس الجِد

في عدد كبير من الحالات، تقيم الممارسة خلطاً بين تقديس هذا الشخص ـ جِد محترم باعتباره كذلك ـ وذلك التقديس الذي نخص به، بهذا القدر أو ذاك من الأرثوذكسية، ولياً يصنع المعجزات، أو نخص به شريفاً.

إن هذا الخلط يميل، طبعاً، إلى القضاء على الأول لمصلحة الآخر ـ إلا أنه بإمكاننا أن نجد (أساساً في القبائل الأكثر عزلة والأكثر قِدماً) تقاليد خاصة بهذا الجِد الرمز أو ذاك، والذي لم يكن ولياً ولا حتى مسلماً في بعض الأحيان، وله تاريخ يشبه تاريخ الأولياء.

علاوة على الخرافة التي تكلل تأسيس العشيرة، نجد كذلك قداستها: في هذا التجمع السنوي للأحفاد الجد لأجل وليمة سنوية كبرى تسمى الزردة في عدة مناطق من إفريقيا الشمالية.

هل هذه الخرافات، تقلد تاريخ الأولياء صانعي الكرامات سادة المدينة، والعشائر؟ إن العكس هو الذي يبدو لي أكثر احتمالاً لأن غياب أرثوذكسية[1] هذه الشعائر التقديسية وتجذرها المتصلب بشكل استثنائي وكذا كبيرة ـ والتي لا تغدو شهادة هيرودوت لصالحها إلا حجة إضافية[2].

---

(١) شكلت الطرقية منذ القدم، العدو اللدود للإسلام السني.

(٢) انظر الفصل الرابع.

رغم قِدم هذه الشعائر المقدسة القديمة المكرسة لجد أو ولي أو عامي، فإنها تبدو، وللوهلة الأُولى، أقل قدماً من الشعائر المقدسة لأصل الأسر (La Souche) - إنها تثير تكيفاً، تحديثاً وتعميماً بالنسبة إلى هذه الأخيرة: حيث يغدو من السهل، وبالتالي من الأكثر شيوعاً الانحدار من شخصية مشهورة عوض المحافظة بلا اختلاط - حتى ولو كان ذلك في الصحراء سيكون الأمر مستحيلاً، لأن صعوبات المؤسسة تتكاثر بشكل مدهش مع القوة والغنى، كما لاحظ ذلك ابن خلدون جيداً.

إن هذا النوع من النبل «المستحيل» والمختفي من كل جهة، ترك هنا وهناك، على طريقة الرخويات الحفرية، بصمات منقوشة بشكل جيد، كيف يجب تأويل الخصائص المتبقية، وخاصة هذه الإرادة في الزواج الداخلي التي لاحظناها سابقاً؟

هل يجب أن نعتقد بالأُولى أننا أكثر نبلاً لأن دم الجد قد «دُعم» عند كل جيل بزيجات عصبية؟ أو لأن أي دم غريب (تم التعرف عليه) لم يأت لقطع وإذن لإفساد، المجرى المنبثق من نبع ليس بالضرورة مجيداً أو مقدساً، لكنه حقيقي وخالص - في الحالة الأُولى فإن حضور بعض القطرات لدم ما يؤسس الكبرياء وفي الحالة الثانية فإن الكبرياء يتغذى من الغياب: أي غياب[1] الفساد الذي يكونه أي تعايش. حالياً يحترم دم النبي بكل تأكيد عند الرحّل والمنتجعين المغاربيين كما هو الشأن عند القبايل، لكن الاقتران بأحد أحفاده لا يكون مطلوباً إلا عند العائلات الحاكمة - إن احترام عِرق رسول الله ﷺ عند الرحّل وعند بعض العائلات القروية العريقة جداً والمتحضرة، يوجد خارج إطار الزواج المطبق، داخل هذا الإطار كل واحد يعتقد أن دمه أفضل من دم الآخرين.

إن أعتق نبالة تقتضي أساساً عدم «الاختلاط»، وبالنتيجة عدم الاتصال

---

(١) Ablert de Boucheman، ملاحظة حول تنافس قبيلتين راعيتين للغنم من سوريا، **مجلة الدراسات الإسلامية**، ١٩٣٤.يشير المؤلف إلى هذه الحالة عند عرب المشرق، ص ١٨، قائلاً: «إنه لا يشرف كثيراً عدم الانتماء إلى عائلة كبيرة (والكبر يقاس بعدد أولاد العم الأحياء أكثر منه بالأجداد المعروفين). ثم ص ٢٧: «إننا نعرف، بالفعل، ميل هؤلاء (الرحّل الكبار) إلى احتقار القبائل المكونة من أجزاء وقطع...».

بأي كان، اللهم الأقارب. وتبعاً لذلك، إنه لأمر نبيل، استقبال الضيوف العابرين بنوع من الأبهة ـ ثلاثة أيام ـ وأن يكون للمرء شرف رديف، وأن يقدم حماية فعالة لضيوفه، إلا أنه، في هذا المنزلق، على المرء أن يعرف كيف يقف، بالفعل عندما يكون المرء مشبعاً بفكرة أن أي دم لا يمكن أن يكون أحسن من دمه، ويحاول نشر هذا الرأي، فإنه يقوم إذن بمهمة خطيرة لأنها ستفرض عليه بناء بعض العلاقات مع الناس الذين يراد إقناعهم بذلك. إن تلك المهمة تسجل بالضبط بداية الانحطاط، أي الانتقال من الفئة العتيقة المغلقة إلى التراتبيات الحديثة حيث يخضع التصارع وبالضرورة إلى هذا القدر من التمايز أو ذاك.

الثقلاء يكوّنون جزءاً من العائلة، لذا نستقبلهم

يبدو أن فئة مغلقة مماثلة لتلك السابقة قد وجِدت في مرحلة بعيدة جداً في شمال البحر الأبيض المتوسط، لكن آثارها امحت تقريباً. إننا على علم بأن النبالة الغالية (Gauloise) والنبالة الجرمانية (Germanique) في بلادنا، قد وصلت إلى المستوى الرشدي قبل أن تجد نفسها في اتصال مع الإثنولوجيين الأوائل، وتحديداً، César، Pline، Tacite. لكن هناك مؤشرات تسمح بالاعتقاد في وجود «المستوى الخلدوني» بشكل سابق[١] على الذي وصفوه لنا. بعد ذلك خضعت مختلف نبالات المرحلة المسماة فرنسية للامتزاج الذي نعرف، ثم خضعت طوال قرون للتحفيزات الخشنة للملكية سفاحة ولديكتاتورية المال. في حين أن أدوات مختلفة تنكشف تحت «المستوى الرشدي» الممثل حالياً بذرية نبالة البلاط المنقرضة، كدعامة جيولوجية حقيقية للمستوى السابق. وتدوم في

---

(١) Marc Bloch حول ماضي النبالة الفرنسية، رؤوس أقلام بحث، **حوليات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي**، ١٩٣٦، VIII، ص ٣٦٧: «من الممكن أن نلمس أحد أقدم خطوط الانعطاف لحضارتنا مع التقابل الأساسي بين أسياد الإقطاعيات والشعب المزارع الكثير العدد»، Fustel de Coulanges، **تاريخ المؤسسات السياسية لفرنسا القديمة**، Hachette، ١٩٢٤، ص ٢٧٠: «كانت النبالة تشكل مؤسسة لدى الأمة الجرمانية القديمة، مؤسسة أضعفتها الحروب الداخلية ودمرتها الهجرات. كما كانت هناك نبالة في المجتمع الروماني. لقد دامت هذه الأخيرة وتلك الجرمانية تقريباً إلى حدود الغزوات، ثم اختفت النبالتان بسبب هذه الغزوات (. . .) هذه النبالة الجرمانية **لا** تشبه تلك التي لاحظنا في الإمبراطورية الرومانية. أنها قريبة من الأرستقراطية البدائية لليونان القديمة وروما القديمة».

منعزل نبالة عسكرية، فقيرة وقروية، حيث يحصي المرء «أحياءه» ويتجاهل «جيرانه».

في اللحظة التي كنت أكتب هذا الفصل، عثرت مصادفة على كتاب صغير موجه للقراء الذين لا يعرفون إلا ١٣٠٠ كلمة من اللغة الفرنسية. يصف لنا الكاتب[١] قصراً قديماً، فيه طفل في العاشرة من عمره، يسأل أمه عن سر استقبالها لأبناء عمها الثقلاء: «الثقلاء يكونون جزءاً من العائلة، لذا نستقبلهم... من جهة أُخرى، وهذا صحيح، إننا لا نستقبل كثيراً من الناس في قصرنا... هنا توجد العائلة، والعائلة يجب أن يدافع عنها ضد كل خطر. فالغريب يشكل خطراً».

ـ طبعاً إن هذا الاستمرار في البقاء سيكولوجي أكثر منه واقعي[٢].

نعني بذلك أنها أفكار ومستبقات وفولكلور، تنفلت من الهدم، أما الأنساب فلا تنفلت منه. لكن عندما تختمر مجموعة منسجمة من المستبقات في الليل الشاسع لما قبل التاريخ، فإنها تسمى «شعوراً» يمكنه بدون أدنى شك أن يستمر في البقاء لمدة طويلة بعد زوال المؤسسات.

العصر الذهبي

في عائلة من هذا النوع ـ والأمر يتعلق بالرحّل أو نصف الرحّل المغاربيين وليس بالنبالة الريفية الفرنسية ـ كل قروية صغيرة، من القرويات التي عرفت، قد تربت مع بنات عمها من أبيها اللواتي لا يتميزن عن أخواتها: في حين أن أخوات وبنات عم أبيها (اللائي) يتعاملن معها وكأنها ابنتهن الخاصة ـ من بين هذه الأخيرات توجد في الغالب أم حماتها[٣] المقبلة ـ وعند وصول المرأة الشابة

---

(١) Piérre de Beaumount، **من زمان الأم ـ السيدة**، Didier، ص ٦٢. كتاب صدر ضمن سلسلة اللغة الفرنسية الأساسية.

(٢) Léopold Geniro، النبالة في العصر الوسيط في «فرنسا» القديمة، **حوليات، اقتصاديات مجتمعات، حضارات**، كانون الثاني/يناير ـ شباط/فبراير ١٩٦٢، ص ٥. «لكن بغياب الاستمرارية البيولوجية... ألا تكون هناك استمرارية المفاهيم؟».

(٣) في المجتمعات ذات الزواج الداخلي، التي ترددت عليها طويلاً (الأوراس)، فإن الزمرة التي تفضل الزواج من داخلها تتكون من ١٠٠ إلى ٣٠٠.

إلى منزلها الجديد، البعيد أمتاراً معدودة عن ذلك الذي رأت فيه النور سنوات قليلة مضت، فإنها تحافظ إلى جانب حماتها وسلائفها على علاقات مودة تتميز بالثقة، وهي علاقات ترجع إلى مرحلة ولادتها، في حالة سوء تفاهم مع زوجها، فإن هذا الأخير هو الذي يجب عليه أن ينحني أمام التحالف القوي للكتلة النسائية. ولقد عرفت أولاداً زُوجوا بلا مشورتهم، ففروا إلى فرنسا قصد التخلص من زوجاتهم لأنهم لم يجرؤوا على طلاقهن[1]. وبالمناسبة، كان الزواج المتعدد استثنائياً، والطلاق نفسه كان أقل انتشاراً وأقل اعتباطاً، ولا نرى أبداً طفلاً مهملاً من طرف أبيه.

من المسلم به، أن الفتاة الصغيرة كانت تعرف أبناء عمها قبل زواجها، ومن دون أن تضع حجاباً على رأسها، وطبيعي أنها تحدثت معهم وفي الغالب عن قرب. ومن المسلَّم به كذلك أنهم يحترمونها مبدئياً: يعتبر شرفها غالياً لديهم، لأنه شرفهم الخاص ـ إلا أن التسامح، في بعض مناطق المغرب العربي (وبالضبط المناطق الأكثر قِدماً) كان كبيراً فيما بين الأقارب، وفي المناطق الأكثر تشدداً، فإن الطبيعة والعشب الناعم والمصادفة... باختصار.. كل شيء، في أي مجتمع، قد يحصل يوماً ما.

إلا أنه عندما تقع الحادثة داخل عشيرة، ذات الزواج الداخلي، فإنه «يكتم الحديث حولها»: فالفتيات اللطيفات جداً يتزوجن بابن العم المفضل لديهن. الأرامل والمطلقات يعشن حياة فيها قليل من التشدد من دون إثارة أي استهجان، بمفردهن النساء المتزوجات ينعزلن بنوع من التحفّظ، وهو بدوره تحفّظ غير مطلق كما يبدو للوهلة الأُولى: عند بعض جبليي الأطلس خاصة، عندما يغيب الزوج طوال أسابيع كاملة، فإن تركه لزوجته لوحدها مع الراعي

---

(١) أحد هؤلاء كان أول رجل من قبيلة بني ملكم، ذهب للعمل في فرنسا (في ١٩٣٧) كان الولد البكر للأرملة، وكان شديد الغضب بسبب الزواج المفروض عليه، إلى درجة أنه لم يحضر الحفل، ومع ذلك فقد كان الزواج شرعياً، ولأنه لا يستطيع تسريح زوجته احتراماً لأمه فقد هاجر: «حتى يصيبها الضجر فتنسحب». بعد سنة من الوحدة، انسحبت الزوجة المهجورة فعلاً ـ وبغبطة كبيرة أرسل الزوج رسالة الطلاق، وفي تلك الأثناء كان قد جمع مالاً كثيراً، فرجع وتزوج امرأة من اختياره.

لا يصدم أحداً، فهذا الأخير في الحقيقة غالباً ما يكون أحد أبناء العم. إن الاعتقاد في بومركود [حرفياً الطفل النائم]، ما هو إلا إضافة لهذا التسامح القديم، نعلم أن هذا التسامح يفرض، على رجل غاب لعدة أعوام، أن يعترف بالطفل الذي ولدته زوجته خلال هذه الفترة، ونعرف كذلك أن هذا التساهل المعطى للزوجات المهجورات قد دُعم من طرف القانون الإسلامي.

إذن على الزوجة أن تكون مخلصة، لكن، وفي دوار يطبق الزواج الداخلي، إذا لم تكن كذلك لا قدر الله، فإن الزوج ـ ابن العم له الاختيار بين حلين: طلاقها بلا مشكلات أو قتل ابن العم ـ الغريم. فإذا ما انتقم، فإنه لا يعرض نفسه لانتقام مضاد من طرف أقارب الضحية، لأنهم أقاربه هو الآخر، وسيعتبرون موت فرد من العائلة فيه كفاية. وفي أحسن الأحوال، وحيث الملكية الخاصة مؤسسة من قديم فإن المنتقم سيؤدي «ثمن الدم».

علاوة على هذه الحرية في العلاقات داخل وسط حميمي، فإن النساء في عدة قبائل للعرب الرحّل (لنتذكر أن النسب عند هؤلاء أبوي) يحظين بتقدير كبير.

هكذا، ما زال أولاد ساولة، وهي قبيلة صحراوية لزاب الشركي التي عرفتها منذ عشرين سنة، ينصحون في عقد الزواج، على أن أي امرأة من دمهم لا يمكنها أن تصعد رابية ما على قدميها، ولتجنب كل تعب لها، يسجل كمهر لها ناقة بيضاء وأَمَة كذلك[1]. إن أولاد ساولة كانوا في تلك المرحلة فقراء جداً ولا يملكون نوقاً ولا خادمات.. لكنهم كانوا يستمرون في تسجيل هذه الشروط في عقودهم، رجال فخورين ومرتابين، يتزوجون النساء من دمهم ويتسامحون فيما بينهم «كإخوان ـ أبناء العم»، وعند إسقاط البروتوكول ـ يقدمون عند استطاعتهم حمارة «للزوجة الأخت» قصد قطع التلال الوعرة.

أطلب من الفزّاع ألا يشرب الحليب كله

ما زال التقدير اتجاه النساء محترماً عند الموريتانيين الرحّل، ذلك التقدير

(١) Le Douaire (مقدار يقدمه الأزواج إلى زوجاتهم لحظة الزواج) واجب قرآني، لا يؤدى في الغالب إلا جزئياً أو لا يؤدى على الإطلاق، كما هو الحال هنا.

الذي شجعه مناخ أقل قساوة وصدف السياسة: فالعروس الشابة، المنتمية إلى عائلة غنية تتسلم فعلاً مهراً من زوجها وصداقاً من أبيها في آن واحد. وهذا الأخير يتضمن دائماً خيمة، وفي بعض الأحيان أَمَة أو عدة إماء[1]، وكذا الماشية التي تتصرف فيها كيفما تشاء ـ إنها تقتضي في الغالب من زوجها، إذا أراد زوجة ثانية، أن يلزم نفسه في حالة طلاقها بعقد يحتوي مهراً باهظاً، لا يؤديه كله إلا في حالة الطلاق، أي إذا قرر ربط علاقة ثانية: يشكل هذا البند ضمانة فعلية ضد تعدد الزوجات، وضمانة نسبية ضد الطلاق.

طوال الأشهر الأُولى من الزواج، تستمر العروس في الإقامة قرب معسكر أبيها، داخل الخيمة البيضاء التي أهداها لها أقاربها: هنا يأتي الزوج الجديد لزيارتها كحبيب ولهان، إلى أن ترضى بالذهاب للعيش معه ـ غالباً ما يكون ذلك بعد المولود الأول.

في الحياة العادية، لا يسمح رجل من عائلة محترمة لنفسه بأن يعاتب زوجته فحسب، بل إن الأدب يمنعه من أن يعاتب كذلك العبيد الذين هم في ملكيتها الخاصة: يروي الموريتانيون من باب الفكاهة الحكاية التالية: كان هناك رجل ينتظر ضيوفاً، وكان يريد استقبالهم بحفاوة كبيرة، لكنه كان يعاني نقصاً في الحليب، لأن خادم زوجته كان يسرقه كل نهار:

ـ «إنني أنتظر ضيوفاً غداً»، قال الزوج اللطيف للخادم، «أطلب من الفزاع ألا يشرب الحليب كله اليوم».

ولتسهيل الحلْب في عدة بلدان رحالية، وخاصة عند الموريتانيين، تقتضي

---

(١) العبودية ممنوعة رسمياً في إفريقيا: كان ذلك منذ ١٩٠٩، في المستعمرات الفرنسية القديمة، لكن بعد مرسوم ١٨٨٤، أي أكثر من ٥٠ سنة بعد القرار الحكومي، منعت في نيجيريا سنة ١٩١٦ وفي سيراليون سنة ١٩٢٨ ـ انظر بصدد هذا الموضوع Vincent Montiel، **الإسلام الزنجي**، Le seuil، ١٩٦٤، ص ٢٥١. عملياً ما زالت العبودية في المناطق الصحراوية، ولكن بسبب الممنوعات الرسمية، لا يمكن بيع وشراء العبيد إلا في الحالة الاستثنائية، وفي السوق السوداء، على العكس من ذلك، ما زال الأسياد يحتفظون بعبيدهم ولا يؤدون لهم أي أجر ويمكنهم أن يهدوهم للغير.

(٢) إن بقاء العبودية يكون شكلاً من المشكلات الدرامية للصحراء، لكنه شكل اقتصادي وليس قانونياً ولا سياسياً: قانونياً العبيد أحرار لكنهم لا يكونون كذلك إلا بعد حصولهم على عمل مؤدى عنه وبعد اعتراف المجتمع الذي يعيشون فيه بحريتهم.

العادة أن نقرّب من النوق التي نريد حلبها فزاعاً محشواً بالتبن بجسد ابنها. إن هذه الممارسة لا تستعمل في الهجار[1] إلا عندما يموت ابن الناقة، كما قيل لي، فيُسلخ جلده ويملأ تبناً، وتعاد خياطته، ويوضع بجانب الناقة حتى تعتقد أن صغيرها ما زال حياً وتدر الحليب ـ بعد خمسة أشهر يتم رمي الفزاع ـ لأن جلده ليس مدبوغاً جيداً ولا يصلح إلا لمدة الحلْب. إن النوق تعرف صغارها ولا تنخدع بجلد أي ابن ناقة آخر في مالي ـ كما قيل لي ـ يقوم طوارق أو ليميدن بالشيء نفسه مع الأبقار التي فقدت عجولها. يبدو أن هذه الممارسة لا تطبق على النعاج ولا على الماعز. هذا الفزاع يسمى في الهجار أهيدوج (Ahayoudj) جمع ايهودين (Iheoudien).

عشيرة الرحّل

لتكلمة هذه اللوحة لعشيرة الرحّل، يجب الإشارة إلى أننا نستطيع الرجوع إلى الشريعة الدينية عند الاقتضاء، أي إعطاء مهر[2] للزوجات فعلاً، إعطاء إرث للفتيات من دون أن ينهار بناء المجتمع كله. إن الإرث يتكون تقريباً من الماشية فقط، وعندما يحتوي على الأرض، فإنها لا تزرع مباشرة من طرف أهلها وإنما تزرع بواسطة الأقنان. من الممكن إذن، إذا كانت هناك أراض أن تباشر اقتطاعات على الإرث من دون دفع العائلة إلى قبول جيران جدد وبالتالي دفعها. . . إلى الشهبات. على العكس من ذلك، إن قبول الشريعة الدينية بالنسبة إلى الفلاح الحضري الذي يتكون الإرث لديه من حقول، معناه آجلاً أو عاجلاً هدم وحدة التراب، إذن بنية القبيلة.

كنا نتصور أننا سنجد عند الطوارق الرحّل ـ حيث ما زالت آثار النسب

(١) في كتاب حديث، يقدم مساهمة ذات قيمة كبرى لدراسة الطوارق.

(٢) Johannes Nicolaisen، **البنى السياسية والاجتماعية لطوارق العبر والهجار**، ترجمه من الإنكليزية Ifah D. Bernus، نيجر، ١٩٦٢. كتب المؤلف في ص ٩٠ بصدد تقنيات تربية الجمال والأبقار: «كل الطوارق وربما كل العرب مربو الجمال يستعملون الجلد المخيط لجمل صغير ميت قصد حلب الأم طوال مرحلة الحلْب لأن النوق مثل الأبقار لا تعطي الحليب إذا لم يكن صغارها بجوارها. هذه العادة منتشرة بشكل واسع بين مربّي العالم القديم» والحكاية التي رويتها أعلاه، حكيت لي في موريتانيا، منذ سبع سنوات من طرف موريتاني من بني حسان، أي ناطق بالعربية.

إلى الأم في كل جهة تقريباً ـ تقديراً للنساء أكثر مما هو عليه الحال في موريتانيا، إلا أننا لم نعثر على أي شيء. على العكس من ذلك، فإن التشابه كبير جداً بين المجتمعين الرحلين، الطوارقي والعربي ـ إن الاختلافات، حول هذه النقطة ونقط أُخرى بين البنية الأميسية والبنية الأبيسية اختلافات ضئيلة: فالتشريع القرآني الحامي للمرأة يُحترم بحزم في هذه المنطقة أو تلك.

إن القرآن يقتضي أن يكون للفتاة حصة من إرث أقاربها[1] وأن يعطي الزوج زوجته لحظة الزواج مقداراً من المال غالباً ما يهديه لأبيها فيشكل هدايا تقليدية، أو تسيره بنفسها بحسب رغبتها. أي إن الشريعة الدينية تخرق بصدد هاتين النقطتين في «المنطقة القروية» وفي مجموع العالم العربي البربري لإفريقيا ـ باستثناء الطوارق والموريتانيين ـ إنه لمن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن جميع مسلمي إفريقيا الآخرين يعلنون ورعاً كبيراً ويحتقرون صراحة غياب الأرثوذكسية عند الطوارق.

في الحقيقة، لا يقدم المجتمعان ـ المجتمع الصحراوي الرحّل والمجتمع الحضري ـ حول هذه النقطة بالضبط، المقاومة نفسها للانجراف الديني.

والآن حان الوقت بالنسبة إلينا، لنبحث عن تقدير هذه المقاومة، لأن الزوبعة والريح يهاجمان الغرانيت (الصخر) كما يهاجمان الحصى، لكن لا يباشرانهما بالطريقة نفسها.

(١) انظر الفصل التالي: «الثورة القرآنية».

الفصل السابع
نزاع مع الله

ورع انتقائي

إن التأثيرات التي طورت المجتمع القبلي في المغرب العربي إلى الآن، كانت هي: الاتصال بالمدينة، الدين، الغنى الفاحش، الفقر المدقع واكتظاظ السكان. . . سنضيف مستقبلاً بدون شك، المدرسة، التلفزيون، السياسة، لكن هذه الأسباب الأخيرة للتحول لم تؤثر إلا في المدن.

أما في البوادي، فيجب انتظار بضعة أعوام للشعور بتأثيراتها. أما في ما يخص لجان التسيير والأحزاب السياسية، فلا تأثير لها بعدُ على البنى العائلية.

لقد انطلقت هذه السيرورة التطورية من غسق التاريخ ـ قبل موسى، وعيسى، وقبل محمد ﷺ ـ لكنها مثل الصدأ ـ مثل التأكسد، لم تؤثر إلا على السطح. بعبارة أُخرى، أثرت هناك حيث كان الاتصال بين مجتمع البوادي والسهوب وبين مجتمع المدن. وستحاول تلك السيرورة القيام، مع الدين، باختراق عميق للقبائل.

إنه لتمرين جيد للعقل، ووسيلة لكسب حميمية حضارة ما، القيام بمقارنة العادات الواقعية لمجتمع ما بتعاليم أخلاقه ودينه ـ ثم قياس التصدع بينهما.

والحال أنه مثلما تختار المجتمعات الأوروبية القديمة من المسيحية ما يدعم مواقفها (بإسقاط أو تحريف المسائل الرادعة لفواحشها الأساسية)، كذلك أخضعت مجتمعات إفريقيا وآسيا الصغرى الإسلام لتعامل من المستوى نفسه.

هذا ما يسمح لنا بالتمييز داخل تعاليم القرآن بين صنفين: أولاً إرشادات

مطبقة بشكل عام ومبالغ فيها حتى (مثلاً الإرشادات المتصلة بالحجاب)، ثم سلسلة من الأوامر القاطعة التي تم تجنبها بعناد من قرن إلى قرن. وفي هذا الصنف الأخير توجد أساساً التعاليم الدينية التي كان هدفها إعطاء الحقوق للمرأة باعتبارها شخصاً.

إن الدين الإسلامي ـ المولود الأخير للتبشيرات الثلاثة التوحيدية الكبرى، لكنه المنبثق من الفوهة السامية نفسها ـ قد غطى تقريباً، في المنطقة نفسها الطفوح التي تركها الانفجاران السابقان (اليهودية والمسيحية). واتفق أن في شمال شبه الجزيرة المشرقية، حيث رأت الديانات الثلاث النور، وجدت ديانات الإله الواحد بالضرورة، وسطاً مرجواً من مدة في «انحطاط البنى القديمة» التي سنحلل عوارضها في الفصل القادم[1].

المولود الأول من الثلاثة، الدين اليهودي، هاجر بعيداً عن موطنه الأصلي، إلى قارات غريبة شكل فيها أقلية، حيث كان من الممكن طبيعياً أن ينحل، غير أنه استمر في البقاء، وربما كان ذلك بسبب الاضطهادات التي كان أتباعه ضحايا لها (فإذا ما زال هناك «يهود» فالسبب يعود إلى اللاساميين ربما).

من جهتها، اكتُسحت المسيحية في جزء منها من طرف الإسلام، هناك حيث ولدت، لكنها ستجد أرضها المختارة (ووضعاً تشكل فيه أغلبية) في البلدان المتأثرة بالقانون الجرماني[2]، الذي اعترف للمرأة بوضعها الحقوقي كشخص منذ العهد القديم جداً. وباختصار، فإن الإسلام قد «مسح» تقريباً بمفرده ظاهرة اجتماعية ترجع علاقاتها به أساساً إلى الجغرافيا لا إلى الثيولوجيا.

الحجاب بحسب القديس بولس

منذ مدة قصيرة ـ وبالضبط قبل التطور السياحي الحديث في الأعوام العشرة الأخيرة ـ كانت المرأة في إسبانيا والبرتغال وجنوب فرنسا وكورسيكا وإيطاليا الجنوبية واليونان ولبنان، تحدث ضجة إذا دخلت إلى الكنيسة من دون أن يكون شعرها مغطى ولو بمنديل ـ طبعاً هناك رسالة من القديس بولس

(١) **سبعة آلاف سنة من هدم البنى القديمة**، ص ١٨٢.

(٢) إن الأمر أقل صحة بالنسبة إلى الكاثوليك منه إلى البروتستانت.

توصي بذلك[١]، لكن هذا الأخير يأمر العبيد أيضاً بطاعة ساداتهم «مثل طاعة المسيح»[٢].

ومع ذلك، تخلى العبيد المسيحيون عن العبودية. كما ينصح أيضاً بترك الانتقام[٣]: باركوا أولئك الذين يضطهدونكم، باركوهم ولا تلعونهم ولا ترجعوا لأحد الشر بالشر... ولا تأخذوا الحق بأنفسكم، يا أحبائي.

وبقي شمال البحر الأبيض المتوسط إلى حدود جيل أجدادنا، وفياً كلياً لأخذ الثأر، أي للوازع الأخلاقي في الانتقام لكل أعضاء العائلة. وإذا كان الأخذ بالثأر هنا وهناك، في البلدان المسيحية، قد أهمل، فليس إذعاناً للقديس بولس، لأننا نلاحظ أن الممارسة الدينية نفسها قد خضعت في الغالب لإهمال مواز.

في هذا الوقت، لم تعد النساء السافرات يزعجن أحداً في الكنائس الباريسية والشامبانية[٤]، حيث لا يحظى القديس بولس بتقدير أقل مما يحظى به في مصلى باستيا وتارونت.

---

(١) القديس بولس، الرسالة العاشرة موجهة إلى الكورنثيين من دون أن نكون مختصين في كتابة القديس بولس، يمكننا أن نميز بسهولة بين قريحتين في رسائله، بين تأثيرين، التأثير الأساسي يقدم لنا انعكاسات تأمل أصيل، عميق، خارج الزمان: إنها (الكتابة) مجاورة للمحادثة اليومية لرجل من القرن الأول لعصرنا، رجل نشيط ومتعجل ـ الرجل المتعجل هو الذي يتحدث لنا عن الحجاب، هذا ما يقوله: «لا يجب على الرجل أن يغطي رأسه، لأنه صورة الله وانعكاسه، أما المرأة فهي انعكاس الرجل»... «وليس الرجل طبعاً هو الذي خلق المرأة»... «لهذا يجب أن يكون على رأس المرأة علامة خضوع. بسبب الملائكة...».

(٢) القديس بولس الرسالة السادسة موجهة إلى الايفيزيين. رغم نصيحة القديس بولس، فالعبودية اندثرت تدريجياً في أوروبا الغربية حوالى القرن الحادي عشر. ولأسباب اجتماعية واقتصادية وليست دينية، الوضعية في جنوب البحر الأبيض المتوسط مغايرة تماماً: هنا ينصح الإسلام بوضوح بتحرير العبيد المسلمين، إلا أن العبودية استمرت بشكل متشتت إلى اليوم: استمرت بوضوح في العربية السعودية، وسرياً في المناطق الصحراوية للمغرب العربي ـ لقد أثرت في هذه الحالة أو تلك أسباب اقتصادية محض.

(٣) القديس بولس، الرسالة الثانية عشرة الموجهة إلى الرومانيين.

(٤) لقد رأيت حديثاً ملصقاً في إحدى كنائس بروتاني يرجو من النساء ألا يأتين بالبنطلون القصير.

... إن «الغربال الذهبي لمسيحيي شمال الألوار لم يحتفظ ظاهرياً بالكلمات نفسها التي احتفظ بها الغربال المتوسطي، رغم تلقيه الخطاب نفسه».

جان دارك وروبر الورع

غالباً ما كان مارسيل موسى يلح في درسه بالكوليج دو فرانس، على هذا الاختلاف بين القانون الروماني والقانون الجرماني: الأم في القانون الروماني لها رابطة قرابة بولدها لأنها تعتبر خيالياً كأخت بكر: على العكس من ذلك في القانون الجرماني، للولد قرابة بأبيه وأمه كما هو الشأن في أغلب القوانين الأوروبية الحالية. وبهذا الصدد، لاحظ مارسيل موس بأن روبر الورع إذا كان قد تزوج واحدة من ذرية شارلمان لكي يعطي مشروعية لحقوقه، فلأنه كان يعتبر أرض فرنسا أرضاً غير خاضعة لشريعة الإفرنج (Salique)[*]. وبالتالي كان القانون والعرف الحقوقي لملوك فرنسا، في النزاع الذي كان سبب حرب المائة عام، في مصلحة الأطروحة الإنكليزية. ولمصلحة الأطروحة الفرنسية، كانت جان دارك وما نطلق عليه الآن «الشخصية الوطنية».

إن التأثير «الشمالي» فرض نفسه في فرنسا بما فيها جنوبها، فمنذ وقت طويل لم يعد النساء يتزوجن بالقوة، ولا توصد عليهن الأبواب، ولا يحتجبن - فالقوة الصناعية للدول الشمالية ساهمت في انتشار أنماط (عاداتهم) في جميع البلدان المتوسطية. وهكذا منحت أخيراً كل من فرنسا وإيطاليا، يوغسلافيا واليونان حقوقاً سياسية[1] للنساء. وفي البرتغال، واكبت هذه الحقوق الثورة سنة ١٩٧٤. وفي إسبانيا عندما يصوت الرجال، فإن النساء يتبعنهم.

أُمنا الكنيسة القُدُس أمٌ ذكورية

لقد مورس أيضاً التأثير العكسي - ففي فرنسا، بما فيها فرنسا الشمالية،

(*) قانون فرنسي قديم يمنع النساء من تملك الأرض بالميراث والصعود إلى العرش المالكي (المترجمان).

(١) في سويسرا، وعلى المستوى الفيدرالي، حصل النساء على حق التصويت مؤخراً ولكن فقط على المستوى الإقليمي، إقليمان من سويسرا الألمانية لا يزالان على رفض الحق للنساء (١٩٧٦) وتبرز إمارة لختنشتاين وجمهورية سان مورينو أيضاً ضمن المعاقل الأخيرة للفالوقراطيين الواعين سياسياً.

يوجه البحر الأبيض المتوسط العادات بواسطة القانون الروماني، والكنيسة الكاثوليكية وسنن نابليون، إلى حدود السنوات الأخيرة، كانت المرأة المتزوجة والمعتبرة شرعياً قاصرة، تجد نفسها اتجاه زوجها في وضع الطفل اتجاه أبيه، ولا يمكنها المطالبة بجواز سفر ولا بحساب بنكي[1] من دون رخصة الزوج.

منذ إصلاح ١٩٧٤[*]، يمارس الآباء والأمهات خلال الزواج سلطتهم بشكل مشترك. وبعد الطلاق، تتحول القوة الأبوية إلى من يحتضن الطفل، إذا كان الأمر يتعلق بسفر إلى الخارج، يمكن للأب أو الأم الاعتراض عليه بعد قرار المحكمة.

إن الفتيات يرثن من آبائهن، في الشروط نفسها، مثل الأولاد، وذلك منذ الثورة الفرنسية، لكن يمكننا أن نملأ عدة كتب فقط بملاحظة الطريقة التي تُنتهك بها يومياً القوانين الفرنسية على حساب النساء في أغلب أجزاء فرنسا. ويقبل ضمنياً، في عدة أقاليم، أن تعود الأراضي ومنزل العائلة إلى الولد البكر[2]. لهذا السبب، وقصد أن تمنح له بسهولة أكثر، فإنها تقدَّر في ربع قيمتها عند القسمة ـ ويعتبر القضاة والموثقون والجباة جميعهم، هذا البند الضمني كمثل أخلاقي رفيع، ويطبقونه باتفاق مشترك. وبفضل هؤلاء استمرت الأحباس الفرنسية بشكل جزئي، والملاحظة نفسها بالنسبة إلى الصناعات، فعند موت المؤسس توزع بين وارثيه «حصص» لا تؤتي أي ربح، ويمنع بيعها: هذا ما يسمح للأولاد الحاصلين دائماً على وظائف واقعية تقريباً في مسائل العائلة، بأن يسندوا لأنفسهم كلية الأرباح على شكل رواتب، على حساب أخواتهم ـ المدللات في بعض الأحيان ـ اللائي تقدم لهن الأوراق الرمزية وغير المستعملة، والتي تمثل إرثهن.

---

(١) منذ سنة ١٩١٨، منحت الحكومة الكندية هذه الحقوق على المستوى الفيدرالي «إنه لمن الملاحظ أن إقليم كيبك لم ينتخب قط ولو امرأة واحدة لا في الحكومة الإقليمية ولا في الحكومة الفيدرالية، في حين أن الأمر قد حصل في الأقاليم الكندية كافة»: P. H. Chombart de lauwe، **صورة المرأة في المجتمع**، Ed - Ouvrieres، ١٩٦٤، ص ٢٠٠ (مقال Guy Rocher).

(*) يتعلق الأمر بمسألة الطلاق. انظر الفصل بشأن حق البكرية.

(٢) لا يجب أن ننسى أن صاحب هذه السنن كورسيكا.

هذه الظواهر لا تقوم إلا بعكس هرمية عائلية ما زال محتفظاً بها جيداً في فرنسا، خاصة في جنوب الألوار. وبصدد تلك الهرمية يمكننا سرد عدد غير محدد من النوادر.

مثلاً هذا الأب، رب عائلة ممتاز، مثقف، بورجوازي كبير في الجنوب (Le Midi) وجد من العادي في ١٩٦٤ حجز مقعد من الدرجة الأولى في القطار لولده (المراهق والقوي البنية)، مقابل ذلك ترك بناته يسافرن في الدرجة الثانية في القطار نفسه...

تبدو وضعية المرأة في أوروبا وكأنها موسومة بتقليد شمالي عتيق وليبرالي، وهو تقليد اعترضته خلال قرون ثلاثة مؤثرات متوسطية: مؤثر الحق الروماني، والسنن النابوليونية والنزعة الكاثوليكية التقليدية.

إن أمنا الكنيسة القُدُس، ظلت، فعلاً، إلى يومنا هذا «أمّاً ذكورية» إذا جاز القول. مثلاً في ١٩٦٢، لم تقبل في البرلمان الكوني الكبير المسمى فاتيكان II، أية رئيسة دير للمداولة مع ٢٢٠٠ أب مجمعي - «النساء لا يمكنهن أن يكن كاهنات»، يجيب الكاثوليكيون، لكن في الوقت الذي كان البابوات يهيئون أناساً لا ينتمون إلى الكنيسة أو أطفالاً في سن صغيرة لرتبة الكاردينال، لم يفكر أي واحد منهم في إعطاء الأرجوان(*) لامرأة، والفكرة في حد ذاتها مثيرة للابتسام. إن المواقف الرسمية المتخذة بصدد مراقبة الولادات من طرف هؤلاء الناس العزل، جاءت لتؤكد النزعة العتيقة الإيطالية جداً للجهاز الكاثوليكي.

ويتفق أن هذا الوضع لأسباب جغرافية وتاريخية قد لاقى في كل جهة تقريباً من المجتمع الإسلامي، وضعية عكسية تماماً. يعني عادات أكثر رجعية من الدين.

الثـورة القرآنيـة

في القرن السابع من عصرنا، دخل الإسلام في صراع عملي[1] ضد

(*) الأرجوان: رتبة قنصل أو كردينال في روما القديمة. وهو لباس أرجواني (أحمر قان) (المترجمان).

(١) على المسلم أن يمتثل لعدد من التعاليم الصعبة والتي لا يستحيل تطبيقها. هذا الامتثال يمكنه أن يؤدي بأولئك الذين يتفانون بكل قلبهم إلى أن يصبحوا مسلمين كاملين؛ أناس يعرفون الإسلام في وسط تأملهم تشرق وحدة الله، الذي ليس منبعاً للقلق، لأن الله لا مثيل له. =

الدناءات المنتشرة في المجتمع العربي السائر على طريق التمدن، وليس ضد الدناءات فقط، بل ضد أسبابها العميقة أيضاً.

ضمن هذه الدناءات المشار إليها، يجب تصنيف إذلال الوضعية النسائية، ومن أسباب هذا الإذلال يبرز بكل تأكيد، منذ ذلك الزمان «انحطاط البنى العتيقة ورد الفعل الدفاعي الذي ولّده هذا الانحطاط» إنه طفح اجتماعي حقيقي، تحدثنا عنه في الفصل الأول من هذه الدراسة، يجب إرجاعه إلى الحفاظ المصطنع في المدن والضواحي، على المقتضيات الضرورية المبلورة داخل العشائر الرحّل لآسيا الغربية وإفريقيا الشمالية.

وهذا ما ينص عليه التشريع الإسلامي في باب الإرث: **﴿يُوصِيكُم اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُم للذّكرِ مِثْلُ حَظُّ الأُنْثَيَيْنِ فإنْ كُنّ نِسَاءً فَوْقَ اثنتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلثا مَا تَرَكَ وإنْ كانَتْ واحِدةً فَلها النِّصْفُ وَلأَبَوَيهِ لِكُل وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمّا تَرَكَ إنْ كَانَ له وَلَدٌ فإِن لم يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فلأمه الثُّلثُ فإنْ كَانَ لَهُ إخوةٌ فَلأُمِّهِ السُّدسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أو دَيْنٍ آبَاؤُكم وأَبْنَاؤُكم لاَ تَدْرُونَ أَيُّهم أقربُ لَكُم نَفْعاً فَرِيضَةً مِن اللَّهِ إن اللَّهَ كَانَ عَليماً حكيماً، وَلَكُم نِصفُ ما تَركَ أَزْوَاجُكم إن لم يَكُن لَهُنَّ وَلدٌ فإن كانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُم الرُّبُعُ مما تَركنَ من بَعْدِ وَصية يُوصينَ بِهَا أو دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُم إن لم يَكُن لَكُم وَلَدٌ فإن كانَ لَكُم وَلَدٌ فلَهُنَّ الثُّمن مما تَركتمُ مِن بَعْدِ وَصِيةٍ تُوصُونَ بِهَا أَو دَيْنٍ وإنْ كانَ رجلٌ يُورَثُ كَلالَةَ أو إمرأة وَلَهُ أَخٌ أو أُختٌ فَلِكُل واحِدٍ منهما السُّدْسُ فإن كانوا أكثر مِن ذلك فَهُم شُركاءُ في الثُّلْثُ مِنْ بَعْدِ وصيَّةٍ يُوصَى بها أَو دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍ وصيَّةً مِنَ اللَّهِ واللَّهُ عَليمٌ حَليم﴾**[1].

= على العكس من ذلك، فرسالة المسيح لا زمانية: بحسب ألفاظه الخاصة، ملكوته ينتمي إلى هذا العالم ـ إذن لا يهم كثيراً أن يكون هناك عبيد (كما اعتقد المسيحيون الأوائل) لأن المهم هو الخلاص. إن الرسالة المسيحية «عملية» قليلاً، لأنه لم توجد دولة، في أي زمان وأي مكان، لتطبق كلياً تعاليم الأناجيل.

علاوة على ذلك، فالمسيح بالنسبة إلى المسيحي الحقيقي نموذج واقعي، يمكن إدراكه، حاضر في القلب دوماً، لكن يتعذر بلوغه في الوقت نفسه لأنه يمثل شرط كمال لم يصل إليه أي إنسان والذي لا يمكن تجنبه مع ذلك. لهذا السبب يمكن أن يوجد مسيحيون جيدون ولكن لا وجود للمسيحيين الكاملين، باستثناء واحد: عيسى عليه السلام.

(١) سورة النساء: ١٠ ـ ١١، من القرآن الكريم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

ولقياس إلى أي حد كان هذا التوزيع معقولاً في الإطار الاجتماعي الذي صدر فيه، يجب أن نتذكر أن القرآن يفرض على الرجل مسؤولية صيانة زوجته وأولاده بالكامل، مهما كان فقره وثروة زوجته، علاوة على ذلك يعزو للمرأة المتزوجة التسيير المستقل لخيراتها الشخصية (الصداق، الحباء، الإرث)[1].

في هذا الأفق، على المشرع أن يتوقع بالتالي لكل ولد لا فقط صيانته، ولكن كذلك وفي اليوم المناسب، صيانة زوجته وأولاده، في حين أن كل فتاة لا يمكنها إلا أن تعتمد على النفقات التي يمنحها لها زوجها وفيما بعد ولدها بإلزام من القانون. إن الفتاة لا يمكنها في أية حال[2] أن تتكفل بتغطية حاجيات أُخرى إلا حاجياتها، أيضاً كان يجب لكي تتكفل بتلبية حاجياتها أن تلم بها سلسلة من المغبات، بعبارة أُخرى أن تجد نفسها في آن واحد، ولسوء حظها أرملة يتيمة ومن دون أولاد ولا أخ لاستقبالها، وإذا كانت تلك هي الحالة، فإنها ستحصل على نصف إرث أبيها، ربع إرث زوجها، بالإضافة إلى المهر الذي قدم لها إبان زواجها.

لقد مثلت هذه التعاليم في الوقت الذي نزل فيه القرآن التشريع الأكثر «تسوية» للعالم المتحضر، لكنه شكل (وما زال يشكل) قنبلة حقيقية متفجرة، في القبيلة المنسجمة.

ولا يعدو من المستحيل، لدى بورجوازيي المدن، عندما يتكون الميراث من قطع قماش أو من أكياس نقود، إعطاء كل ولد وكل بنت حصة الإرث

(١) لقد حاولت الكنيسة من جهتها حماية المرأة بالمنع الشكلي للطلاق وللزواج المتعدد، إنها تنكر طبعاً الزنى والقتل (لكن لا تحجم عن مسامحتها) ويحدث بالتالي ممارسة هذه الإجراءات غير الجديرة بالاحترام في البلدان المسيحية لأجل تلطيف «الزواج الأحادي».

إن القرآن يبغض الطلاق ويسمح بالزواج المتعدد لكن بشروط لم يتم قط تطبيقها (خاصة معاملة كل النساء بتساو مطلق)، ويدخر القرآن قساوته للزنى. في الواقع نجد في البلدان المغاربية التقليدية قلة الزواج المتعدد وقلة الزنى، وكثرة الطلاق ولا وجود لأولاد الزنى ويولد قلة منهم، والذين يولدون لا يعيشون: أي قتل الأطفال ـ نلاحظ أن كل بلد له جنحه وجرائمه، المعلقة على ظهر فضائله.

(٢) ذلك هو الوضع إلى حدود هذه الأعوام الأخيرة في كل البادية المغاربية، في المدن والضواحي، إن النساء المهجورات بأولادهن من طرف الزوج كثيرات العدد ويتكاثرن كل يوم.

الأبوي، البنيوية أو الزوجية التي يمنحها له الشرع صراحة، بيد أنه وبسبب هذا القانون الشرعي لا تحفظ الثروات الحضرية الإسلامية إلا نادراً، وبصعوبة أكبر مقارنة بالثروات المسيحية الشاسعة.

عند الرحّل، يمكننا أن نقسم كذلك، النوق والنعاج والماعز بحسب المقاييس نفسها، وليس من العبث في شيء إذا تصورنا المسألة عملياً ـ لنتخيل بدوياً مات قبل أمه، تاركاً لوالديه ولبناته الثلاث ولأرملته إرثاً يتكون من ثمانية وأربعين رأساً من الغنم، بحسب الشرع الديني، ستة تمنح للأرملة، ثمانية للأم، خمسة لكل واحدة من البنات الثلاث وعشرة للولدين. هذا يمثل ـ للذين يعرفون العد ـ تسعة وأربعين رأساً من الغنم، بالفعل كل فتاة من الثلاث لا حق لها إلا في أربعة رؤوس فاصلة خمسة وتسعين، وكل واحد من الوالدين له الحق في تسعة رؤوس فاصلة تسعين ـ عملياً يتم التراضي فيما بينهم بإعطاء سمين أو نعجة عوراء بدل التقسيم الكسري الذي يرجع إلى هذا أو ذاك، والواقع أن الجميع يتراضى وبسهولة أكبر، لا سيما أن النقاش في مثل هذه الأمور يعد عيباً. إلا أنه إذا حصل احتجاج لا قدَّر الله، يجسد القانون قاض أو جماعة[١] (مجلس قديم للشيوخ) تتكون من رؤساء العائلة الذين يسيرون القبيلة أو القرية، وعلى هذه الطريقة في أغلب الظن، يعالج مشكل الخلافة أيضاً.

عملياً لا تُقسم الماشية إلا في حالة نزاع (وهي حالة نادرة جداً)، فالجدة ستعيش معذبة بمفردها مع ثمانية رؤوس، والأرملة (في الغالب أم الأطفال أو جزء منهم) ستكون مشتتة بين الستة رؤوس كذلك، علاوة على أن الأمر والجدة والأخوات يتخوفن من العيش وحيدات ويشعرن بالحاجة إلى حماية: والحال أن لهن الحق في حماية رجل يكون أخوهن، ولدهن أو حفيدهن. وإذا لم يكن هناك إرث ينتظرن من «الرجل» بكل ثقة أن يقسم معهن أجرته الضعيفة وسابقاً لم يكن يجرؤ أبداً على تجنب انتظارهن. نرى إذن الولد البكر[٢] وهو يعالج كل شيء، بالضبط مثلما فعل أبوه، بدون أن يطرأ أي تغيير ظاهري على

(١) لقد رأيت الجماعة تمارس مهماتها في الباكستان، بشكل مماثل لما رأيته في الأوراس، القبايل، الأورشانيس وفي الأطلس المغربي.

(٢) انظر بهذا الصدد الفصل الخامس، «سيدي أخي»، ص ١١٢.

توزيع الخيرات. إلا أن كل واحد يعرف حصة هذا أو ذاك.

كل شيء يتغير عند المزارعين المستقرين، لأنهم لا يتقاسمون الحيوانات ولا القطع النقدية ولا أذرع الثوب وإنما الحقول... إن الفلاح الذي يترك وراءه عندما يموت حقلاً من ثمانية وأربعين هكتاراً للتوزيع بين الوارثين السبعة الذين عددتهم سابقاً، عليه أن يحذف من أرضه جيباً يتكون من عشرين هكتاراً يرجع إلى بناته أو زوجته. لأن بناته يمكنهن الزواج برجال من نسب آخر، أو من فرقة أخرى، من قرية أخرى، أبناؤهم سيكونون غرباء إذن، وهؤلاء الغرباء سيملكون يوماً ما هكتارات جدهم من أمهم، وستكف هذه الهكتارات عن الانتماء إلى أناس من النسب نفسه.

بالنسبة إلى الفلاح المغاربي، تقوم الممارسة الدينية بقلب مجتمع مبني كلياً على تجانس التراب وعلى استحالة أن يستقر رجل لا يحمل الاسم نفسه الذي تحمله الزمرة، بين ظهرانيها من دون أن يتم تبنيه مسبقاً «كأخ»[1]. إن قبر الجد الرمز (الذي تنسب إليه القبيلة) يوجد دائماً في مكان عال أو في الوسط ليرمز إلى تملّك الأرض من طرف نسبه.

«يدخله ناراً خالداً فيها» (الآية)

إن القسمة التي فرضها القرآن تطرح إذن مشكلات تتجاوز الكشف البسيط للممتلكات: بالمعنى الحرفي، إن الأمر لم يعد يتعلق بالامتلاك وإنما بالوجود.

والحال أن الكتاب المقدس الذي يرجع في الغالب إلى الرحمة الإلهية، لا يلطف في شيء هذه المرة ـ فهناك صرامة قاسية بالنسبة إلى الذي ينتهك التشريع في باب الإرث: لا وجود لأي فجوة تسمح بالتأويل، ولا لأي مخرج أو التباس ممكنين...

لنفتح القرآن (سورة النساء، الآية ١٣) ونقرأ هذه الآية حرفياً، بعد الإعلان عن التعاليم: **﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيَتَعدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ ناراً**

---

(١) انظر الفصل السادس، «شرف مشترك»، ص ١٤١، وما يقوله هيرودوت بصدد معاهدات الإخوة.

خالداً فِيهَا وَلَهُ عَذابٌ مُهِين﴾. لا ننسى أننا في هذه القرى المغاربية القديمة نوجد داخل قلعة للإسلام، وسط سكان قلوبهم مترعة بالإيمان والذين لا يعتبرون الحقائق التي جاء بها النبي رموزاً، إنما الأمر يتعلق فعلاً بالنار وبالخلود في النار . . .

لنتأمل وضعية السجل العقاري[1] في المغرب العربي، نلاحظ إذاً أن الفلاحين المغاربيين منذ ثلاثة عشر قرناً، بمعدل ثلاثة أجيال في القرن ـ كلهم مسلمون أتقياء بلا شك ـ اختاروا اللهيب الكبير لجهنم على التضحية بتملك الأرض من طرف ذويهم. أما بالنسبة إلى القبائل التي تفضل خلال العصور إنقاذ حياتها الأبدية، فقد ضحت بما هو عزيز عليها: استمرار بقائها في هذا العالم.

ليس من العبث في شيء، على سبيل المقارنة، الإشارة هنا إلى العقوبات الرؤوفة جداً والتي توقعها الكتاب المقدس لأولئك الذين ينتهكون صوم رمضان. سورة البقرة: ١٨٢ ـ ١٨٣: **﴿يَا أيُّها الذينَ آمنوا كُتبَ عَليكُم الصِّيامَ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُم لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ. أياماً مَعْدُوداتٍ فَمَنْ كَان مِنْكُم مَرِيضَاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ من أَيَّام أُخَر وَعَلى الذينَ يُطِيقُونَهُ فِديةٌ طعامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خيرٌ لَهُ وأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُم إنْ كُنْتُم تَعْلَمُونَ﴾**.

مؤخراً، روى لي طبيب مسلم أنه عثر على رجل جريح بشكل خطير على جانب الطريق ـ وبعد علاجه، علم بسخط أن مريضه ارتكب جريمة إفطار رمضان وأنه أُشبع ضرباً، وتُرك من طرف قريته بدون مساعدة، إن الأمر يتعلق بقرية من قسطنطينة حيث، ومنذ ألف سنة تقريباً، واجه الناس أباً عن ابن وبدون اكتراث، التهديد «بالخلود في النار» الذي توعد الله بها أولئك الذين سيحرمون نساءهم من الإرث.

النسب الأميسي والأرثوذكسية

ما زال في المغرب العربي، في أقصى جنوب الصحراء، عرش بربري ـ الأكثر قِدماً إلى الآن ـ حيث استمرت القرابة من جهة الأم في البقاء ـ لم يكن

(١) قمت بذلك في الأوراس، في القبايل الكبرى والصغرى وفي المغرب الجبلي.

الأمر كذلك في جميع الجهات، فخلافة الرؤساء إلى الآن، عند الطوارق الجنوب ـ الشرقي (العاير) خاصة تنتقل من الأب إلى الابن ـ لكن حتى في هذه المنطقة كما يوضح تحقيق دقيق[1]، فإن توسع القرابة الأميسية كان إلى فترة قريبة نسبياً، أكثر في الآن ـ لقد سمحت لي ثلاثة تحقيقات سريعة[2] متباعدة فيما بينها بتسع سنوات، كنت قد قمت بها، بأن أسجل تراجعاً فعلياً لهذا النظام في النسب في منطقة الهجار، وخصوصاً في دجانيت.

إن النسب الأميسي لم يكن مقصوراً على البرابرة الطوارق، بل لوحظ كذلك[3] في عرش بربري آخر، عرش غوانش الذي اندثر في المرحلة التاريخية.

والآن الامتيازات بمفردها هي التي ما زالت تواكب النسب الأنثوي حيثما وجِد واستمر ـ ومن ضمن هذه الامتيازات نحصي طبعاً، السلطة الملكية، ولكن كذلك اسم العشيرة والوضعية الاجتماعية، وحقوق القنص. تؤثر حالياً، وضعية الأب أكثر فأكثر في وضعية الطفل، لكن يبدو أن هذه الواقعة حديثة العهد ـ على العكس من ذلك ومنذ زمن طويل ـ يعادل في امتداده زمن التقليد الشفاهي ـ يحمل الطفل اسم أبيه كاسم ثان، وتأتي المرأة للعيش عند زوجها.

إلا أنه حالياً، وفي جميع مناطق الطوارق، تقسم المنقولات والعقارات التي تكون جزءاً من تركة بحسب الشريعة الإسلامية الأكثر أرثوذكسية: حصتان للولد وحصة للفتاة، وما يشكل شذوذاً هنا، بالمقارنة مع الديانات البربرية الأُخرى هو بالتدقيق عدم الغش في الشريعة الدينية.

إن جميع الباحثين الذين درسوا الطوارق، قد أعجبهم دائماً، إثارة ما هو غير إسلامي ضمن معتقدات هؤلاء: «إن لديهم معتقدات خرافية لا تحصى»،

---

(١) تحقيقات قام بها الدانماركي Johannes Nicolaisen فيما بين سنتي ١٩٥١ و١٩٥٩.

(٢) ثلاث إقامات قصيرة في ١٩٥٦ ـ ١٩٦١ ـ ١٩٦٥.

(٣) جورج مارسي، «بقايا القرابة الأميسية في العرف البربري ونظام التوارث عند الطوارق»، **المجلة الإفريقية**، العدد LXXXV (الفصلان ٣ و٤/ ١٩٤١)، ص ١٨٦ ـ ٢١١.

«إنهم لا يؤدون الصلاة»، «لا يصومون»، إلخ... هذه الأوصاف كلها صحيحة، لكنها أقل صحة منذ الأعوام الخمسة الأخيرة، وتتناقص صحتها يوماً بعد يوم.

لنقبل إذن وجهة النظر هذه، وجهة نظر كل الملاحظين الذين درسوا الطوارق من دون استثناء. فها هي إذن نقطة (مسألة الإرث، التي يعيرها القرآن أهمية كبرى) احترم فيها الطوارق الوثنيون الشريعة بدقة، بالإجماع ومن دون تردد، في حين يعمل باقي أتقياء المغرب العربي جاهدين على انتهاكها منذ آلاف السنين.

لفهم هذه الأرثوذكسية المفاجئة، يجب الرجوع إلى الفصل المتعلق بالشرف والنبل[1].

فعلاً، إن من الأهمية بمكان، في البلدان ذات النسب الأميسي وذات النسب الأبيسي، عدم تشتيت المجتمع بكسر العشيرة، والحال أن العشيرة تنكسر عندما تترك الأراضي للغرباء يعني لأولاد الابن، عندما ينتقل الاسم والعرق من خلال النساء أو إلى أولاد البنت عندما يتم النقل من الأب إلى الابن.

في بلاد الطوارق، لا تُطرح المشكلة مثلما هو عليه الأمر في شمال المغرب العربي، لأن الأرض عند هؤلاء ليست ملكية خاصة: وإنما تنتمي إلى الحاكم (في منطقة الهوجار) أو إلى الطاوسيت (يعني القبيلة) في بعض المراكز الفلاحية مثل مركز دجانيت ـ لهذا السبب فالإرث في النسبين لا «يكسر» الوحدة القبلية ـ علاوة على ذلك، فالشريعة الإسلامية تستجيب هنا لرغبة عميقة، لأن المشاعر الطبيعية تتضارب بقوة أشد من طرف النسب الأنثوي أكثر منه من طرف النسب الذكوري.

هذا لا يعني أن قبايلياً ما، والذي لم يرزق لسوء حظه إلا بنات، سيقبل عن طيب خاطر أن ينتقل كل خيره إلى ابن أخيه، في حين أن بناته لا يرثن شيئاً، إلا إن ابن الأخ الوارث غالباً ما يكون صهره، وهذا يسهل الأمور، بالإضافة إلى كونه تربى دائماً بجانب عمِّه الأخير ـ اعتاد على اعتباره ابناً له، في كل الأحوال، لا يحرم الولد من الإرث أبداً لأنه إذا وجد سيكون دائماً هو الخليفة.

---

(١) انظر الفصل السادس، «النبل الرشدي والنبل الخلدوني»، ص ١٢٧.

في نظام تكون فيه العشيرة أبيسية المكان، مثلما هو الأمر حالياً عند الطوارق، لكن حيث ينتقل الإرث إلى النسب من جهة الأم أي من الخال إلى ابن الأخت (كما كان الأمر عندهم سابقاً)[١]، تسير الأشياء بشكل مغاير تماماً: يربي الأب أبناءه ويرعاهم بجانبه، مع علمه أنهم بعد موته سيضطرون إلى ترك مقر سكناه وسيرحلون للعيش مع عائلة أمهم. في هذه الأثناء، يتربى أقرباؤه الحقيقيون، أي أبناء أخواته، عند الأصهار، الذين بإمكانهم طبعاً أن يكونوا أبناء عمه، من دون أن تكون هذه الحالة ضرورية. عملياً، قد يكون وارث هذا الرجل من غير أبنائه وتربى بعيداً عنه، فوق ذلك.

هناك مثل طوارقي قديم عثرت عليه في منطقة الهوجار سنة ١٩٦٥[٢] يقول تقريباً عن ابن الأخت أنه «يأكل» ملك خاله لكنه يدافع عن شرفه، فعلاً إن ما يجمع بين الرجلين هو هذا: الشرف والاسم...

إرجاع إلى الله، بعقد موثق

في دجانيت (حيث الأرض تنتمي إلى القرية) يمكن لعربي متزوج من امرأة طوارقية أن يغرس النخيل، نصف هذا الغرس يرجع إليه، ويمكنه أن يختار وارثي حصته بحسب ما ينص عليه القرآن ـ إذا بيعت الأشجار سيأخذون نصف الثمن، وعند قطعها يأخذون نصف الخشب، ـ لكن الأرض سترجع في جميع الأحوال، سواء في هذا اليوم أو في يوم آخر، إلى صاحبها، وهو في هذه الحالة، القرية، إذا كان غارس الأشجار رجلاً من البلد، فإنه سيعطي غرسه لامرأته[٣] فوراً، وهذه الأخيرة، وفي العشر سنوات الماضية، كانت تحبس[٤] ذلك مباشرة، قصد حرمان أولادها من الإرث. مثلها في ذلك مثل

---

(١) J. Nicolaisen، **البنى السياسية والاجتماعية....**، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٤.

(٢) Ag-alet - mak netta ainagan ihendja - en nak imakeni naha gh - ennak يعني: «ابن اختك يقتل عدوك ويأكل خيرك».

(٣) إن رجلاً من دجانيت لا يغرس النخيل إلا لكي يؤدي حباء زوجته.

(٤) إن الحبوس هو ذلك العطاء إلى الله. توجد في المغرب العربي عدة مؤسسات خيرية لم يتم تغير أهدافها الخيرية ـ ويطلق اسم «الحبوس الخاص» على ذلك العطاء لله الذي لا يعين فيه الله إلا «كوارث أخير». قبله يجب أن يستفيد من الإرث جميع الوارثين الذين أشار إليهم الوصي.

بربري من الشمال يتشبث بحرمان بناته. ومهما يكن الجنس المحروم من الإرث، يبقى الهدف مع ذلك واحداً: الحفاظ على وحدة التراب.

إن رب عائلة من القبايل الصغرى أو الأوراس، وحتى يتسنى له «خرق القانون شرعياً» يسرع في الوقت الذي يشتري فيه قطعة أرضية إلى كتابة عقد عند القاضي، يشترط فيه أنه اختار الله كوارث أخير، إلا إنه، وفي انتظار أن يستولي «الوارث الكبير» على ملكه، يجب أن تعود الاستفادة خصيصاً لذرية الموصي من الذكور.

وللدقة نقول، لا نستطيع العثور على أرض واحدة، باستثناء حقل اشتراه في أيامنا هذه رجل لا يملك إلا البنات، وذلك في منطقة الأوراس حيث كنت أحقق فيما بين ١٩٣٤ و١٩٤٠. ليست موقوفة على الأحباس بالشكل المشار إليه أعلاه.

نستطيع عملياً أن نميز في المغرب العربي الكبير بين ثلاثة أنواع من التطور في باب الإرث النسائي.

الدرجة الأُولى يتم فيها تطبيق تعاليم القرآن. نجد هذا عند أناس ورعين أتقياء، عند الرحّل أو عند مجموعة ذات نسب أمومي (الهجار).

الدرجة الثانية: يتم فيها خرق تعاليم القرآن. لكن مع عناء البحث عن التحايل على الله وذلك بتعيينه وارثاً ـ نتعرف على هذه الممارسة لدى الأوراس والقبايل الصغرى.

الدرجة الثالثة: لا حبوس ولا قرآن، ولا شيء للفتيات ولا شيء لله: نجد هذا عند رجال القبايل الكبرى.

لقد كانت حقوق المرأة المتوسطية مغتصبة وبشكل مطرد، سواء في الإسلام أو في المسيحية. هنا رغم الثورة الفرنسية، وهناك رغم تعاليم القرآن... إن هذا الاغتصاب لا يزال مستمراً في فرنسا إلى الآن، لكن فقط في الجيوب المتأخرة، إلا إنه يجب البحث عن سبب هذا التطور في تقدم اقتصادي عام يجر معه كل شيء (مدمراً على الخصوص، وأكثر فأكثر «ثروة العائلة» ودافعاً بعدد من النساء ينمو باستمرار نحو امتهان مهنة ما). إن الدين والأخلاق لم يلعبا في هذا كله أي دور.

أما الإسلام، عكس المسيحية، فقد واجه المشكلة، وبطريقة غير ناجعة جديرة بأن نسجلها هنا: فالمسلمون، أو على الأقل عدد كبير منهم، يخرقون الأوامر الإلهية صراحة، البعض حاول وبحيلة قروية محض إشراك الله بذاته في عدم طاعتهم له «بإرجاع» إرثهم له عن طريق عقد موثق. لكن لا يمكن الاستفادة منه إلا عند نهاية العالم فقط.

التوزيع الجغرافي للحجاب يطابق الإرث النسائي

أمام حضور الخسارات التي تسبب فيها التفكك القبلي، أو بشكل أدق تسببت فيها ردود الأفعال التي أثارها هذا التفكك، كان هناك موقفان ممكنان، الموقف التقليدي الذي كان يقضي بمحاربة هذا التفكك، والموقف الثوري الذي كان يحاول أن يصل به وبسرعة إلى نهايته. وبإرجاع إرث النساء واجباً، يكون الكتاب المقدس قد تبنى وبصرامة قضية الحل الثاني. هكذا يكون قد وجّه ضربة قاسية للقبيلة - ضربة عملت المجتمعات القبلية منذئذٍ، ورغم دخولها الإسلام بهذا القدر أو ذاك من الرضى وطيب الخاطر، على تجنبها - ولم يكن ذلك عبثاً - لقد رأينا ذلك - ما دامت تلك المجتمعات القبلية قد استمرت في البقاء.

نستطيع أن نلاحظ الآن أن التوزيع الجغرافي للحجاب وحجب النساء يتناسب تقريباً وتطبيق تعاليم القرآن في باب الإرث النسائي. فتحت مظاهر الخضوع الورع، يشكل ذلك التوزيع على ما يبدو وقاية، سداً نهائياً موجهاً ضد الخسارات التي تم إجراؤها داخل ميراث العائلات الأندوغامية بواسطة الطاعة الدينية، إلا أنه لا يناسب الحد الأقصى من الاغتراب.

إن الحد الأقصى من الاغتراب بالنسبة إلى النساء نعثر عليه عند الشعوب المتحولة، أي الشعوب التي تفككت أسسها القبلية إما بعملية التحضر وإما بعملية التمدن الحديثين.

الفصل الثامن

السنوبيزم البورجوازي[1]

إن المجتمع الذي يمكن دراسته في المغرب العربي ما زال موسوماً بثلاث ضرورات: ترجع الضرورة الأكثر قِدماً، والتي تحدثنا عنها في الفصل السادس، «النبل الرشدي والنبل الخلدوني»، إلى ما قبل التاريخ، وترمي إلى تجنب كل اختلاط دموي لنسب ما، أو عِرق ما ـ لنسمها إذن ضرورة النبل أو الضرورة البدوية ـ في عزلتها المتكبرة، تنتشر تلك الضرورة ومع ذلك فهي محكوم عليها من طرف التطور العام للعالم.

بعد ذلك تأتي الضرورة القروية ـ الأكثر شراسة ـ والتي تريد المحافظة على عدد معين من الحقول وزمر معينة من الأقارب. إن هذه الضرورة الأخيرة، ومن صميم قلب الملاكين العقاريين، لا تخشى أن تتعارض مع الله نفسه. لقد تتبعنا وروينا، في الفصل السابق، تفصيلات هذا الصراع ومخرجه.

---

(١) إن كلمة Snob، المشهورة عالمياً الآن، هي في الأصل لفظة من اللهجة العامية الإنكليزية. ومن المحتمل أن تكون مركبة انطلاقاً من جناس ما: بالفعل إن (S. Nob), sine nobilitaté كانت تعارض Fitius nobilisnob أبناء اللوردات، وذلك في الإعداديات الإنكليزية الكبرى للقرن التاسع عشر، كما كانت كلمة Snob تدل في الوقت نفسه على الخصاف (Savetier). استعملت من جديد وأضحت مشهورة سنة ١٨٤٨ من طرف تاكراي (كتاب السنوب) وأصبحت كلمة غنية بالدلالات. أما فيما يخص الوضعية التي تعبر عنها، فإنها وضعية جميع الأزمنة والبلدان لأنه كان هناك دائماً عناصر من المجتمع الخاضعة للتحول/ في زمننا وإلى جانب العامل الكبير للسنوبيزم الذي هو عدم الاستقرار الاجتماعي تنضاف التحريضات الداعية إلى «التمييز» والتي ترد من الإشهار والصحافة والتلفزة. انظر ص ١٨٤ من الكتاب والتي تتعلق بـ «شاة الضحية»، «الوجيه الصغير»، وكذلك بيير دانينو، **Snobissimo** ,Hachette، ١٩٦٤.

وتأتي أخيراً الضرورة البورجوازية. . لكن في المدن الإسلامية، الله هو الذي يفوز، ورغم ذلك، فالمُثُل القديمة للمجتمع الأندوغامي تحافظ على ذاتها هنا أيضاً. لا ننسى أن التطور الحضري أكثر قِدماً في شرق المتوسط منه في جميع الجهات الأُخرى، ورغم ذلك، فإن كل شيء يسير وكأن التطور الحضري محجوز باستمرار في منتصف الطريق بضرب من مثبت الحرارة. إن هذا الأخير، وبحسب فرضيتنا، سيعمل من دون أن يتعطل منذ العصر الحجري الجديد.

سبعة آلاف سنة من هدم البنى القديمة

إن نواة المنطقة التي تهمنا تتناسب بدقة كافية مع المنطقة التي تشابكت فيها، منذ فجر التاريخ، اللغات السامية[١]، واللغات الحامية، واللغات الهند ـ أوروبية (وطبعاً لغات أخرى لم يتأت تصنيفها بسبب عدم استمرارها في البقاء)، وتتناسب أيضاً مع المنطقة التي ظهرت فيها المدن الأُولى، والتي لأول مرة حصد فيها الرجال الزرع[٢] ورعوا قطيعاً وصنعوا طبقاً من الطين، وحاكوا لباساً وصقلوا فأساً من حجر. . .

أن تكون المدينة الأُولى في البداية «قبيلة محصنة»، فهذا أمر ليس من الممنوع تصوره، لكن سيأتي يوم وبشكل سريع تكف فيه المدينة وبكل تأكيد عن أن تكون قبيلة لكي تصبح حاضرة، أي تلك البوتقة التي ستتحطم فيها بلا هوادة، ولمدة تزيد عن سبعة آلاف سنة، «البنى القديمة» ويتجابه فيها مجتمعان: «مجتمع المواطنين» و«مجتمع أبناء العم».

إن هذا الهدم المستمر، هذه المعركة بين خصوم لا يبيد بعضهم البعض أبداً، نستطيع إعادة بنائها، لأن الظاهرة ما زالت تجري أمام أعيننا، إنها ظاهرة معاصرة لنا.

---

(١) كان الآشوريون يتكلمون لغة سامية، وكانت لغة مصر القديمة قريبة من اللغة الحامية، وتحتوي اللغة الحثية على مفردات هند ـ أوروبية مهمة. وقد كانت الحضارة الفارسية القديمة هند ـ أوروبية.

(٢) انظر بصدد هذا الموضوع الفصلين الثاني والرابع.

إذا كنا نحب البناءات الخطاطية (لكن لا يجب أن تُحَب كثيراً) فسنكون ميالين إلى اعتبار التطابق مع مزدرع ما كمرحلة أُولى للتطور القبلي، وهي خاصية مميزة لأكثر المناطق القروية قِدماً بجنوب المتوسط. بالفعل من يقل «قروي» يفكر في «الحرث»، والحال أن لا حرث بدون تملك الأرض، ولا زرع دائماً بدون قرية، ولا قرية بدون جيران ولا جيران بدون زواج مع الأجانب.

في المرحلة اللاحقة لهذه الخطاطة سنرى الآبدي(*)، وقد أصبح قروياً ثم حضرياً، وهي مراحل من المستوى نفسه لأن الانتقال من حياة الترحال إلى الحياة الآبدة قد مثل مسبقاً وبطريقة غير عنيفة سلاسل من الهدم وإعادة التكيف، شبيهة بتلك التي تميز الانتقال من القرية إلى المدينة.

اليوم، وهي المرحلة الأخيرة، تشير موجزات كتب الجغرافيا جميعها إلى الانزلاق المتسارع للسكان القرويين نحو الضواحي والمدن. وأشاعت هذه الكتب كلمة «تحضير» وسط العموم قصد وسم هذه الظاهرة - أما علماء الاجتماع والاثنولوجيون فيحبون من جهتهم، بصدد الموضوع نفسه، الحديث عن «هدم البنى القديمة». إن حديثهم حول هذه التيمة لا ينضب له معين.

بالفعل، ما زالت «البنى القديمة» في انهيار مستمر، وهذا على الحدود كلها، أعني: هناك حيثما هي في اتصال بشيء آخر غير ذاتها. لكنها تنهار بهذه الشاكلة منذ أن كانت لها حدود، أي منذ الوقت الذي لم تعد فيه بمفردها المؤطرة للرجال.

إن التعارض بين «البنى القديمة» و«البنى الأقل قِدماً» والتي «ليست فتية بهذا القدر» يطابق في الغالب عملياً تعارضاً بين المدينة والقرية. يجب إذن الصعود إلى المرحلة التي ولدت فيها الحياة الحضرية للعثور على جذر الطلاق والتجابه بين النظامين - لقد رأينا أنها بدأت بزمن طويل قبل التاريخ، وبفضل تنقيبات حديثة، وعمليات التأريخ التي يقدمها الكاربون ١٤ على الخصوص، يمكننا من الآن ذكر المكان والمرحلة التي ولدت فيها الحياة الحضرية: يبدو أن قيدوم المدن بالنسبة إلينا الآن، هو ذلك الذي رأى النور في موقع أريحا القديمة، قرب البحر الميت - أكيد أن تنقيبات جديدة ستكشف عن أنقاض

(*) الأوابد: ج. آبدة. الآبدي: صفة الحيوان الذي يقيم في منطقة لا يفارقها. أبد وتأبيد (Sedentarisation). آبد (Sedentariser) (المترجم).

أُخرى، لكن تعدد وانسجام الاكتشافات التي تمت سابقاً، تسمح مع ذلك، ومنذ الآن، بتحديد تقريبي على مستوى المكان وعلى مستوى الزمان لإحدى أكبر التحولات الإنسانية. في الزمان سبعة إلى تسعة آلاف ألف سنة قبل العصر الذري، في المكان، منطقة شاسعة محددة بثلاثة أبحر: الضفة الأكثر شرقية للمتوسط، بحر قزوين، البحر الأحمر...

إن «البنى القديمة» لم تتحطم كلها بعد، وذلك لأنها مازالت مستمرة في الانهيار أمام أعيننا، لكن انحطاطها بدأ في فترة تفوق سبعة آلاف سنة ـ على الأقل في ذلك الجزء من العالم الذي استمرت فيه في البقاء.

اختلافات بين التاريخ والإثنوغرافيا

في هذا الجزء من العالم، وفي ما بين مرحلة الفؤوس المصنوعة من الحجر المصقول والمرحلة الراهنة، تعاقبت عدة حضارات: وهي أطول سلسلة في التاريخ ـ حضارات استبدادية وغازية، من كبريات مبدعات الأعمال الفنية، وكبريات الآلات الساحقة للشعوب ـ متميزة، يقول لنا المؤرخ، بتقدير مفرط لبعض العائلات وخضوع جميع العائلات الأُخرى.

في حين أن الإثنوغرافي الذي يطوف هذه المناطق نفسها يجد فيها مجتمعات لا يبدو عليها أنها قد خضعت لهزات ولتشتت ولخشونة آلاف السنين من الاستبداد الفعلي ـ والتي تصرح لنا الوثائق الأكيدة مع ذلك عن واقعيتها ـ إن العائلات الأكثر تواضعاً هي بالطبع عائلات فخورة، حساسة عدوانية، متشبثة بقوة ببنى مستقلة، تلك البنى التي يبدو أنها استمرت سليمة منذ أقدم العصور التي تختلف قليلاً وبما فيه الكفاءة عن البنى «النبيلة».

هل يجب أن نعير الاهتمام لما نعرف، أي للتاريخ، أكثر مما نعيره لما نرى، أي للإثنوغرافيا؟ في رأيي إنه من المرغوب فيه استعمال جميع المعطيات وبشكل تام، وبالتالي إن ما تقوله لنا الديموغرافيا المتوسطية يسمح بهذا الاستعمال.

من المنطق طبعاً، الاعتقاد أن «الاستبدادات الشرقية» قد حطت بكل ثقلها على القطاعات المتحضرة أساساً ـ أي القطاعات الكثيفة، المسقية، الحضرية، إذن المعمقة وبكل تأكيد بعدد وفيات الأطفال المتساوي تقريباً لنسبة المواليد المتلفة فوق كل ذلك بالأوبئة التي لم يتصد لها التعقيم ولا المضادات الحيوية بعد.

وليس أقل منطقاً أن نتصور أن شعوباً أُخرى، جاءت من السهل المتوحش أو من الجبال غير الخاضعة للسلطة، كانت إذن تعيد تجديد دم الحضريين، وفي المناسبة نفسها، كانت تعيد للمُثُل القديمة شبابها والتي ربما كان قد بدأ في التخلي عنها.

المدينة التي تأكل الأطفال

إن هذه الأوالية تسمح لنا بفهم الظاهرة التي توجد في أساس الأصالات المتوسطية، أي الحفاظ العبثي على المُثُل القروية داخل الأسوار الحضرية.

ويكفي انطلاقاً من التجربة الخاصة لسكان باريس القرن العشرين، فحص جينيالوجيا مواطني هؤلاء السكان أو فحص ذكريات الأكبر سناً من بينهم، لكي نلاحظ، وإلى حدود نهاية الإمبراطورية الثانية، أن جميع المدنيين ذوي الأصل القديم كان لهم على الأكثر، وضمن أجدادهم الثمانية، واحد أو اثنان من أسلافهم الذين ولدوا في العاصمة. إن هذه الواقعة تفسر بكل سهولة، كلما رأينا ذلك، بمعدل الوفيات الأكثر عدداً في المدن منه في القرى، معدل وفيات الأطفال على الخصوص، والذي كان سيفرغ كل الحواضر لولا الهجرة الدائمة.

بالفعل، وإلى حدود القرن العشرين، استفاد أولاد الفلاح والرحال، وهذا في كل أنحاء العالم، من «حظ في الحياة» يتجاوز حظ الطفل الحضري، لكن إبادة الأطفال كانت أكثر جذرية من أي جهة أُخرى في كبريات حواضر إفريقيا وآسيا، حيث المناخ والاختلاط يحتضنان باستمرار الأمراض الأكثر فتكاً.

إن هذا المعدل الضخم للوفيات في المدن القديمة.. قد أجبر هذه الأخيرة منذ تأسيسها، لكي لا تحمي بسبب افتقادها للسكان، ولكي تستمر آهلة، إذن قوية، ومزدهرة، على جلب عدد كبير من البالغين إلى أسوارها بشكل مستمر. إن مسقط رأس هؤلاء البالغين الموجودين في البلدان القديمة لأوروبا وإفريقيا وآسيا، يكون بالضرورة من القبائل القروية المجاورة[1]. فإعادة

(١) في البلدان الجديدة (أمريكا، أستراليا) الحضريون أو القريون الذين مروا بالمدن غالبيتهم هم الذين يسطون على الحقول ويخترعون الفلاحة، إلا أن كندا الفرنسية تشكل استثناء لأنها حصلت على نواة تعميرها الحالي في القرن السابع عشر، ويتكون من فلاحين حقيقيين.

التجديد الضرورية هذه استمرت بلا تغيير إلى حدود الاكتشافات الكبيرة للطب الحديث، والتي جاءت منذ باستور لتعيد النظر في عناصر التوازن الذي دام آلاف السنين.

لنتفاهم جيداً حول هذا التوازن: لقد كان يتكئ أساساً على أكثر القوانين الطبيعية قساوة، وليس هناك مجال للتأسف عليه. أما فيما يخص اختلال التوازن البيولوجي الذي استقر في جميع أنحاء العالم، فإنه يمثل بالنسبة إلى الإنسانية أحد أسباب القلق الأكثر تبريراً، كما يمثل في الوقت نفسه إحدى الضرورات الأكثر إلحاحاً للتقدم.

علاوة على دورها الشرس لضبط الولادات، فإن إبادة الأطفال هذه والهجرة التي عوضتها، كان من نتائجها المحافظة، وإلى حدود القرن التاسع عشر، على علاقات عائلية بين سكان القرى وسكان المدن الكبرى، وبالتالي المحافظة على جميع أنواع الذهاب والإياب بين الأزقة والحقول، ولا سيما الزيجات. عن هذا الذهاب والإياب، يحدثنا جميع مؤرخي العصر الوسيط، سواء كان هذا العصر غربياً أو عربياً.

وصول البالغين المثقلين بالقناعات

إن الدور الحضاري للمدينة يعتبر فكرة مبتذلة في السوسيولوجيا إلى درجة أن الكلمات المعارضة لـ «متوحش» لها جميعها معنى ايتيمولوجي هو «قاطن الحاضرة»[١]. وقبالة هذا الدور المعروف جيداً، هناك وظيفة أخرى من وظائف المدينة، الوظيفة المدمرة والمخربة للحياة الإنسانية والتي تستحق أن تفحص، لأنها وإلى حدود القرن التاسع عشر، حافظت على ما يمكن تسميته «لوناً قروياً محلياً»، وذلك في جميع تجمعات العالم الكيرة.

إجمالاً، يمكننا أن نتمثل العلاقات مدينة ـ قرية وإلى حدود عصر باستور

(١) كلمة «حضارة» (Civilisation) حديثة العهد (في القرن الثامن عشر): وتُشتق من فعل «حضر»، الذي يشتق بدوره من كلمة حضري (Civil)، والتي تنحدر من «المواطن» (Citoyen)، وهذه الأخيرة تنحدر من Civitas، أي حاضرة (Cité).

تحت شكل تيار مزدوج: التيار الأهم عدداً ينساب بغزارة لكن بخرير خفيف من القرية إلى المدينة. فلا تصل إلى المدينة حشود إنسانية منظمة ومستبصرة، أو على الأقل نادراً ما يكون الأمر كذلك ـ إنما يصل إليها وبدون انقطاع أفراد منعزلون؛ أفراد بالغون، أي مثقلون بالقناعات التي تتجدد بالطريقة نفسها عند كل جيل بإسهامات جديدة بفضل المهاجرين.

التيار الآخر ينساب في الاتجاه المعاكس، يعني من المدينة إلى الحقول والأدغال. إنه يحمل الأشياء المثيرة للانتباه، الكتب، الأزياء، الأفكار ـ ويسجل في الحوليات وفي القوائم ـ ويترك بالنتيجة آثاراً تاريخية، يحتفي بها المصنفون أيما احتفال ـ لكنه بلا قوة، بلا عمق، لأن القليل من الناس هم الذين يصاحبونه ـ علاوة على ذلك فهم أناس يمضون: موظفون، تجار، مسافرون، جنود ـ وحدهم حاملو الإيمان الديني يشكلون الاستثناء[1] ويستقرون.

لمدة آلاف السنين، حافظ توازن تقريبي على بقاء التيارين معاً: فالحاضرة، وبفضل جموع الناس التي تتخلص منها السهوب والضيعات بطرق خفية، تحصل على ازدهارها. ومن حين إلى آخر، كانت الموجة أكبر وكانت تفيض على مستوى الأرض، إذن على مستوى التاريخ، وتخرب المدينة ـ تسمى هذا الموجة: نهاية الحضارة.

إن هذا المظهر الجانبي للنمو، للامتلاء، ثم للانحطاط والموت يتطابق بشكل جيد مع المنظومة الأساسية للأقيسة والمقارنات التي نملكها كلنا في أذهاننا: ألا وهي الحياة الإنسانية من المهد إلى اللحد ـ فحَول تيمة ملائمة جيداً

---

(١) نستطيع التعرف بواسطة المنهاج الجينيالوجي خاصة على الآثار التي تركتها حملات التبشير هذه في القبائل المغاربية. لنشر أولاً إلى تبشير العلماء المعاصرين لنا تقريباً. خلال قرن من الزمان (قبل بداية القرن التاسع عشر) تمت إعادة زرع الزوايا (خاصة الرحمانية) والتي كانت جديدة كلية في القرى الجزائرية إبان الاستعمار الفرنسي في ١٨٣٠ (الشيء الذي يفسر أن الأولياء كانوا قد أخذوا زمام توجيه المقاومة)، ثلاثة إلى أربعة قرون قبل ذلك (القرنان الخامس عشر والسادس عشر) كانت هناك سلسلة زرع ثان، خاصة في القبايل الصغرى والكبرى، وفي ماض أكثر قِدماً أصبحت الآثار غير واضحة في التقليد الشفاهي، ومع ذلك يمكننا أن نتساءل إذا ما كانت بعض عشائر الجنوب، عشائر لحمر خدو، والتي يطلق عليها المصمودي (ج المصامدة) ركامات أهملها التوسع «الجليدي» للموحدين (القرن الثالث عشر).

لتلك الأقيسة والمقارنات تتراقص الجمل الجميلة بمفردها ـ باختصار، ليس «الانحطاط الغربي» أمراً مستحيلاً، لكن إذا هلكت مجتمعاتنا فلا يجب أن نعتقد أن ذلك سيكون من جراء شيخوخة بنانا ومن جراء إفقار جماعي لمجالنا الحيوي، وحتى التشابه مع الحضارات القديمة، التي سقطت عسكرياً أمام هجوم «المتوحشين»، كمثل السقوط عسكرياً أمام هجوم «المتوحش»، كمثل سقوط الشيخ أمام محارب شاب، يجب أن يعتبر ملغى. أخطار كبيرة تحدق برجال الغد لكنها لا تتشابه، والأخطار التي نملك تجربتها التاريخية ـ والحال أن هذه المظاهر الجانبية التاريخية المتوسطية، هي التي دفعت شبنغلر إلى رسم خطاطته لموت الحضارات، وهي التي جعلت بول فاليري يكتب ما يلي: «نحن الحضارات[1] نعرف أننا فانون. لقد سمعنا الحديث عن عوالم اختفت كلياً، وإمبراطوريات اندثرت دفعة واحدة».

في التوازن مدينة ـ قرية للأزمنة القديمة، كانت القرية تتحمل تأثير المدينة لأن أمام التنظيم وتراكم المعارف والقيم والوسائل التي تمثلها المدينة لم يكن على القرية إلا أن تخضع وتتحمل: لا تتحمل أنماطاً للتفكير فقط بل تتحمل وفي الغالب نظاماً حضرياً وكل ما يتمخض عنه. على العكس من ذلك، القرية هي التي كانت تعطي المدينة المادة الحية، مؤثرة فيها بهذه الطريقة في العمق وبشكل سري. وبدون هذه المادة كانت المدينة ستختفي.

في منتصف طريق التطور

لقد سنحت لي الفرصة للتعرف شخصياً على عدد من الناس عاشوا الانتقال من القبيلة إلى المدينة، البعض منهم بشكل منفرد والبعض الآخر بشكل زمر. إن ردود الأفعال في كلتا الحالتين مختلفة. لقد عرفت أيضاً قرى آبدة ما زالت تقاليد الدوار الرحال معشعشة فيها، كما تعرفت على مجتمعات شبه رحالة ما زالت تحافظ على تلك التقاليد وبصورة أفضل. وأخيراً، عاشرت عن قرب بعض العائلات في شمال الصحراء (زاب الشركي) في الجنوب (الهجار والعاير) في الغرب. موريتانيا ما زالت تمارس الترحال بكبرياء. إن المستقر

(١) «أزمة الروح»، ١٩١٩، مقال أُعيد نشره في **منوعات** III (Vairété).

الجديد لا يغدو بين عشية وضحاها مواطناً ليبرالياً ومثقفاً قادراً على تحمل المسؤولية الفردانية، ومنذئذٍ ستجشمه المدينة بسلسلة من الإهانات. واقعية أم خيالية، ستجرحه هذه الإهانات فيما هو أكثر جوهرية في شخصيته، فيما هو أكثر حميمية وأكثر عمقاً.

لأن البدوي «المبرجز» المحروم من وقاية الصحارى الفارغة الكبيرة، ومن الدعم اللامشروط لأبناء العم ـ الإخوان، يرتمي حينئذٍ على كل ما من شأنه أن يعوض الوقاية المفقودة والذي تقدمه له إمكانياته وخياله: قضبان النوافذ، الأقفال المعقدة، كلاب شرسة، المخصيون... والحجاب.

إن القبائل القروية لا تحرم النساء الإرث، قصد تمويه غياب الحجاب، بل الحقيقة بكل تأكيد على العكس من ذلك. إن حجاب وحريم المدن، بعيداً عن أن يكونا نماذج ينهل منها الرجل القروي بكل طموح، فهما يبدوان على العكس تعويضاً مخففاً، تقليداً أعمى للسنوبيزم[1]، بفضلهما يبحث المدني البورجوازي عن إعادة بناء عزلة نبيلة، عن إعادة بناء عالم متخيل حيث يعيش المرء بين أقاربه.

هكذا يغدو هذا الإنسان في صميم روحه حلبة، حقلاً مغلقاً، ميدان معركة ملطخاً بالدم، يكمن في داخله نمط شخصية يمكن تسميتها «البدوية» أو حتى «المتوحشة»، لكنها «نبيلة» رغم ذلك كله، تتصارع لتستمر في البقاء رغم الاختلاطات الدموية المميتة التي تجرها معها المؤسسة المدينية.

ولتلافي النزاع المحتوم، علَّق هذا الرجل «ستارة من حديد» بين مجتمع الرجال ومجتمع النساء ـ أي عملياً بين الحاضرة والعائلة ـ ولن يتوصل مع ذلك إلى إشباع حاجات العشيرة المتوحشة القديمة لكنه سيصل إلى أن يجعلها تستمر في الحياة ـ مستمرة في الحياة جائعة رغم ذلك.

في هذا الأفق، تتضح جملة تُنسب إلى النبي ﷺ كان مستشرقو المدرسة

---

(١) إن السنوبيزم هو الجواب المحتمل للقلق الذي تخلقه ضرورة الوجود المفرد لدى أغلبية المدنيين: إن الرجال الأقل «سنوباً»، (نفاجاً) هم الأقل قلقاً، والأكثر ثقة بأنفسهم، الأكثر ارتياحاً داخل جلدهم، هم آخر الرحل المحاربين الأقحاح.

القديمة يحبون ذكراها كثيراً: «يدخل هذا (السكة) بيت قوم إلا أدخله الذل»[*].

سواء شرحنا هذه الجملة بالإحساس بالذل عندما يخضع المرء للسلطة المركزية (الشرح الكلاسيكي) أو كما أحاول أن أقوم به، بقبول الحياة الآبدة، إذن بقبول الجيران، فإننا في كلتا الحالتين نرجع إلى الحساسية المؤلمة للمجتمع المتوسطي الأكثر قِدماً.

إن هذه الجملة مطابقة جداً للتقليد العربي، ومناقضة على العكس من ذلك لكل ما نعرفه عن شريحة النبي ﷺ. لقد رأينا بالفعل[1] كيف أن النبي ﷺ وبأكبر صلابة وحزم حاول زعزعة «البنى القديمة» التي تعبر عن ذاتها هنا.

الوجيه الصغير «شاة ـ الدية»
ليس أقبح شاة ولا أجودها...

غير أنه، ولتكذيب علماء الاجتماع، توجد في المغرب العربي مجتمعات لم يقم فيها المحراث بتحطيم الأنساب. إننا نرى في هذه المجتمعات قرويين آبدين أو شبه آبدين منغرسين في الأرض منذ عهد قديم، والذين يبدون أقل «اختلاطاً» رغم كونهم أكثر استقراراً ومن زمن بعيد.

إن السجل العقاري عند هؤلاء الملاّك القدامى للأرض يشبه النسابة، وتصميم المقبرة لديهم شبيه بنسخة مصغرة لهذا السجل العقاري. هنا وبفضل إجراءات[2] تقتضي أساساً تجريد جميع النساء من الإرث، ما زال هؤلاء يعيشون فيما بينهم كأقارب رغم المحراث المهدم للشرف.

(*) (سكة) أي الحديد التي يحرث بها الأرض، (الذل) ههنا ما يلزم من الحقوق التي يطالب بها الأئمة والسلاطين، قال الشاعر:

هي العيش إلا أن فيها مذلة　　　فمن ذل قاسها ومن عز باعها

(1) والحاصل أن الزراعة فيها ذل الدنيا وعز الآخرة لما فيها من ثواب. **صحيح البخاري**، شرح الكرماني، المجلد ٨ ـ ١٠ ـ دار إحياء التراث العربي، بيروت، طبعة ثانية، ١٤٠١ ـ ١٩٨١، ص ١٤٧. (المترجمان).

(2) الفصل السابع، «نزاع مع الله»، ص ١٥٩.

(3) لم تندثر هذه الإجراءات في المغرب إلا منذ الاستقلال، وأجهل ما هو عليه الأمر في القبايل الحالية.

لنسجل أن هذه المحافظة على الأنساب تسير عند الآبدين بموازاة تقهقر للوضعية النسائية التي تصل هنا إلى عمق من أعماقها.

إننا نعرف عمقاً آخر: أي الضاحية الحضارية، فهي الأُخرى منطقة انتقال. لقد امتدت وما زالت تمتد فيما بين المجتمعات المتعارضة، والمتضامنة رغم اختلافاتها، مناطق تماس - فههنا تفرض ضرورات واحدة (الحياة الحضرية) ومتطلبات الأُخرى (القبيلة) - وفي هذه المناطق الوسطية، ستحدث أكبر الخسارات: سوف لن تحدث في المجتمع الأندوغاني التقليدي، حيث يتم الزواج واقعياً بين أبناء العم، ولا في المجتمع الحضري الثقافي حيث أضحى مفهوم «الشخصية الإنسانية» حقيقة، ولكن ستحدث على جميع المستويات[١] في ما بين هاتين الركيزتين.

الموريتانيون يطلقون على الوجيه الصغير، وبشكل فكاهي: شاة الدية - تعبير نستطيع ترجمته بـ «mouton, d'impôt»، لأن شاة الدية هي تلك التي نذبحها عندما نؤدي دين الدم، ولأجل هذا النوع من القربان، الذي نقوم به مكرهين، فإننا لا نختار أجود شاة في القطيع، ولكن لا نستطيع أيضاً أخذ أقبح واحدة منه.

إن الوجيه شاة الدية كبش جيد بما فيه الكفاية، يأمل في نيل التقدير، وعلى أية حال فهو تأكيد لن يناله بشكل كاف. من هنا تلك الاستماتة التي يبذلها عندما يتعلق الأمر بهيبته، إنه سيتباهى بورعه أكثر من الآخرين، وسيسجن بناته ونساءه بإحكام.

لقد عرفنا، في فرنسا، حالات مماثلة لارتقاء قاس، مزين بالادعاءات.

في القرن السابع عشر، كان البورجوازي النبيل يضحك الملك وحاشيته:

---

(١) في أيامنا هذه، تنتج آبدية الرحل فعلاً النتيجة نفسها التي تنتجها عملية التحضر، أي عدم الاندماج الاجتماعي، لكن الأراضي الجيدة في أيامنا هذه قليلة ومشتتة، فعندما ندرس المجتمعات الآبدية القديمة جداً (مثلاً القبايل) فإننا نجد فيها «بنى قديمة» قاومت الآبدية، ولربما كان ذلك بسبب استقرار قديم جداً.
ومن الممكن أيضاً أن يكون «للبنى القديمة» المتهدمة ميل إلى التكون من جديد، عندما توفر لها الوقت والوسيلة لذلك.

في بداية القرن العشرين، كان البورجوازيون المثقفون للجمهورية الثالثة هم الذين استعملوا كلمة «ابتدائي» للإشارة إلى ذلك الرجل المزهو بذاته، ذي الثقافة المحدودة والذي سيملك بفضل قراءات سطحية وغير مهضومة جيداً، جواباً لكل شيء. لقد وجِد هذا الرجل واقعياً في المرحلة التي وجهت فيها المدرسة الابتدائية الإجبارية ضربة قاضية لحضارتنا القروية القديمة، وفي هذه الحقبة كان أمياً ذكياً، يملك الثقافة التقليدية لقرانا، أكثر أهمية وأكثر حكمة وأكثر «تميزاً» من ابنه، الذي أنسته سبع سنوات من التعليم الأوّلي حضارة بكاملها من دون أن تمنحه ولوجاً كاملاً إلى حضارة أخرى. إن الأخذ بالثأر يرجع الآن إلى الحفيد، رغم أننا لم نعد نعثر اليوم على هذا الصنف الاجتماعي المعني.

أجل ما زالت الفظاظة، والادعاء، وغياب «الترويض» الاجتماعي منتشرة كعيوب، لكن هذه الأخيرة محدودة عندنا في الأفراد، وقد توانت عن كونها ظاهرة عشيرة - في حين أن شاة الدية ما زالت تعيث فساداً في قرى إفريقيا وضواحيها.

عدد النساء المحتجبات يتقدم في الضواحي ويتراجع في المدن

إن ظاهرة التفتيت الحيوي المستتر والمستمر التي حفرت النواة الحضرية في كل وقت، تم حصرها في الوقت الحالي داخل المدن بالتقدم الطبي لهذا القرن. بفضل هذا الحصر، تعممت النزعة الفردية في وسط معين، ويمكن أن تأمل في أن المواطَنية - وتبدو مسبقاً عند بعض المواطنين - ستكون لها فرصة التأكد في بعض الأوساط أيضاً.

إلا إن امتياز العدد استمر في الانتماء إلى رجال الماضي، لأن الهجرة القروية في ذلك الحين اشتدت وطأتها، وهاجم القرويون الضواحي والمدن القصديرية بالآلاف. وللظاهرتين نتائج متعارضة، من جهة أصبح الحضريون مواطنين، وذلك في الصالح الأكبر لوطنهم - من جهة أُخرى نشاهد الرحّل الأكابر، والعقاريين الأفاخر قد أصبحوا «حرافيش»[١].

---

(١) ما عدا في موريتانيا، حيث يعيش آخر رحل المغرب العربي السعداء.

نستطيع ملاحظة إشارة صغيرة، في الوقت الذي برزت هاتان الظاهرتان الكبيرتان، ألا وهي: ارتداء الحجاب الذي يتنقل من مكان إلى آخر.

إن الجمهور الأوروبي الذي يسافر أكثر فأكثر إلى مدن الشرق، لكنه لا يعرف القرية المشرقية جيداً، يعتقد أن استعمال الحجاب يتراجع حالياً في العالم الإسلامي كله، في الواقع إنه يتراجع في بعض الأوساط ويتقدم في أوساط أُخرى.

إنه يتراجع بالفعل في المدن، حيث كان في بداية هذا القرن لا يزال شاملاً ـ وهذا أمر يمكن أن يشاهده أي مسافر ـ على العكس من ذلك، فإنه يتقدم في القرى، حيث كان مجهولاً منذ عشرين سنة. لقد لاحظت شخصياً أن الحجاب في الضواحي الصغيرة للمغرب، والجزائر وتونس وليبيا (لكي لا أتحدث إلا عن المناطق التي تحولت فيها حديثاً) «يوضع الآن يومياً من طرف نساء لم تكن أمهاتهن محتجبات».

يسجل بيار بورديو من جهته، في تحقيقه الممتاز حول التجمعات القبايلية[1]، ما يلي:

> علامة أُخرى لتحول أسلوب العلاقات الاجتماعية نلحظها في ظهور الحجاب النسائي ـ ففي المجتمع القروي القديم، كان لزاماً على النساء اللائي لم يكن هناك ما يدفعهن إلى الاختباء من أعضاء عشيرتهم أن يتبعن، للذهاب إلى الحنفية (وبشكل ثانوي إلى الحقول) طرقاً متباعدة وفي أوقات محددة تقليدياً: هكذا كن محميات من نظرات الأجانب وكن لا يضعن الحجاب، وكن يجهلن... الوجود المنغلق في المنزل. أما في التجمعات، مثلما هو الأمر في المدينة، فلا وجود للفضاء المنفصل لكل وحدة اجتماعية، إن الفضاء الذكوري والفضاء الأنثوي يتداخلان فيما بينهما، وأخيراً، فإن التخلي الجزئي أو الكلي عن الأشغال الفلاحية يفرض على الرجال المكوث في أزقة القرية أو في المنزل طوال النهار. لذا فإنه من المستبعد أيضاً، أن تستمر المرأة في

(١) بيار بورديو، **الاقتلاع، أزمة الفلاحة التقليدية في الجزائر**، منشورات مينوي، ١٩٦٤، ص ١٣٢.

الخروج بحرية من دون أن تجلب الاحتقار والفضيحة لرجال العائلة. ليس في مقدور القروية اختيار حجاب المدينة من دون أن تلغي ذاتها كقروية، وعليها أن تحتاط ما دامت قد انغرست في المدينة، بألا تظهر سوى على عتبة بابها. عندما خلق التجمع حقلاً اجتماعياً من النوع الحضاري، فقد حدد ظهور الحجاب الذي يسمح بالتنقلات وسط الأجانب.

هل يمكن أن نستنتج أن الحجاب، من ضمن علامات أُخرى، يمثل أيضاً ارتقاء إلى البورجوازية، إذن يمثل، بحسب أناس أوروبا، صعوداً على السلم الاجتماعي؟ لندقق في الأمر، فهذا التصور ليس هو التصور الخاص بالمغرب العربي.

حيث كان الرجل الأنيق ولمدة قرون هو الرجل الرحّال، والبدوي. . . علاوة على ذلك، وفي السلم الاجتماعي الأعلى مباشرة يمكننا أن نلاحظ أن البورجوازية الصغيرة التي أصبحت في أيامنا هذه تستقطب الأنظار، غالباً ما تسم هذه المرحلة بالسفور، وإذا «أردنا أن نعبر بكلام بارع»، يمكننا أن نقرب هذا التطور النسائي بالتطور الذكوري والموازي له ظاهرياً، لرجل عرفته من الأوراس: في البداية كان طباخاً (وكان في ذلك الحين يشرب شراب الينسون)، ثم أصبح تاجراً كبيراً في الجزائر العاصمة ولا يشرب علانية إلا الماء الغازي، ثم وهو يتهيأ أن يصبح شخصية عالمية سيقبل حينئذٍ الويسكي المناسب «لصفة» الاجتماعي. . .

حساسية اجتماعية

إن الإرث النسائي مثلما هو الشأن بالنسبة إلى عملية التمدن. لقد رأينا ذلك، يتشتت بفعل المجتمع القبلي. فهذا الأخير يدافع إذن عن نفسه قدر المستطاع، أي بحراسة بناته بدقة قصد تزويجهن مع ذلك من أبناء عمهن.

من الأهمية بمكان الاحتفاظ بهذه المراحل الثلاث للنزاع الداخلي للمجتمع المتوسطي: أولاً هناك ضرورة يرجع أصلها إلى العصر الحجري الجديد: العيش وسط الأقارب، ثانياً هناك ما يعاكس هذه الضرورة ويرجع إلى عهد بعيد أيضاً. إنه أقدم قليلاً من أقدم وثيقة تاريخية تحمل جيران أجانب، وأخيراً هناك أوالية ديموغرافية سمحت لهذا النزاع القديم بأن يبقى راسخاً منذ ما قبل التاريخ إلى أيامنا هذه.

بالفعل، من الطبيعي أن تنهار أوالية يتم مضايقتها سواء في هذا الاتجاه أو ذاك، بعبارة أخرى: إذا حركنا لمدة طويلة محركاً وحصاراً في آن واحد، فالمحرك سيكسر الحصار أو العكس. إنه إذن لمن الغرابة ملاحظة بنى أصبحت غير متكيفة مع الوضع في جنوب البحر الأبيض المتوسط، وبقيت مع ذلك على قيد الحياة بشكل أبدي تقريباً.

صحيح أن هذه الظاهرة نتاج لاحتكاك مجتمعين، المجتمع الحضري والمجتمع القبلي، وصحيح أيضاً أن هذين المجتمعين متعايشان حول البحر المتوسط؛ متعارضان لكن متعاضدان، وصحيح أيضاً أن المجتمع القبلي، «مجتمع أبناء العم»، هو الذي نفذ إلى المجتمع الحضري، المجتمع الوطني، مجتمع المواطنين، وذلك إلى حدود العشر سنوات الأخيرة هذه ـ وليس العكس.

هذا لا يعني أن الزواج الداخلي، وقد رأينا ذلك، يناسب من حيث الطبيعة إذلالاً للوضعية النسائية، بل إنه من المحتمل أن يمثل زواج أبناء العم في هذا الميدان تقدماً أيضاً، بالفعل: في قبيلة ذات زواج داخلي، تحظى المرأة التي تتزوج شبه ـ الأخ الذي هيئت له منذ الولادة بعدة تقديرات واحترام، وهذا صحيح إلى الحد الذي تدرك فيه دائماً التسمية «ابنة عمي» التي يستعملها الزوج المتحدث عن زوجته، كتعبير عن الاحترام والحب، يمكن للزواج الخارجي، من جهته أن يثير عدة خسارات، حين يفصل الفتاة الشابة بقساوة عن الوسط الوحيد الذي تعرفه، وذلك حتى يجعل منها «شيئاً للتبادل».

إن تقهقر المرأة لا يصاحب الزواج الداخلي إذن، وإنما يصاحب تطوراً لم يكتمل للمجتمع الأندوغامي ـ لم يكتمل بسبب هذا الانعاش المستمر للأفكار ولحصانة القبائل داخل الحضارات المدنية الكبيرة للشرف.

فالحدث الجديد، في هذا النصف الثاني للقرن العشرين ليس هو النزاع وإنما تطوره.

بالفعل، منذ خمسين سنة والوضعية تتغير في هذا الاتجاه الذي يجعل حظوظ الحياة[1] الآن أكبر في مدن الشرق منها في قراه، لقد قلّت «حظوظ

(١) إن من الأسباب البديهية لهذا الانقلاب ما يتعلق بحضور الطبيب في مدن إفريقيا وآسيا وبغيابه المأساوي في قرى هاتين القارتين، لكن هناك سبباً آخر أقل وضوحاً، وهو توزيع =

الحياة» لا «حظوظ الولادة»: إن هذه الآخرة، وعلى العكس من ذلك، تدنت شيئاً ما ـ على الأقل في النواة الحضرية[1] لكبريات الحواضر.

إن النتيجة في المدن هي الحفاظ على التوازن القديم الموصوف في هذا الفصل، بدون تغير ملحوظ: فثقل العدد استمر فعلاً في الانتماء، كما كان عليه الأمر في الماضي، إلى مجموعة قرى «العصر الحجري الجديد» الموالدي المفتقر إلى روح المواطنة ـ إلى جمهورية أبناء العم... إن هذا الحشد الإنساني ما زال متمادياً في سحق واكتساح نخبة مثقفة واعية، لكن هذه الأخيرة ما زالت قليلة العدد لكي تفرض ذاتها، إلا أن هناك المدرسة التي ستتمكن يوماً ما من تغيير مجرى التيار.

التغيير الحقيقي الوحيد هو أن هذه النخبة الحضرية أقل عرضة[2] للإبادة مما كانت عليه في الماضي، إنها تزداد وعياً أكثر فأكثر، واطلاعاً أكثر فأكثر، وتزداد سخطاً أكثر فأكثر بسبب النزاع الذي يجابهها بالحشود القروية. وعند هذه الأخيرة، فإن حظوظ الولادة ستكون كبيرة بالقدر الذي تكون فيه الحياة المعطاة معرضة للفقدان بشكل أكبر مأساوية. مزعزعة من طرف الفقر والهجرات التي يفجرها هذا الأخير، و«منزوعة القبلية» من دون أن تستطيع الوصول إلى مفهوم الذات والفرد واحترامها. إن الضحية الكبيرة لهذه الوضعية هي المرأة طبعاً: إنها تكف عن أن تكون «ابنة العم» لكنها ليست «شخصاً» بعد.

لنقل إنه من الوهم كلية أن نأمل بأن الأشياء ستنظم في هذا الميدان الأساسي، إذا كنا لا نحرك ساكناً ونترك الأشياء على عواهنها. بمفرده التدخل

= البؤس الحديث ـ ففي مدن الشرق قد يجد أحياناً منهم أكثر فقراً العمل أو المساعدة من الدولة، أو بقايا الأغنياء ـ في حين أصبحت المجاعة في أيامنا هذه داخل القرى المكثفة بالسكان بلا بديل ولا منفذ.

(١) لتأكيد ذلك إرجع أساساً إلى «L'enthnographie de papa»، أي إلى (تحقيقات غير مرقمة). بالفعل هناك عدة إحصاءات تخلط «حظ الحياة» بـ «خط الولادة» ولا تميز في المدينة بين الحضري القديم والحضري الحديث. إن هاجس تربية الأطفال جيداً قد اختزل شيئاً ما الولادة عند الحضري القديم.

(٢) على الأقل بسبب المرض: إنها تتعرض للإبادة من طرف الهجرة، بمعنى أن نخبة البلدان المتخلفة تهاجر إلى البلدان المصنعة.

المستمر والصارم جداً (والشعبي قليلاً) للحكومات الإسلامية سيمكن من تعويض التثاقل العددي الذي يشجع حالياً الميل إلى العتاقة في بلدان هذه الحكومات الأخيرة.

والحال أن كل شيء يترابط في المجتمع: الكل يتقدم أو يجمد، والجمود قاتل في عالم يسير بسرعة مماثلة لسرعة عالمنا.

الفصل التاسع
النساء والحجاب[1]

المستعمرة الأخيرة

إذا كان الحجاب النسائي قد أصبح رمزاً، عندما بدأت الارتعاشات الأُولى للغليان الحديث في جعل البحر الإنساني العميق المسمى «أفرو ـ آسيوي» يرتجف على مستوى السطح، فإن ذلك لم يكن مصادفة: لقد أصبح الحجاب رمز استعباد نصف الإنسانية.

وفي مرحلتنا المتميزة بتعميم القضاء على الاستعمار، يبقى فعلاً، العالم النسائي الواسع، ومن عدة نواحي، مستعمرة.

فالمرأة المتوسطية هي أحد أقنان الزمن الحالي، فهي مغتصَبة بشكل عام جداً رغم القوانين، تباع[2] في بعض الأحيان، تُضرب في الغالب مكرهة على العمل الشاق، وتُقتل بلا خوف من العقاب[3] تقريباً.

---

(١) إن جزءاً من هذا الفصل قد نشر في «Les mélanges» المهداة إلى شارل أندري جوليان، المنشورات الجامعية، باريس، ١٩٦٤.

(٢) إن الأمر لا يتعلق بالمهر الذي يقدمه الزوج لزوجته، بحسب الشريعة الإسلامية، قصد نكاحها، على العكس من ذلك فالمهر يشكل ضمانة أكيدة للزوجة لأنه في حالة الترمل أو الطلاق، يجب أن يرجع إليها. إن الأمر يتعلق ببيع حقيقي، أصبح لسوء الحظ منتشراً أكثر فأكثر من الضواحي الفقيرة. إن البيع يشكل حالة استثنائية في وسط متدين ويعتبر عاراً بصورة دائمة.

(٣) عندما يشتبه في ارتكاب امرأة للزنى، فإن الزوج، أو الأب، أو الأخ القاتل تبرأ ساحته بكل تأكيد من طرف الرأي العام في جميع البلدان المتوسطية أو المتأثرة بالبحر الأبيض المتوسط، لهذا الغرض، حدد المشرع الإيطالي ثلاث سنوات من الحبس كحد أدنى لمعاقبة =

والحال أن سلبيات هذا الإبعاد معروفة لدى علماء الاجتماع ومن أغلب القضاة (فاليونيسكو قلقة من هذه الوضعية حالياً) لأن هؤلاء والآخرين يعرفون أنها تنقص من الإمكانيات الفعلية للأمة وتضعف الدولة بالتالي، وتشكل جميع التطورات الجماعية والفردية سواء كانت ذكورية أو أنثوية، وبالنتيجة تبطئ التقدم أو تعرقله. إنها إذن تسبب للطفل في المستقبل خسارات عدة ولا يمكن إصلاحها... أما الرجل، الفاعل المفترض، والمستفيد الظاهر من هذا القمع، فإنه سيكون الضحية مباشرة، في جميع مراحل حياته - كطفل، كزوج، كأب - وثقل المرارة الذي يحدثه له هذا الفعل يكون في بعض الأحيان مجاوراً لذلك الذي يسحق رفيقته.

إن الذي سيزيل العمرة أو المنديل سيتعرض لكل ما من شأنه أن...

إن المسافر الذي يجوب الهدب(*) الوسيطي للمسيحية - إسبانيا، جنوب فرنسا، كورسيكا، إيطاليا، صقلية، سردينيا، اليونان، قبرص، لبنان المسيحي - لا يعثر قصد إثارة رؤيته على جزء يتعلق باللباس، مثير للدهشة، مثل حجاب النساء المسلمات، لكنه يستطيع أن يلاحظ، على كل حال، بعض السمات من العادات التي تستحق الانتباه.

على الضفاف المسيحية للمتوسط، يمكننا أن نتبع الرسم المتعرج لحدود لامرئية: ففي ما وراء هذه الحدود، تتنزه الأُسر يوم الأحد مجموعة، وتتردد على المتاجر نفسها، وتجرؤ امرأة في قريتها الخاصة وبصحبة عضو من عائلتها، على تناول مشروب غير كحولي في مقهى ما، كما يمكن لقروية يتجاوز سنها ٣٥ سنة أن تظهر وسط العموم بلا خمار أسود على الرأس. وعلى المنحدر الداخلي لهذه الحدود يمشي الرجال بمفردهم في الشارع(١) ويتجهون بمفردهم

= هذا النوع من الجريمة - وبحسب معرفتي لا يفرض هذا الحد الأدنى في البلدان المتوسطية (أو المتأثرة بالبحر الأبيض المتوسط مثل الجنوب الغربي الأمريكي أو أمريكا اللاتينية) بالقانون فإن البراءة تكون لازمة، العكس من ذلك في إنكلترا وأمريكا الشمالية، يكون الزوج القاتل معرضاً للعقوبة القصوى.

(*) الهدب: رصيف مرجاني يفصل اليابسة عن البحر (المترجمان).

(١) يشير دومنيك فرننديز في «Mère Méditerrannée»، ١٩٦٥ ص ٢٤ و٢٥ إلى الظاهرة نفسها على الضفة الغربية: «لقد لاحظنا ذلك إبان السفر من الحدود إلى نابولي: إننا لا نعثر =

إلى الخمارة، وما زال يعتبر حضور امرأة في مقهى ما إلى الآن، ولو كانت مصحوبة بقريب من أقاربها، أمراً جريئاً كما هو الشأن في بغداد.

هكذا، فإن بعض ضواحي سهل غارغانوا، مهماز «الجزمة» الإيطالية، قد تصل بنا إلى حد استحضار تنظيم القرية القبايلية في تبينها الهندسي للفصل بين الجنسين - وفي الأوقات الضاغطة والمكتظة بالناس، المزامنة، في وقت الصيف، لنهاية القيلولة، لا يمر عابر الساحات والشوارع الكبيرة إلا بالحشود الذكورية، المندلقة بلا كلل من الأبواب الصغيرة المنفرة للدور القديمة، والمتاجر والمقاهي، والحدائق العامة ملأى بالرجال، ليس إلا . . . على العكس من ذلك، وإذا ما ساقت المصادفة أو الفضول شخصاً ما، في الوقت نفسه، إلى أزقة يصعب ولوجها، فإنه يستطيع أن يتزاحم إذن مع كتل إنسانية متلاحمة جداً لكن هذه المرة كتل نسائية حصراً، حيث العناصر الرجولية الوحيدة هي ذكور صغار لا يتجاوز عمرهم ثماني سنوات متعلقين بتلابيب أمهاتهم.

في صقلية - وبمدينة راكوز، ضمن ثلاثين ربة بيت تم استجوابهن، أعلنت ثلاث منهن فقط أنهم يخرجن لقضاء حاجاتهن، وذلك تحت ضغط الضرورة، إما بسبب موت الزوج وإما بسبب مرضه[(١)].

في إيطاليا الجنوبية (بالضبط في إقليم بوتينزا - لوكانيا القديمة)، سجل دومنيك فرننديز[(٢)] بصدد فض البكارة في ساعة الدخلة ما يلي:

> إن الزوجين، وقتئذٍ يكونان في مشاجرة مع العدو الداخلي، مع الكبت (النهي) العتيق، ويحاولان الانتصار على الليل وعلى الخوف، كما يهيئان نفسيهما للزيارة التفتيشية التي وعدت حماة العروس أن تقوم بها في صباح الغد.

= في هذه البلاد على رجل في صحبة إمرأة إلا نادراً - وإذا حصل أن رأيتهما في مطعم ما، فإنهما يمكثان صامتين الواحد أمام الآخر، كما لو أنهما لا يملكان ما يقولانه فيما بينهما. إننا نلاحظ في الغالب حشوداً من الرجال والنساء متحلقين حول الطاولات بمعدل اثني عشر فرداً، وقاية ضد التواجد المخيف. رأساً لرأس في الخمارات ليلاً نجد الرجال فقط».

(١) ذكر هذا التحقيق من طرف ر. روشفور، **العمل بصقلية**، المنشورات الجامعية، ١٩١٦، ص ٨٦.

(٢) فرننديز، مصدر سبق ذكره، ص ٩١.

في اليونان أيضاً، وفي تيصالي على الخصوص، تبقى الحماوات مخلصات للعادة التي تقتضي بعد اليوم التالي لحفلة الزفاف عرض المنديل على واجهة نافذة، ذلك المنديل الذي يدعي إثبات بكارة الكنات الجديدات أمام فضول النساء الأُخريات.

في فرنسا الجنوبية (بما في ذلك كورسيكا)، أزال التعليم الإجباري وتأثير المدن الكبرى والاختلاط بحضارة الشمال، هذه العادات جزئياً، ويجب حالياً الرجوع قرناً أو قرنين لكي نجد تلك العادات حية، ولكن رغم ذلك، ها هو ذا مثال عنها:

> إن الذي سيزيل العمرة أو المنديل (الذي يضعه النساء فوق شعرهن) أو حتى نستعمل التعبير العامي «سيربط»، سواء بتهديدات علنية أو سرية أو بأي نوع من العنف، وفتاة شابة أو أرملة من الزواج، سيتعرض لكل ما من شأنه أن. . . .

إن هذا التصرف ألف نفسه في ضرب من السنن، تقنن من طرف حكومة باولي في أيار/مايو ١٧٦٦. في هذا التاريخ، فإن شخصاً ما، في كورسيكا قد يمنع فتاة شابة من الزواج[١] بمجرد حسر غطاء شعرها أمام الناس، لأن صاحب هذه الفعلة وحده يمكنه فيما بعد أن يتزوج هذه المرأة الضحية بلا خجل. إلا أنه، وقبل الزواج، كانت هناك حظوظ كبيرة لكي يُقتل الفاعل من طرف أصهاره المفترضين. . .

إن التماثلات بين العادات المسيحية، وتلك التي نعزوها عامة إلى المجتمع الإسلامي بمفرده، لا تحد عند مثل هذه التشابهات السطحية، ففي أي من هذه وفي القرى اليونانية، يتم إرجاع الزوجة التي تحوم حولها شبهات الخيانة الزوجية إلى عائلتها بالضرورة، حيث يجب على الأب أو الأخ البكر لهذه المرأة قتلها باسم صون الشرف ـ غالباً ما يتم ذلك بطعنة خنجر ـ وعندما لا يكون لها أب ولا أخ، فإن القرية تنتظر من العم أو من ابن العم الشقيق أن يمارس الطقس الدموي، كل هذا يتم على هذه الشاكلة: لقد حصلت على الخبر من رجل دولة يوناني، ويرجع هذه إلى سنة ١٩٦٤.

(١) انظر أيضاً المصدر نفسه، ص ١٢٥.

إن قتل فتاة من طرف أخيها كان أمراً مألوفاً في إيطاليا[١]، وما زالت مصادفته ممكنة في بعض الأحيان، ويستمر متواتراً في لبنان.

في البلدان المسلمة، أعرف أمثلة عن هذا القتل في المغرب، في القبايل، ولا وجود له في الأوراس، ولا في موريتانيا، ولا في بلدان الطوارق، إنه مقبول من طرف الرأي العام في العراق[٢] ومحكوم عليه حكماً ضعيفاً من طرف القانون.

بالنسبة إلينا، نحن الذين نحاول فك رموز هذه الحكايات بواسطة السياق المتوسطي، فإننا نشرح وازع معاقبة امرأة ارتكبت زنى من قبل أقرب الأعضاء لها قرابة بقاعدة الأخذ بالثأر. لأنه في الحالة المعاكسة يكون لعائلة هذه المرأة الحق في الانتقام من الزوج القاتل ـ أيضاً فإن الأخذ بالثأر هو الذي يفسر تعريض المرأة الزانية للموت عن طريق رجمها، وهو عُرف لا يزال يمارَس بشكل واسع في حوض المتوسط[٣]. كل شيء يتم كما لو كان زنى امرأة جريمة ضد المجتمع الذي تنتمي إليه وليس فقط إخلالاً بالتزام خاص. إن المجتمع ينتقم إذن لكنه ينتقم بهذه الطريقة التي تجعل مسؤولية الجريمة موزعة بين جميع الأفراد الذين يكونونه حتى لا يتورط أي واحد منهم بمفرده.
كتب ملاحظ جيد مهتم في إيطاليا[٤] بصدد تربية الفتيات والأولاد ما يلي:

«ليس هناك تراجع بصدد الفتيات، فقد تمت تربيتهن بفكرة أن الشيء الوحيد المهم هو البكارة، فلا عجب إذا كن لا يتعبن قصد تطوير عقلهن أو تقوية مزاجهن.

«فهن يعرفهن أن أثمن ما يملكهن لا يرجع لهن حقيقة، وأن الزوج سيحوزه مرة واحدة وبعدها لا يساوين شيئاً. إن حياتهن كلها تتوقف على بضعة

---

(١) انظر المصدر نفسه، ص ١١٤.

(٢) انظر المصدر نفسه، الهامش رقم (١) في الصفحة ١١٤.

(٣) لقد عاين صديق جزائري، في مكة المكرمة، بضع سنوات خلت، رجم رجل شاب لامرأة شابة اعترافاً بعلاقتهما الغرامية، وفي قرية في جنوب ستيف وضعت فتاة غير متزوجة طفلاً في ١٩٥٩ ولم تحرك عائلتها ساكناً، فالقرية هي التي رجمتها وقد عاش الطفل رغم سطوة العُرف.

(٤) فرنندیز، مصدر سبق ذكره، ص ٥٧ ـ ٥٨.

دقائق وعلى الدوام، وفي الغالب قبل أن يخرجن من مرحلة الطفولة، هكذا يجد نصف السكان نفسه ممنوعاً من ممارسة أدنى تأثير على التطور الثقافي والأخلاقي للجنوب (Midi).

«بالنسبة إلى الأولاد، فالأمور ليست على ما يرام كما قد يبدو. لقد عوملوا منذ المهد كآلهة، وأحيطوا بفرقة من النساء الساهرات على تلبية نزواتهم، لا يتواجدون في البيت بمفردهم أبداً، ولا يضادون في شيء أبداً، ولا يخضعون لتوقيت ما أبداً، ولا يعاقبون ولا يجازون أبداً بحسب أي نظام، وإنما يتركون كما يترك الحبل على الغارب... فيصلون إلى سن الرشد مجردين من كل سلاح، مَثَلهم في ذلك مثل المولودين الجدد، ففي العشرين أو الخمس والعشرين سنة من عمرهم... يترجم اللقاء مع الواقع لديهم بكارثة رهيبة».

وسجل الملاحظ نفسه ما يلي: «فبعد تسعين سنة من الوحدة، أي في سنة ١٩٥٠، كان دخل الفرد الواحد في الشمال مضاعفاً مقارنة بما هو عليه في الجنوب، والآن وبعد أكثر من عشر سنوات من 'المعجزة' الاقتصادية، تجاوز الدخل الفردي في ميلانو أربع مرات الدخل الفردي للكلابري أو للصقيلي».

هذا كله يترابط بمنتهى الصرامة: لأنه إذا كان الرجال هم الذين يحافظون على النساء في هذه الوضعية المحتقرة، فإن النساء هن اللواتي ربين الفتيان الصغار، وهن اللواتي نقلن لهم الفيروسات القديمة، الماقبل تاريخية - تكون النساء المسحوقات أقزاماً مغرورين وغير مسؤولين وتكون فيما بينها دعائم مجتمع تتزايد وحداته في العدد بانتظام وتنقص في الكيف... ورغم ذلك كله، فالشجاعة والذكاء وجميع الفضائل الإنسانية الكبيرة والنادرة، متاحة لهم تماماً بحسب المعدلات الموجودة عند شعوب الشمال، لكن «شيئاً ما» يطرأ ويخنقها...

إن هذا «الشيء» هو على الخصوص الضرورة الاجتماعية التي تفرض على أب أو أخ - وفي بعض الأحيان بناءً على ظن بسيط - اتباع سلوكات بربرية، رأينا أمثلة منها قبل قليل. أما عن طبيعة وأصول هذه الضرورة، فذلك كان بالضبط أحد موضوعات هذا الكتاب.

على الضفة الإسلامية للبحر

إن الحجاب في جنوب البحر الأبيض المتوسط، لا يغطي الشعر فقط، ولكنه يغطي الوجه كله[1]: إنه لا يكون جزءاً مثيراً من اللباس فحسب، والذي ينطوي بشكل غامض على مغالطة تاريخية، ولكنه يكون حدوداً حقيقية... على جهة ما من هذه الحدود يعيش ويتقدم مجتمع وطني، لقي نفسه بهذا الفعل، في وضع نصف مجتمع: في الجهة الأُخرى يجمد النساء ـ جاهلات ومجهولات ـ....

في بداية هذا القرن، وفي شمال إفريقيا كلها وغرب آسيا الشاسعة لا تقبل القاعدة التالية الاستثناء: إن جميع نساء المدن ـ عدا بعض الخادمات العجائز ـ يخفين وجوههن تحت كاغولية حقيقية، عندما يدفعن إلى الخروج من «الحريز» تحت ضغط التزامات ما ـ إن الأمر يتعلق بنساء المدن لا بالقرويات ـ لأنه فيما مضى كانت القرويات يتجولن بوجه مكشوف دوماً.

في أيامنا هذه، وفي أزقة مدن تركيا وإيران، ما زال السائح يقابل في بعض الأحيان عابرة سبيل، يكون وجهها متوارياً خلف ثوب سميك وغامق.

وفي الحقيقة، نادراً ما يحصل ذلك: لأن قائدين عسكريين أصبحا رئيسي دولتين[2] منعا هذا الاستعمال في هذين البلدين، وذلك قبل الحرب العالمية

---

(١) «إن المرأة الإغريقية التي تظهر في النافذة الخارجية للمنزل، ترتكب مخالفة في حق الأمانة الزوجية، وتستحق في نظر زوجها، الطلاق». أرسطوفان، **Les Thesmophores** (أعياد ديمتر)، أبيات ٧٩٧ ـ ٨٠١.

أيضاً الخروج من المنزل من دون علم الزوج والظهور للعموم مكشوفة الوجه، يعدان مخالفة للأمانة الزوجية، بالنسبة إلى المرأة الرومانية من القرن السادس، لروما المؤسسة (القرن الثاني ق.م) Mercator Plante، الفصل السادس، المشهد الخامس؛ Pierres Noailles، «ممنوعات الزواج في القانون البدائي للرومان»، **الحوليات السوسيولوجية**. C. كراسة ٢، ص ٢٥.

(٢) إن الأمر يتعلق بمصطفى كمال باشا، الرئيس الأول للجمهورية التركية (انتخب رئيساً سنة ١٩٢٣ وتوفي سنة ١٩٣٨)، ورضا شاه بهلوي (نُصب ملكاً على إيران سنة ١٩٢٥، توفي سنة ١٩٤٤). إن هذين الرئيسين، وكلاهما جندي سابق، استعملا العقوبات للقضاء على الحجاب. وقد تحقق لهما ذلك تقريباً ومؤقتاً. عندما نطلب من الإيرانيين، أربعين سنة فيما بعد، إذا ما كانوا يفضلون الإمبراطور الحالي على أبيه يجيبون: «أجل لأنه سمح بإعادة وضع الحجاب...».

الثانية بكثير، وواكبا منعهما ذاك بعقوبات قاسية.

في العراق سنة ١٩٦١، لا نرى إلا قلة قليلة من النساء في الأزقة، لكن لم يكن محتجبات جميعهن. في لبنان، وفي التاريخ نفسه، رأيت في الشوارع الرئيسية والكبيرة للأحياء المهمة، بعض الأنيقات اللواتي يرتدين في الغالب من عند أحدث الخياطين... يضعن كذلك حجاباً صغيراً أسود، وفي الضواحي الفخمة للجنوب، كان الحجاب لا يزال منتشراً، لاحظت في مصر، سوريا، الأردن: وفي الباكستان الغربي ـ البلدان التي زرتها أيضاً سنة ١٩٦١ ـ هناك بعض النساء المحتجبات في الأحياء الراقية، لكن الحجاب يبقى متواتراً في أطراف المدينة الفقيرة: أربع سنوات فيما بعد ـ سنة ١٩٦٥، أكدت لي صديقاتي السوريات والمصريات أن الحجاب أصبح استثنائياً تقريباً[*].

باختصار، العربية السعودية، اليمن، أفغانستان، هي الدول الإسلامية الوحيدة ذات الأهمية في المشرق العربي، حيث لا تزال الحضريات إلى اليوم منغلقات، مقنعات ومحروسات مثل جداتهن ـ في المغرب وعلى العكس من ذلك، رغم جهود الملك محمد الخامس (طيب الله ثراه) يبقى الحجاب ولا يزال منتشراً، إلا إن الفتيات الشابات اللواتي يتابعن دراستهن الثانوية أو العليا وبعض النساء الشابات قد توقفن هنا أيضاً عن وضعه ولا يلاقين أدنى عداوة. في ليبيا (طرابلس وبنغازي) يمكن أن نلاحظ النزوع نفسه، وفي تونس، الحجاب في طريقه إلى الاندثار، وهذا يتناسب مع تطور في العمق يرجع الفضل فيه، وبحجم كبير، إلى الرئيس السابق بورقيبة[١].

(*) نلاحظ تراجعاً مريعاً عن هذا الاستثناء في مصر على الخصوص من ١٩٧٠ و١٩٨٠ (المترجمان).

(١) الحبيب بورقيبة، **المرأة، عنصر التقدم في المجتمع**، موناستير، ١٣ آب/أغسطس ١٩٦٥، كتابة الدولة في الإعلام والتوجيه، ص ٧: «وأنا طفل صغير.. كنت أقول لنفسي إذا ملكت السلطة يوماً ما، فإنني سأعجل بإصلاح الأذى الذي أصاب المرأة...» ص ٦. «لقد كان لي في عائلتي وبالاحتكاك مع أمي وجدتي إلهام إدراك المصير الجائر والمؤلم الذي خصص للمرأة... فرغم كل مجهوداتها وكل استحقاقاتها مكثت المرأة كائناً دونياً، وتستعمل في وصفه الألفاظ الجارحة. لقد كنت أعاني من هذا الجور في عمق ذاتي...» اتجاه المرأة، كان من الواجب على الرجل أن يضع حداً بينه وبين المرأة وأن يتصرف كسيد» ص ٢٣ «هناك عادات أخرى انكشفت لي في هذه الأيام الأخيرة فاجأتني وأثرت فيّ عميقاً؛ ففي جيربا، حيث كانت ستتزوج مدرّسة شابة في الحادية والعشرين من عمرها =

ما زالت الجزائر ـ حيث لعب الحجاب في أثناء حرب السبع سنوات أدواراً استراتيجية مختلفة ـ تفحص ذاتها: إن ثورتها، كما نعرف، كانت من صنع عناصر تحديثية لا عناصر رجعية، لكن كوادرها، وعند خروجهم من السرية، فقدوا قوتهم بشكل فظيع وشعروا على كاهلهم بثقل الحشود التي تبعتهم، على كل حال، فالواقعة تبقى قائمة: إن مدن الجزائر، وأمام الدهشة العامة، ما زالت تعتبر من ضمن الحواضر المسلمة التي نعثر فيها وبعدد كبير على النساء المحتجبات، في حين أن الحجاب النسائي وكل ما يرمز إليه يتقدم بشكل كبير في ضواحي الجزائر.

لا يجب التسرع والحديث عن تراجع، لأن الجزائر بلد شاب والعدد الوازن ينتمي حالياً إلى الأولاد الذين هم أقل من عشرين سنة. وأغلبهم تربوا، بسبب الحرب، في أحضان أمهاتهم ـ والحال أن الأمهات الجزائريات يجعلن من ضرب فتياتهن واجباً، ليعودنهن على الخضوع، لكنهن لا يمارسن الضغط على أولادهن أبداً، إن هذا الصنف من التربية لا يعطي «ذوي القمصان السوداء»(*) بالضرورة، على الأقل في القرى، لكن وعلى العكس من ذلك، فقد أنتج داخل الحواضر الكبيرة، والضواحي الآهلة بالسكان، بالإضافة إلى أمثلة الشارع وغياب الأب، النتائج التي يمكن انتظارها منه: فلأجل تلافي تحرشات الأولاد، أعادت النساء وضع الحجاب في عدد من المدن الجزائرية.

يجب أن نسجل أيضاً أنه إذا كنا نلاقي في أزقة الجزائر العاصمة نساء محتجبات بعدد كبير، فلأنهن يخرجن من منازلهن أكثر من نساء المتوسط الأخريات ـ التبضع، الزيارات، العمل ـ وتشكل هذه المشاركة الاقتصادية والتقنية التي بدأت النساء يذقنها، مؤشراً للتقدم بالنسبة إليهن وإلى وطنهن.

= بموظف، تقتضي العادة طمر العروسة في بئر بعد دهن جسدها بالطين قصد تصفية لونها وإطعامها بالعجائن الغذائية لأجل السمنة».

ص ٢٤ «هناك حالة أُخرى أخطر من السابقة، بلغت مسامعي... ويتعلق الأمر برجل عجوز بسوق البركة أقرض أب فتاة مائتين وخمسين ديناراً. وكان هذا الأخير ينوي تسديد دينه من مال فتاة شابة مثقفة» (ذهبت إلى مديريتها طالبة العمل قصد تسديد الدين الذي على أبيها).

(*) صفة تطلق عادة على الأطفال (الشباب) الذين يرتدون القمصان السوداء ويعيثون فساداً في محيطهم (المترجمان).

هناك علامات أُخرى للتطور الاجتماعي: حيث نعثر في المدن الجزائرية أكثر فأكثر على أُسر شابة «حديثة»؛ أُسر تعيش مستقلة وتكرس نفسها لتربية أطفالها، فيما بين الثلاجة والتلفاز اللذين يقدسان الحميمية: لموازاة ذلك أصبحت عادة شهر العسل معممة عند الموظفين وأصحاب المهن الحرة(*).

خلال الحفلات الفاخرة التي ما زالت تقام بمناسبة زواج ما، يمكننا أن نرى اليوم شباناً وشابات يرقصون جميعاً التويست والمديسون والتشا ـ تشا ـ تشا، تحت أضواء خافتة إلى درجة قصوى، حتى أن الأجنبي يندهش ويثير ذهنياً فكرة «الحداثة»، إلا أنه يكون على خطأ في هذه المرة: فخارج رقصة التشا ـ تشا ـ تشا نكون على العكس من ذلك في خضم التقليد، لأن من يستفسر سيلاحظ بسرعة أن الذكور المقبولين بمفردهم لهذا المرح هم أبناء العم الخالدين للوادي المتوسطي الكبير ـ والحال أن الخدر المغاربي كان دوماً مفتوحاً في وجه هؤلاء، إن درجات التسامح تميز في الواقع عائلتين لا مرحلتين.

العالم القديم، فيما وراء المغرب العربي

ليست هذه الدراسة مكرسة لظاهرة إسلامية وإنما لتفسير ظاهرة أرحب كثيراً، لكونها تميز منطقة جغرافية، حيث انتشرت بعد اكتشافات العصر الحجري الجديد، بنية عائلة تفاؤلية وشرسة في الوقت نفسه، والتي ما زالت هي بنيتنا، مع بعض الاختلافات. إن هذه الدراسة، مع الأسف، تترك جانباً الدول الإسلامية القصية، وذلك بسبب غياب المعلومات المباشرة في أغلب الحالات. إن القاسم المشترك لهذه البلدان ورعها العميق، وقد خضعت بواسطة إيمانها لتأثيرات متوسطية، لكن هدفنا هو أن نعثر على عادات أكثر قِدماً من الإيمان الإسلامي، وأن نستطيع بالتالي ضبط حدودها. إن تلك العادات تتجاوز في إفريقيا بشكل واسع عادات المغرب العربي والعرق الأبيض(١).

كتب فينسون مونتاي، الذي استكشف جميع ملتقيات «إفريقيا العميقة»

(*) التطور نفسه يلاحظ في المغرب أيضاً (المترجمان).

(١) إن عمر العصر الحجري للسنغال ستة آلاف سنة تقريباً، وهو لاحق شيئاً ما على العصر الحجري الجديد لإفريقيا الشمالية.

والإسلام بدقة وبُعد نظر سنة ١٩٦٤[١]: «إن حجب النساء يعد واقعة استثنائية في إفريقيا السوداء، خارج عائلات المرابطين. وتذكر مع ذلك استثناءات للقاعدة عند البوليس الآبدين... إلا إن أزواج حاوسة من نيجيريا لا يسمحون لزوجاتهم بالخروج، وفي المدن يعملون على إبقائهن محبوسات ببساطة تامة، إن العزلة الكاملة تعتبر أفضل من زواج الجاهل». إن للتطور هنا أيضاً انحداراً مزدوجاً؛ ففي ابيدان في نيجيريا الغربية، عند اليوربا، هناك طائفة مسلمة حديثة العهد تدعى كنديل تحجب وتحبس نساءها ـ إنها واقعة جديدة، لاحظها مونتاي في نيسان/أبريل ١٩٦٥ في المكان عينه.

تأثير النساء اللامرئيات

عدة أناس يتطورون حالياً في المراكز الحضرية (أقصد بذلك مجموع العائلات التي استقرت في كل مدينة منذ عدة أجيال)، نحو احترام الشخصية الإنسانية ـ وإن كانت هذه الشخصية امرأة.

إن قانون العدد ينتمي دوماً، للأسف، إلى الحشود القروية التي تغزو المدن أكثر من أي وقت مضى، علاوة على البؤس الذي يصعب علاجه، تحمل معها هذه الحشود ثقلاً ساحقاً تقريباً من المستبقات الماقبل تاريخية، إلى هذه المدن.

في الوسط الهجين ـ نِصف قروي، نصف حضري ـ الذي يميل حالياً إلى اكتساح جميع الأوساط الأُخرى، يبقى فيه تأثير المرأة، وبالضبط بسبب «حجبها»، كبيراً، يبقى كبيراً فوق العادة ـ في جميع البلدان، يخضع الأولاد وبشكل قوي لتأثير أمهاتهم، لكن أولاد النساء المحتجبات يخضعون لذلك التأثير أكثر من الآخرين، لأن هؤلاء الأخيرات يعملن على تربيتهم[٢] فقط في أثناء

---

(١) فينسون مونتاي، **الإسلام الزنجي**، Le seuil، ص ١٧٢، طبعة جديدة.

(٢) في بعض الأوساط المغاربية المعاصرة، حيث يكون الأب قد خضع لتأثير الحداثة في حين تكون الأم قد مكثت لصق التأثير العتيق، يمكن لعلاقات الأبناء بآبائهم أن تنعكس والنتيجة لن تكون دائماً جيدة: فقد عرفت عائلات تنازل فيها الأب، وهو رجل مثقف، عن الاهتمام والعطف للأمي قصد تربية أطفال صغار جداً. إن نتائج هذا القلب الحقيقية يمكنها أن تكون درامية على المستوى النفسي، وقد تبدأ بانهيار عصبي بسيط إلى حدود محاولة انتحار الولد البكر المعذب بمسؤوليته الخاصة.

السنوات الأُولى من حياتهم، وهي الأكثر أهمية. علاوة على ذلك، فالأم تنتمي كلية إلى الطفل، إلى الحد الذي لا تنحل فيه الرابطة بينهما، ويجد هذا الأخير نفسه وبشكل خطير عبداً لهذا التملك، عندئذٍ ندرك أن أوالية سيكون من نتائجها المزدوجة، الإفراط في تأثير الأمهات على أطفالهن وفي الوقت نفسه حرمان مجموع النساء من العلاقات العادية مع الحياة، المجتمع، الأمة، التقدم، ستسبب خلال المراحل التي يكون فيها التطور سريعاً، أشد النتائج ضرراً.

على المرأة الشابة أن تتعود منذ طفولتها على إفناء شخصيتها وأن تتحمل لأجل ذلك المعاكسات المستمرة لكن غير الفعالة - إن النساء المتوسطيات لهن شخصية بمقدار ما للآخرين، والمعاكسات لا تلين طابعهن إطلاقاً، وإنما تجعله حاداً.

ليس ذلك كل ما في الأمر: فبعد التصدع الترابي للعشرة، انساقت القرويات في الغالب إلى أن يتزوجن أكثر فأكثر من الأجنبي، إذن من شخص مجهول، وبالتالي، عليهن ليس فقط الانفصال الدائم عن المجموعة السعيدة والأخوية التي تربين في أحضانها، ولكن أن يحظين أيضاً بالقبول من طرف زمرة من النساء، معاديات لهن قبلياً، هنا تنتظرهن أسوأ وضعية نسائية.

أولاً يخضعن لغربة قاسية، خلالها يمكنهن في بعض الأحيان، وهذا صحيح، أن يسعدن بمساندة حب أزواجهن، لكن من النتائج الحتمية تقريباً لهذا الحب أنه يشحن عداوة الغيرة للوسط النسائي اتجاههن - عداوة كبيرة، لا سيما أن الزوجة الجديدة تحتل مكاناً غير مخصص لها في غالب الأحيان، وتنحي بذلك الاحتلال ابنة الأخ أو ابنة العم الحبيبة.

إذا أصبحت الزوجة الشابة أماً، فإن الحب الأمومي يحولها إلى أحذق فاتنة ويعطيها الشجاعة لتحمل التجريح الذي يكيله لها نساء العشيرة الزوجية لأن طلاقها قد يفصلها بلا شفقة عن أطفالها، من جهتها، ستكون عائلة الزوج، وبعد مدة من الزمان، في غاية الامتنان «لكونها أنجبت الصغار»، لهذه الأسباب تصمد الأُسرة أحياناً.

ويمضي الزمان، وتدور العجلة، ويأتي يوم تصبح فيه المرأة بسبب أطفالها، عجوزاً، ويمكنها بدورها أن تملك نزوات، فتعذب إذن كناتها الشابات

عذاباً أليماً، وتكون تقليدياً الدعم الأكثر صراحة للحماقات[1] العتيقة، لكن، حتى هذه السعادة المتأخرة، ومن الآن، ستكون مرفوضة لها، لأن عالماً جديداً، حيث تعرف أن ليس لها فيه أدنى مكانة، يفرض، وفي كل مكان، مطلبه.

في خضم العواصف النسائية، يلجأ أغلب الرجال إلى التجريبية، يعطون لأمهم السلطة كلها ومفاتيح الذخيرة والمال كلها، وغالباً ما يحملون إلى زوجاتهم خفية، وبحسب إمكانياتهم وبحسب المناسبة، فستاناً، بعض الحلي، صابونة ذات رائحة. وعندما يفشلون في إشباع رغبات هؤلاء وأولئك، يبقى أمامهم، كما هو الشأن في كل مكان، حل اللجوء إلى المقهى، ـ بعد بضعة إخفاقات يملّون ويطلقون زوجاتهم، وفي بعض الأحيان يتم ذلك بكل تأسف.

في هذه المرحلة من التطور، الأوضاع العائلية كلها وفي جميع مراحل الحياة هي الآن، منتصبة الأشواك وتفرض على كل واحد وواحدة وسواس الهروب ـ هروب إلى الأمام نحو المستقبل بالنسبة إلى البعض، وهروب نحو الماضي بالنسبة إلى جميع الآخرين.

إن خلفية عدم الإشباع السرية هذه، ضمن تعدد الصعوبات السياسية والاقتصادية للزمن الحاضر، ما زالت تشف داخل كل حياة، ندرك إذن، أن القبيلة الأندوغامية، «جمهورية أبناء العم» الحية في الذاكرة والمتعذر بلوغها معاً ـ صورة، أسطورة، نموذج ـ تبدو مثل مرفأ سلام، رفاق، فضيلة، سعادة: مثل عصر ذهبي.

لكن لا يمكن الرجوع إلى الوراء والمجهودات كافة التي بذلت في هذا الاتجاه ليس لها إلا نتيجة واحدة: وقف التقدم، حجز المستقبل، الحفاظ على المجتمع في أقسى وأخطر مرحلة من تطوره.

---

(١) يمكن القول إن النزعة النسوية في البلدان الإسلامية هي مشكلة الرجل.

ليس من غير المألوف أن يقال إن معظم بلدان المتوسط سيئة السمعة في ما خص موقع المرأة الدوني. فعلى امتداد شمال إفريقيا وشطر واسع من الساحل الشرقي للمتوسط، يغتال أهل العائلة امرأة منهم لارتكابها «جريمة شرف». ونادراً جداً ما يلقى المرتكب العقوبة التي يستحق. هكذا تعيش النساء حياتهن كلها في ظل «حماية» الرجال الذين هم الآباء والأخوة والأزواج.

وفي هذا العمل الكلاسيكي الذي صدرت منه عدة طبعات في فرنسا، ترى جيرمين تيليون أن هذا الشكل المتطرف من الاضطهاد ليس سلوكاً شاذاً يقتصر على عالم المسلمين. فهو جزء من ميراث مستمد من الوثنية الما قبل تاريخية، والتي لا تزال تثقل على المجتمعات المسيحية والمسلمة سواء بسواء.

أما الابتكار الاجتماعي الفريد الذي عرفه المتوسط، حيث يسترخي المُحرّم القراني ويشيع زواج أبناء الأعمام (وهو ما تسميه الباحثة «جمهورية أبناء العم»)، فهو ما يؤسس لتدمير وضع المرأة، كما لظروف أُخرى اقتصادية وإنجابية تعود عليها بالسوء.

وإذا كانت سواحل المتوسط الشمالية قد غادرت «جمهورية أبناء العم» إلى «جمهورية المواطنين» الحديثة (ولو أنها خلفت تأثيرات عديدة على المجتمعات الأوروبية والأميركية)، فإن سواحل المتوسط الجنوبية والمسلمة لم تفعل بعد.

ودعماً لأطروحتها، تستنجد تيليون بأعمال مكتبة تمتد من هيرودوتس إلى القديس بولس وابن خلدون، كما تعتمد على الأسطورة والأدب والإثنوغرافيا والتاريخ الشخصي والتنقيب السوسيولوجي وقصص الحياة اليومية البديعة. فـ «جمهورية أبناء العم»، في النهاية، عمل ساحر ومدهش في اتساع نطاقه، يمزج بين المعاينة العلمية وذكاء الملاحظة والتأمل الذي يستفز.

ISBN 1 85516 318 7

